جامعـــة مؤتة

كليـة الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

المدائح النّبويّة عند شهاب الدِّين محمود الحلبيّ
دراسة موضوعيّة وفنيّة

إعداد

أيمن فرحان الحميدي العمايرة

بكالوريوس لغة عربية

جامعة مؤتة - الأُردن

١٩٩١م

إشراف

د. شفيق محمد الرّقب

قُدّمت هذه الرّسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في جامعة مؤتة - قسم اللغة العربية

تاريخ تقديم الرّسالة : ٥ / ٥ / ١٩٩٩م

تاريخ مناقشة الرّسالة : ٧ / ٦ / ١٩٩٩م

لجنة المناقشة

د. شفيق الرّقب	رئيساً ومشرفاً
أ.د. رشدي الحسن	عضواً
د. سمير الدروبي	عضواً

المحتوى

الموضوع	رقم الصفحة

* الفصل الثاني ١١٠-٧١

* الفصل الثالث ١٨٢-١١١

الإهداء

- إلـــــى والديّ ثمرة من ثمار غرسهما
- إلى زوجتي المخلصة وولديّ الحبيبين :
  مؤمن ومحمد الأمين

شكر وتقدير

بعد أن منّ اللهُ عليّ بإتمام هذه الرسالةُ لا يسعني إلا أن اتقدمَ بوافر الشُّكر وعظيم الامتنان لحضرة أستاذي وشيخي د. شفيق الرّقب الذي كان له عليّ وعلى هذا البحث فضلٌ متصل منذ بدأت فكرته إلى اليوم ، فقد أحاطني برعايته وعنايته وتوجيهاته وملاحظاته التي ساهمت في إخراج هذا البحث على هذه الصورة ، فجزاهُ اللهُ عني وعن طلاب العلم خيرَ الجزاء ، وأمدَّ بعمره ومتَّعه بالسّعادة .

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أتوجه بالشكر والامتنان لأستاذي الكريمين عضوي لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور رشدي الحسن والدكتور سمير الدروبي لتفضلهما بقبول مناقشة هذه الرّسالة ، وتحمُّل عناء قراءتها .

وأوجِّه شكري الخاص والجزيل لكل من الأخ الدكتور محمد نايف العمايرة ، والأخ الزميل محمد عبدالله العمايرة ، لما قدماه لي من مساعدة ، كما اتقدم بالشكر الجزيل إلى الزميلين : صالح الحجاج ، وبكر المحيسن .

ملخص

المدائح النَّبويَّة عند شهاب الدِّين محمود الحلبيّ

دراسة موضوعيَّة وفنيَّة

إعداد:أيمن فرحان الحميدي العمايرة

إشراف

د. شفيق محمد الرّقب

يدرس البحث فنَّ المدائح النَّبويَّة عند الشَّاعر شهاب الدِّين محمود الحلبي (٦٤٤ - ٧٢٥) هـ ؛ وذلك من خلال ديوانه (أهنى المنائح في أسنى المدائح) ، وهو ديوان لم يحظ بالدّراسة من الباحثين المحدثين ، وذلك بهدف الكشف عن مدى التّطور الذي أصاب فن المديح النّبوي في العصور المتأخرة .

وجُعل البحث في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، عالج التمهيدُ علاقة الشّاعر بالعصر ، والظروف الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة التي عايشها ، وأثّرت في قوله الشّعري .

وتناول الفصل الأول دوافع المديح النّبوي عند الشّاعر ، وهي قسمان : الأول - دوافع العصر والبيئة ، والثاني - الدوافع الشّخصية ، التي جعلته يفرد لهذا الموضوع ديواناً خاصاً .

ويلقي الفصل الثاني الضوءَ على صورة الرّسول (ﷺ) وصحابته في مدائح الشّاعر النّبوية ، عارضاً إياها من خلال أربعة محاور : الحقيقة المحمدية ، والسيرة النّبوية ، والمثالية الخُلقية للرّسول (ﷺ) ، ومدح الصحابة .

وعالج الفصل الثالث القضايا الفنية في مدائح الشّاعر النّبوية من حيث ؛ البناء الهيكليّ لقصيدة المديح النّبويّ عنده ، وأسلوبه ، والصُّورة الشعرية .

وجاءت الخاتمة لتلخِّص النتائج التي توصل إليها الباحث .

المقدّمة

ازدهرت المدائح النّبوية في العصور الأيوبية والمملوكية ازدهاراً واسعاً ، وقد حظيت بدراسات مختلفة ؛ بعضها جاء ضمن دراسات عامة لحركة الأدب العربي في تلك العصور [١] ، وبعضها تناولها بصورة مستقلة [٢] ، وبعضها درسها لدى شاعر معين .[٣] وقد ركّزت جلُّ تلك الدراسات على الشّاعر البوصيري ، وعدّته شاعر المديح النّبوي كمّاً وكيفاً ، ولا ريب أن المدائح النّبوية قد تطوّرت على يد هذا الشاعر تطوراً كبيراً ، غير أنّ ثمة شعراء آخرين قالوا في هذا الفن ، وأفردوا له دواوين خاصّة دون ان ينالوا تلك العناية والشهرة التي حظي بها البوصيري ، وعلى رأس هؤلاء شهاب الدِّين محمود الحلبي ، الذي قال في مدح الرّسول ديواناً شعرياً كاملاً سمّاه : (أهنى المنائح في أسنى المدائح) ، وقد ظنّ بعض الدارسين الكبار [٤] أنّ هذا الديوان فُقد ، وسقط من يد الزّمن ، في حين توُجد منه نُسخة خطية في مكتبة (شستربتي) ، وقد نُشرت في مصر دون تحقيق سنة (١٣٣٤) هـ .

١- انظر على سبيل المثال : شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي / عصر الدّول والامارات مصر والشام ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤م). محمد زغلول سلاّم ، الأدب في العصر المملوكي، (دار المعارف ، مصر ، د.ت) . عمر موسى باشا ، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني ، (مطبعة الإحسان ، دمشق ، ٧٩-١٩٨٠م) . محمد كامل الفقي ، الأدب في العصر المملوكي ، (دار الموقف العربي ، مصر ، ط٣ ، ١٩٨٤م) . محمد التونجي ، التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي ، (دار طلاس للدراسات والترجمة والنّشر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٧م) .

٢- انظر زكي مبارك ، المدائح النبوية في الأدب العربي ، (دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٨٠م) . محمود سالم محمد ، المدائح النّبوية حتى نهاية العصر المملوكي ، (دار الفكر المعاصر بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٦م) . محمود علي مكي ، المدائح النّبوية ، (دار نوبار ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩١م) .

٣- انظر مخيمر صالح ، المدائح النّبوية بين الصّرصري والبوصيري ، (دار مكتبة الهلال ، بيروت ، والدار العربية ، عمّان ، ط١ ، ١٩٨٦م) . ومحمد رجب النجار ، بردة البوصيري قراءة أدبية وفلكلورية ، (حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السابعة ، ١٩٨٦م) .

٤- يقول شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي / عصر الدول والإمارات ، في معرض حديثه عن الشّاعر شهاب الدين وعلاقته بسلاطين عصره : « ... وله وراء هذه المدائح الحماسية مدائح نبوية جمعها في ديوان سمّاه (أهنى المنائح في أسنى المدائح) وهو مفقود » ، ويؤكد هذا الأمر في موقع آخر من الكتاب بقولـه : « وللشّهاب محمود ديوان في مديح الرّسول (ﷺ) سقط من يد الزمن » : ٦٤٥ و ٧٦٢

غير أنَّ هذا الديوان لم يحظ في حدود اطِّلاعي بالدَّرس العلمي ، ولم يعتمد عليه الباحثون الذين درسوا المدائح النَّبوية في العصور المتأخرة إلا قليلاً ، ومن ثمّ فإن هذه الرّسالة تسعى إلى دراسة الديوان ؛ دراسة موضوعية وفنيّة بهدف التعريف به ، والكشف عن القيم الموضوعية والفنيّة فيه ، وإبراز الدور الذي نهض به شهاب الدين محمود في تطوير فنّ المدائح النّبوية .

وتقع هذه الدّراسة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، يدرس التّمهيد عصر الشّاعر دراسة موجزة ، وعلاقة الشّاعر بالأحداث الكُبرى في عصره ، وكيفيّة تأثره بها ، وتفاعله معهـــا ، دون أن أُفصِّل القول في حياته ، دفعاً لتكرار ما قاله الباحثون السّابقون .[1]

ويدرس الفصل الأول دوافع المديح النّبويّ لدى شهاب الدِّين محمود ، وقد جعلتها في قسمين : الأول عرضتُ فيه آثار العصر والبيئة ، وحصرتها في الحثّ على الجهاد ، والإصلاح السّياسي ، والتّهذيب الخُلقيّ ، والهروب من الواقع والعودة إلى الجذور . والثاني تناولت فيه الدوافع الشّخصية التي تمثّلت في الحنين إلى الديار الحجازية ، والتبرك بالمقدسات ، والشعور بالذنب والاستغفار ، ووصف طريق الحج ومناسكه ، والحصول على المكانة الاجتماعية والمنزلة الأدبية ، والمؤثرات الصّوفية .

ويدرس الفصل الثانـي : (صورة الرّسول وصحابته في المدائح النّبوية لشهاب الدين محمود) ، وقد دَرَسْتُ ذلك ضمن الأطر التالية : الحقيقة المحمدية ، والسّيرة النّبوية ، والمثالية الخلقية للرّسول (ﷺ) ، ومدح الصحابة .

١- انظر : أحمد حسن الذنيبات ، الشهاب محمود الحلبي ، حياته ونثره ، رسالة ماجستير (مكتبة جامعة مؤتة ، الكرك ، ١٩٩٥م) . ومحمد زغلول سلاّم ، الأدب في العصر المملوكي ٢:٧٦-٨٦ . وعمر موسى باشا ، محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني : ١٣٦-١٥١ . ومحمد التونجي ، التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي : ٣٠٣-٣٠٦ .

أما الفصل الأخير فقد جُرّد للدراسة الفنّية ، حيث حلّلتُ الأدوات الفنية التي استخدمها الشّاعر في مدائحه النّبوية ، فتناولت الشكل الهيكلي لقصيدة المديح النّبوي ، وأهم الظواهر الأسلوبية التي تمثلت فيها ، والصُّورة الشِّعرية . وقد أنهيت الرّسالة بخاتمة عرضتُ فيها النتائج الرئيسة التي توصلت إليها .

وقد كان ديوان (**أهنى المنائح في أسنى المدائح**) ، المصدر الرئيس الذي اعتمدتُ عليه في هذه الدّراسة ، حيث استقيتُ منه النصوص الشعرية ، وقمت بدرسها وتحليلها ، كما أفدت من بعض المصادر الأخرى التي أضاءت لي العصر ، وساعدت على فهم كثيرٍ من القضايا في قصائد الديوان ، ومن هذه المصادر : « **الخطط المقريزية** » ، و « **السلوك لمعرفة دول الملوك** » لتقي الدين المقريزي ، و « **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين** » لابن دقماق ، و « **تاريخ ابن الفرات** » ، لابن الفرات و « **التحفة الملوكية في الدولة التركية** » لبيبرس المنصوري وغيرها ، حيث أفدت منها في إضاءة جوانب العصر الاجتماعية والسياسية والدينية .

وأفادت الدّراسة من بعض المصادر الأخرى في التعريف بحياة الشاعر وعلمه وأدبه ، أذكر منها : « **أعيان العصر وأعوان النصر** » ، لصلاح الدين الصَّفدي ، و « **فوات الوفيات** » لابن شاكر الكتبي ، و « **مسالك الابصار** » لابن فضل الله العمري ، و « **الذيل على طبقات الحنابلة** » لابن رجب الحنبلي ، و « **البداية والنهاية** » لابن كثير . كما استعانت الدراسة ببعض كتب السيرة عند تحليل القضايا الموضوعية للديوان ، مثل : « **الفصول في حياة الرسول** » لابن كثير ، و « **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد** » لمحمد بن يوسف الصالحي .

وقد استعانت الدّراسة ببعض المراجع الحديثة في إنارة طريق البحث مثل « **فصول في الشّعر ونقده** » لشوقي ضيف ، و « **بناء القصيدة العربية** » ليوسف بكار ، وقراءة « **أدبية وفلكلورية في بردة البوصيري** » لمحمد رجب النجار ، وغيرها من المصادر والمراجع التي أثبتت في آخر الدراسة .

واستدعت طبيعة هذه الدِّراسة ، أن أستفيد من مناهج أدبية متعددة في استنطاق النصوص وفهمها ، فأفدت من المنهج التاريخي والاجتماعي في دراسة دوافع المديح النَّبوي لدى الشاعر ، سواء أكانت تتعلق بالعصر والبيئة ، أم كانت دوافع شخصية تتعلق بذات الشّاعر ، وأخذت بالمنهج الفني في دراسة الأدوات الفنية التي استخدمها الشاعر في التعبير عن تجربته الشّعرية ، واستخلاص أهم السّمات التي تميزت بها مدائحه النَّبوية .

وبعد : فأرجو من الله أن أكون قد وفِّقت في دراستي هذه ، وأن اكون قد وفيت الأمانة العلمية بكل ما بذلته من جهدٍ في سبيل إخراج هذا البحث ، فإن حالفني الصواب ، فهذا ما آمله ، وإن وقعت في الخطأ فحسبي نصيب المجتهد .

تمهيد

العصر والشّاعر

يُعدّ مقتل السلطان المعظم توران شاه بن الملك الصالح أيوب على يد مماليك والده إيذاناً ببدء دولة المماليك ، حيثُ نُصِّبت شجرة الدُّر سلطانة على مصر ، إلا أن هذا الأمر لم يرق سلاطين بني أيوب ، والخليفة العباسي في بغداد الذي أخذ على أهل مصر أن تحكمهم امرأة ، فحاولت شجرة الدُّر التخلص من هذا المأزق بالزواج من أحد أمراء المماليك ؛ وهو عزالدين أيبك ، وتنازلت له عن السُّلطة سنة (٦٤٨)هـ .[١]

غير أنَّ العلاقة قد ساءت بين عزالدّين أيبك وزوجه ، فدبَّرت مؤامرة لاغتياله ، نفَّذها مجموعة من غلمانها في الرابع عشر من ربيع الأول سنة (٦٥٥) هـ ، وبذلك انتهت فترة حكم عز الدين ، التي تميزت بالظلم والقسوة ، إذ قال فيه المقريزي : « كان ظلوماً غشوماً ، سفاكاً للدماء ، أفنى عوالم كثيرة بغير ذنب » .[٢]

وآلت السُّلطة من بعده إلى ولده علي ، وهو صبيٌّ لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، ولُقِّب بالمنصور ، وعُيِّن الأمير سيف الدين قطز أتابكا[٣] له ، وسرعان ما استغل قطز فرصة خروجه لقتال التتار سنة (٦٥٨) هـ ، فخلع المنصور علياً بحجة صغر سنه ، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر ، لكنه وأثناء عودته منتصراً من معركة عين جالوت ، يُقتل على يد الأمير بيبرس البُندقداري ، الذي أعلن نفسه سلطاناً في السابع عشر من ذي القعدة سنة (٦٥٨) هـ [٤].

١- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، (مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م) ٢ : ٢٣٧

٢- المصدر السابق ٢ : ٢٣٨

٣- الأتابك : لقب أطلق على القائد العام في جيش المماليك ، والمصطلح تركي مكون من لفظتين : أتا وتعنى الأب ، وبك وتعني سيد ، والمعنى السيد أو الأمير . انظر القلقشندي ، أحمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، مصوَّر عن الطبعة الأميرية ، (المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣م) ٤ : ١٨

٤- المقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٧

ويحاول الظاهر بيبرس اكتساب الشَّرعية لحكمه ، بإقامته الخلافة العباسية في مصر ، بعد سقوطها في بغداد على يد التتارسنة (٦٥٦) هـ ، فيستقدم أحد أبناء البيت العباسي إلى مصر ، وينصِّبه خليفة للمسلمين ، ثم يأخذ مِنْه تقليداً بحكم مصر ، وما يقع في يديه من البلاد .[١]

كانت فترة حكم الظاهر بيبرس مستقرة نسبياً ، وقد اعتنى فيها بالرعيّة ، وأجرى اصلاحات واسعة على إدارات الدولة ، فاستحدث كثيراً من الوظائف الحكومية ، وَعَيَّنَ قضاة علــى المذاهب الأربعة ، واستطاع بشجاعته وقوة بأسه أن يَدْحَرَ التتار عن مصر ، ويستعيد بعض المواقع الإسلامية منهم ، ويستمر بيبرس في الحكم ، حتى يوافيه الأجل سنة (٦٧٦) هـ [٢] .

وتولّى العرش بعده ولده الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان ، غير أن الخلاف دبَّ بينه وبين أمراء أبيه ، فأُجبر على خلع نفسه بعد توليه السلطة بسنتين ، وولّى المماليك بدلاً منه أخاه بدر الدين سلامش ، وكان عُمره آنذاك سبع سنين ، وعُيِّنَ سيف الدين قلاوون أتابكا له ، ثم اتفق قلاوون مع المماليك على خلع السلطان سلامش بحجة صغر سنة بعد توليه السلطة بثلاثة أشهر ، واستقل قلاوون بالحكم ، ولقّب نفسه المنصور ، وبقي متربعاً على عرش السّلطنه حتى وفاته سنة (٦٨٩) هـ [٣].

١- ابن عبدالظاهر ، مُحي الدين بن عبدالظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، (الرياض ، ط١ ، ١٩٧٦م) : ٩٩

٢- المصدر السابق : ٤٧٢ - ٤٧٤

٣- المقريــزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٦م) ١/٣ : ٦٦٣ ، وابن دقماق ، صارم الدين ابراهيم بن محمد العلائي ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ، (عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م) ٢ : ٧٩ ، والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٨

وتنتقل السّلطة إلى السّلطان خليل بن قلاوون ، وعندها وكما هي العادة التي جرى عليها أمراء المماليك ، تبدأ الدسائس والمؤامرات للتخلّص منه ، وتحين الفرصة لهم عام (٦٩٣) هـ بعد عودته من عكا التي استردها من الصليبيين ، حيث تآمر عليه عدد من المماليك ، وقتلوه بعد انفراده عن العسكر للصّيد [١].

وبمقتل السّلطان خليل تنتقل السلطة إلى أخيه النّاصر محمد بن قلاوون سنة (٦٩٤) هـ ، الذي لم يكن قد تجاوز التاسعة من عمره ، فيُعَيَّنُ زيــن الدين كُتْبُغا أتابكاً له ، ويغتصب العرش منه بعد سنة تقريباً ويلقب نفسه بالعادل . ويذكر المقريزي أن أيام كُتْبُغا كانت « شرّ أيام لِمَا فيها من قصور مدّ النّيل ، وغلاء الأسعار ، وكثرة الوباء في النّاس » [٢] .

وفي سنة (٦٩٦) هـ ثار عليه نائب السّلطنة حسام الدين لاجين ، ففر كُتَبُغا إلى الشّام ، وجلس حُسام الدين على عرش السّلطنة ، وبدأت الدّسائس والمؤامرات لاقصائه عن السلطة ، ويتمكن اثنان من الأمراء سنة (٦٩٨) هـ هُما : سيف الدين طغجي ، وسيف الدّين كُرجي[٣] من قتله ، عندما كان جالساً في قصره يلعب الشطرنج .[٤]

وكما هي العادة التي جرى عليها أُمراء المماليك ، وهي تولي قاتل السلطان مكانه ، حاول كل من طغجي وكرجي الاستيلاء على العرش ، إلا أن ذلك لم يجد قبولاً من أمراء المماليــــك ، فقامـــــوا بقتلهما ، واستقر الرأي على استدعاء النّاصر

١- المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٧٦٥ ، والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٨ - ٢٣٩ ، وابن دقماق ، الجوهر الثمين ١ : ٢٢٤

٢- المقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٩ ، وابن دقماق ، الجوهر الثمين ٢ : ١١٨

٣- سيف الدين طغجي بن عبدالله الأشرفي ، أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، وسيف الدين كرجي قتلا السلطان حسام الدين لاجين ، ومملوكه منكوتمر ، ثم قتلا بعده بثلاثة أيام . ابن تغري بردي ، ، أبو المحاسن يوسف ، النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (طبعة مُصوَّرة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، د.ت) ٨ : ١٨٣

٤- ابن تغــري بردي ، النجوم الزاهرة ٨ : ١٠١ ، والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٩ ، والسلوك ١/٣ : ٨٦٥ ، وابن دقماق ، الجوهر الثمين ٢ : ١٢٢

محمد بن قلاوون من الكرك لتولي العرش للمرة الثانية ، وتمّ تعيين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة [١] ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استاداراً ،[٢] إلا ان هذين الأميرين ضيّقا الخناق على الناصر ، فاضطر للتخلي عن السُّلطة اختياراً ، فأظهر في سنة (٧٠٨) هـ قصده الذهاب للحج ، إلا أنه غير وجهته ونزل في الكرك ، وأرسل منها إلى مصر كتاباً بإعفائه لنفسه من السُّلطة [٣] .

وتولّى العرش من بعده الأمير بيبرس الجاشنكير ، ولقّب نفسه بالمظفر ، إلا أن هذا الأمر لـم يرضِ الأمراء المماليك ، فامتنع عدد منهم عن الحلف له ، فاضطربت أحواله ، ولم يستطع تثبيت قواعد ملكه ، على الرغم من كل المحاولات التي عملها لتثبيت أركان دولته ، فاضطر في النّهاية إلى خَلْع نفسه بعد عام من توليه السُّلطنة ، وكتب للناصر محمد بذلك .[٤]

ويعود النّاصر محمد بن قلاوون سنة (٧٠٩) هـ من الكرك متوجهاً إلى مصر ، ويجلس على سرير السّلطنة ، وهي سلطنتـه الثالثة فيستبد بالأمر حتى وفاته سنة (٧٤١) هـ[٥] .

يُلاحظ من الاستعراض السّابق أن فترة الحكم المملوكي من بدايتها وحتى وفاة الشّاعر ، كانت فتـرة اضطرابات وتزاحم على السُّلطة ، وإن تخلّلتها فترات هدوء نسبية ، خاصة في عهد الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون لطول مدة حكمهما النّسبية قياساً على فترات حكم سلاطين المماليك الآخرين .

١- نائب السّلطنة من يقوم عن السلطان في الحكم ، وفي تنفيذ أمره . انظر السُّبكي ، تاج الدين عبدالوهاب ، مُعيد النعم ومُبيد النقم ، تحقيق محمد على النّجار وآخرون ، (دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٨م) : ٢١ (الهامش)

٢- الاستادار : هو من يتكلم في إقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم ، انظر السُّبكي ، معيد النعم : ٢٦ ، وكان الاستادار برأس الديوان المفرد في العصر المملوكي ، الذي يُسمى أحياناً ديوان الاستادارية ، وهو ديوان مسؤول عن الاقطاعات الخاصة برواتب وكسوات ومخصصات الجيش المملوكي . القلقشندي ، صبح الأعشى ٣ : ٤٥٣ ، والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٢٣

٣- ابن دقماق ، الجوهر الثمين ٢ : ١٢٩ ، ١٣٧ والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٩

٤- ابن دقماق ، الجوهر الثمين ٢ : ١٣٩ والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٩

٥- ابن دقماق ، الجوهر الثمين ٢ : ١٤٠ - ١٤٥ والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٩

وقد تميّز المماليك بالاغراق في الترف واللهو ، والانغماس في الملذات ، « فقد كانوا يُعطرون لحاهم بالمسك ، ويرشون على ثيابهم الفاخرة ماء الورد ، وكثيراً ما يحرقون عود النّد لينتشر شذاه في الحجرات ، كما كانوا يفرشون منازلهم بأثمن الطنافس[١] والبُسط ، ويقتنون أواني الشراب والطسوت المطعمة بالذهب والفضة »[٢]؛ في الوقت الذي كان فيه عامة الشعب يرزحون تحت عبء الضرائب الباهظة ، والمجاعات والأوبئة التي كانت تجتاحهم بين الحين والآخر ، فتحصد الألوف .

واتصف العديدُ من الأمراء المماليك بالبطش والظلم ، وسفك الدّماء ، فقد أشار ابن الفرات في تاريخه إلى الملك الظاهر بيبرس بقوله: « كان الملك الظاهر نعم الملك لولا ما كان فيه من الظُلم ، وأخذ أموال الرّعية بغير حق » [٣]، ويؤكد ابن إياس في تاريخه ما ذهب إليه ابن الفرات [٤]، كما يقول عنه المقريزي : « وكان ملكاً جليلاً عسوفاً عجولاً ، كثير المصادرات لرعيته ودواوينه ، سريع الحركة ، فارساً مقداماً » .[٥]

أما قلاوون فقد « افتتح دولته بالحسنات ، وإزالة الحادثات ، فمّما أزاله وأبطله ، وعفاه وعطّله ، زكاة الدّولبة التي كانت تطلب من أرباب العقار ، وأضرت بالرعية غاية الأضرار » [٦] ، ولكنه في عام توليه السّلطة يُصدر مرسوماً بتضمين الخمر ، فكثر نتيجة لذلك شُرب الخمر والسكارى ، وزال الاعتراض عليهم .[٧]

١- مفردها طُنفُسة وطِنفِسة وهي البساط له خمْلٌ رقيق .
٢- علي ابراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، (مكتبة النّهضة المصرية ، القاهرة ، د.ت) : ٤٨١
٣- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق و نجلاء عز الدين ، (المطبعة الإمريكانية ، بيروت ، ١٩٣٩م) ٧: ٨٤
٤- ابن إياس ، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الدّهور ، تحقيق محمد مصطفى ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٢) ١/١ : ٣٣٧
٥- المقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠٣
٦- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية في الدولة التركية (٦٤٨-٧١١) هـ ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان ، (الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٧م) : ٥٦
٧- المقريزي ، السلوك ٣/١ : ٦٦٨

وهـــذا ابنه السلطان خليل « لم يَجِدَّ في زمانه مظلمة ، ولا استجد ضمان مكس ، وكان يُحب الشام وأهله » ،[١] ولكنه إلى جانب ذلك أباد جماعة من كبراء دولته .[٢]

وأما ركن الدين بيبرس الجاشنكير فقد أبطل عند جلوسه على كرسي السلطنة ، « سائر الخمارات من السواحل ، وغيرها من بلاد الشام ، وسامح بما كان من المقرر عليها للسلطان ، وعوض الأجناد بدله ، وكُبست أماكن الريب والفواحش »[٣] ، ولكنه عندما أعاد مسح البلاد فيما يُسمى (الروك الحساميّ) ، وَكّلَ في ذلك رجلاً من الأقباط « فجار على النّاس وضج منه الأمراء وسائر الجند » [٤].

ولكن ما هو موقف العرب من هذا الواقع ؟ لقد كان العرب ينظرون للمماليك على أنهم غاصبون للحكم ، فقاموا بالعديد من الثورات على امتداد حكم المماليك كان مصيرها الفشل ، فقد أوقع الملك المعز أيبك بعرب الصعيد سنة (٦٥١) هـ ، « وقبض على الشريف حُصنُ الدِّين بن ثعلب [٥] وأذلَّ سائر عرب الوجهين القبلي والبحري ، وأفناهم قتلاً وأسراً وسبياً ، وزاد في القطيعة على من بقي منهم حتى ذلوا وقلوا » [٦].

وأعاد الشّريف حُصن الدِّين ثعلب الكرّة سنة (٦٥٣) هـ ، وأعلن العصيان ، فتحايل عليه المعز ، حتى أحضره إلى مصر واعتقلهُ بالإسكندرية .[٧]

١- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، (دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١م) ٣: ٨٠٦

٢- المصدر السابق ٣: ٨٠٥

٣- المقريزي ، الخطط ٢:٤١٧

٤- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ١٥٢ وابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٩٦

٥- هو الشريف حصن الدين بن ثعلب ، سمت نفسه إلى المُلك في أواخر الدولة الأيوبية ، وبقي حتى ملك الظاهر بيبرس ، فأعمل له غوائل الغدر حتى قبض عليه وشنقه بالأُسكندرية . انظر القلقشندي ، صُبح الأعشى ١ :٣٥٩ ، والعمري ، أحمد بن فضل الله ، التعريف بالمصطلح الشّريف ، دراسة وتحقيق سمير الدروبي ، (جامعة مؤتة ، الكـــرك ، ط١ ، ١٩٩٢م) : ٢٧٠ ، وورد فيه أن اسم والده هو تغلب .

٦- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ٣٣ والمقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٧- ٢٣٨

٧- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ٣٧

وقد بالغ المماليك في عقابهم العرب الخارجين على طاعتهم ، فقد ذكر بيبرس المنصوري في التحفة الملوكية في حوادث سنة (٦٧٢)هـ ، أن اميراً من أمراء العربان كان معتقلاً في قلعة عجلون لجرمٍ ارتكبه ، فاحتال وهرب منها إلى بلاد التتار ، ثم أرسل يطلب الأمان ليعود إلى بلاده ، فأبى عليه السُّلطان وقال : « ليس له عندي أمان إلى أن يعود إلى محبسه ، ويضع الطوق كما كان في عنقه ، فعاد إلى عجلون ، ودخل إلى المكان الذي كان معتقلاً فيه ، وجعل الطوق في عنقه كما كان عليه ، فعند ذلك عفا السلطان عنه »[١].

وفي سنة (٦٧٩) هـ ، صدر مرسوم يقضي بأنّ « العربان في البلاد تُحسم موادهم ، وتُؤخذ رهاينهم ، ويُحترز عليهم ، ويُكتب إلى النواب والولاة في الأعمال بالمناداة بأن أحداً منهم لا يحمل سيفاً ولا رمحاً ، ولا سلاحاً ، ولا يُفْسَح لأحدٍ منهم في ابتياع ذلك من القاهرة ومن خالف ذلك ، وَحَمَلَهُ في سفر من بلدٍ إلى بلد ، تُستهلك تلك العُدَّة ويؤدب » [٢].

وفي سنة (٧٠٠) هـ زحفت بضع مئات من المماليك السلطانية إلى بلاد الصعيد في مصر ، وقتلت الكثير من العربان ، وصادرت الخيولَ والأسلحة .[٣]

ولهذا جاءت هذه الثورات وحركات التمرد تعبيراً « عن شعور قومي ، وعن رفضٍ لسلطة المماليك ، على الرغم من إفصاح بعض قادة هذه الحركات عن مآربهم وأهدافهم بصراحة ووضوح »[٤].

١- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ٧٩
٢- تاريخ ابن الفرات ٧ : ١٩٩
٣- المقريزي ، السلوك ١/٣ : ٩١٤
٤- محمود سالم محمد ، أدب الصّناع وأرباب الحرف حتى (ق ١٠ هـ) ، (دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٣م) : ١٣

وتبعاً لذلك فقد حرص المماليك على عدم وصول العرب إلى مناصب مهمة في الدولة ، واقتصرت وظائفهم الحكومية على دواوين الانشاء أو القضاء ، « ولم يكن العرب أو أولاد المماليك يستطيعون الوصول إلى المناصب العالية ، أو إلى مرتبة مُقدَّم ألف ، فإنهم لم يتعدوا مرتبة أُمراء الطبلخاناة [١] ، ولسنا نعرف شواذ لهذه القاعدة في عصر الناصر » [٢] .

ووصل الأمر بالمماليك إلى منع العلماء والفقهاء من ركوب الخيل ، وقصر ذلك على أمراء المماليك ، وفي ذلك يقول السُّبكي : « ومن قبائحهم استكثارهم الأرزاق - وإن قَلَّت - على العلماء ، واستقلالهم الأرزاق - وإن كَثُرت - على أنفسهم ، ورأيت كثيراً منهم يعيبون على بعض الفقهاء ركوب الخيل ، ولبس الثياب الفاخرة ، وهذه الطائفة من الأمراء يُخشى عليها زوال النعمة عن قريب »[٣] .

ولم تكن حياة النَّاس الاجتماعية أقل اضطراباً من الأَحوال السياسية ، ووفقاً لتقسيم المقريزي للمجتمع المملوكي حيث جعله في سبعة أقسام هـي : « أرباب الدولة (المماليك) ، مياسير التجار ، متوسطو الحال من التجار ، أصحاب الفلاحة والحرث ، الفقهاء وطلاب العلم ، أصحاب الصناع وأرباب المهن ، أهل الخصاصة والمسكنة » ،[٤] فقد كان المماليك في قمة الهرم الاجتماعي ، فهم أصحاب السُّلطة والنفوذ ، فالسلطان ونوابه وأمراء جيشه ، كانوا من المماليك ، أما بقية أفراد المجتمع في عصره ، وجلهم من العرب فهم أقل شأناً منهم ، باستثناء رجال الدين والفقهاء ، فقد كانت لهم مكانتهم .

١- الطبلخاناة : رتبة من رتب الجيش المملوكي ، وتقضي بأن يكون لصاحبها أمرة أربعين فارساً كحد أدنى ، وسمي أرباب هذه الرتبة بأمراء طبلخاناة لأن لهم الحق في دق الطبول على أبوابهم . انظر ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل ، زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بوليس راويس ، (مطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤م) : ١١٣

٢- علي حسن ، تاريخ المماليك البحرية : ٣٣٨

٣- الشبكي ، معيد النعم : ٤٩

٤- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد زيادة وجمال الدين الشيال ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠م) : ٧٣ - ٧٥

« وجملة القول في أهل ذلك العصر وجماعاته ، أنهم كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيناً في الجنس والنشأة ، وفي العقول والعواطف ، والمذاهب والمعتقدات ، وهم بعد طبقات اجتماعية متغايرة » ،[١] فيهم العالم والفقيه ، والعامي ، وصاحب الحرفة ، والفلاح ، إضافة إلى طائفة الأعراب وأهل الذمة من يهود ونصارى .

وكانت أخلاق النّاس تتأرجح بين الاستهتار بالقيم والانحلال ، وكثرة المعاصي ، وارتكاب الفواحش والموبقات من جهة ؛ وبين الأغراق في التدين والزهد من جهة أخرى ، فالحانات منتشرة ، والزنا واللواط متفشيان بين أفراد المجتمع ، بل كانت بيوت الحشيش والخمر ، تدفع ضمانات للحكومة مقابل ممارسة أعمالها حتى أمر الظاهر بيبرس بإبطال ضمانات هذه البيوت .[٢]

وزاد البلاء على أهل ذلك العصر كثرة الأوبئة والأمراض والكوارث ، والتلاعب بأموال العامة واحتكارها ؛ ففى سنة (٦٥١) هـ شبَّ حريق عظيم بحلب احترقت بسببه ستمائة دار [٣]، وحصل في دمشق سنة (٦٦٩) هـ سيلٌ غرق فيه الكثير من البشر والدواب والأشجار ، « ويقال أن عدة من هلك به يناهز ألف نفس » [٤]. وعاود دمشق سنة (٦٨٣) هـ سيلٌ آخر « طمّ الدور والفنادق ، وأهلك من العالم والدواب والمتاع مالاً لا يُحصى » [٥].

١- علي صافي حسين ، الأدب الصّوفي في مصر في ق ٧ هـ ، دراسة في الأدب المصري ، (دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٤م) : ٢١

٢- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ٥٦ ، والمقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠٢

٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٢٩١

٤- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ٧٢

٥- تاريخ ابن الفرات ٧:٨

ودَكَّت مصر سنة (٧٠٢) هـ زلزلة عظيمة كان مركزها في الإسكندرية ، ولما اشتدَّ أَمرها « خـرج النَّاس إلى الصحارى ، وهرب النَّاس من دكاكينهم وتركوها مُفتَّحة ، وخرجت النِّساء من بيوتهن مُسببات ، وظن النَّاسُ أنها القيامة ، وسقطت أماكن كثيرة على النّاس ، وهلكوا تحت الردم ، وأقامت هذه الزلزلة تعاود النّاس مدة عشرين يوماً »[1] .

أما الأوبئة والأمراض فلم تزل تعاود النّاس من حين لآخر ، وتحصد الآلاف ، ففي سنة (٦٧١) هـ انتشر الطاعون بمصر وامتد لمدة ستةِ أشهر ، وحصد معه « مالا يحصى من نساء ورجال وأطفال وعبيد وجوار » .[2] وعاود الوباءُ النّاس في العام التالي (٦٧٢) هـ فهلك جرّاءه خلق كثير[3] ، ثم عاود الكرة سنة (٦٩٥) هـ بصورة أشد من المرات السابقة ، و « صار النّاس يتساقطون موتى في الطرقات ؛ من نساءٍ ورجال وأطفال ، حتى فَني من أهل مصر نحو الثلث » [4] .

وإلى جانب هذه الأمراض كانت تشحُّ الغلال ، وتنعدم الأقوات أحياناً ، نتيجة للقحط والجفاف الذي يحل بالنّاس ، بسبب نقصان النّيل أو زيادته عن الحدّ المطلوب ، ففي سنة (٦٦١) هـ « وقع الغلاء بالدّيار المصرية ، وشحّ النّيلُ ، وَعُدِمَت الأقوات»[5] ، وبعد ذلك بخمسة أعوام عَمّت مصر موجةٌ من الغلاء ، جعلت الظاهر بيبرس يُحصي الفقراء ، ويقسّم أقواتهم على نفسِهِ وأبنائِهِ وَأُمرائِهِ [6] .

١- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ١٧٣ ، وابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٤١٦

٢- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٣٣

٣- المقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠٣ ، وتاريخ ابن الفرات ٧:١٠

٤- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٩٠

٥- المصدر السابق ١/١ : ٣١٩

٦- المقريزي ، الخطط ٢:٣٠٢

وفي سنة (٦٩٦) هـ عمّـت مصر والبلاد الشامية ومكة والمدينة ، موجة من الغلاء ، حتى اضطر النّاسُ لأكل القِطَط والكلاب والحمير والبغال ... وأقامت هذه الشِّدة على النّاس سنة كاملة [١] .

وفي سنة (٧٠٦) هـ قَلّت الغلال وارتفع سعرها « حتى عزَّ الخبز بالأسواق » [٢]، ويزداد الأمر سوءاً في السنة اللاحقة (٧٠٧) هـ ، إذ تهبُّ ريحٌ سموم عاصفة قبل وقت الحصاد بفترةٍ قصيرة ، فتُفسد الزروع ، وتُنقص الغلة ، « وقد كان النّاس مستبشرين بإقبال سنتهم ، وامتداد نيلهم ، وخصب زروعهم ؛ فلم يفاجئهم إلا همودها وتلافها وهيفها وجفافها » [٣]. وعاود نقصان النيل سنة (٧٠٩) هـ « فضجَّ النّاس لذلك ، وتشحطت الغلال ، وارتفع الخبز من الأسواق ، واضطربت الأحوال جداً » [٤].

إلى جانب هذه الكوارث ، وموجات الغلاء ، فقد أثقل المماليك كاهل النّاس بالضرائب ؛ فكثيراً ما كان يلجأ بعضُ السلاطين لاسقاط بعض الضرائب في بداية سلطنتهم للتقرب من العامة واسترضائهم ؛ فقد أبطل قلاوون في عهده وظيفة قديمة تسمى « ناظر الزكوات » ، إذ كانت الزكاة تؤخذ من صاحب المال ، فإن مات أو عدم ماله يبقى ما تقرر عليه من زكاة على أولاده ، وأولاد أولاده أو أقاربه ، ولو بقي منهم واحد .[٥]

وقام السُّلطان خليل بن قلاوون بإبطال الضريبة التي كانت تؤخذ على القمح في باب الجابية بدمشق ، يقول : « وقد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظُلامة ، ونستجلب بذلك الدعاء إلينا من الخاصة والعامة » [٦].

١- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٩١
٢- المصدر السابق ١/١ : ٤١٩
٣- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ١٨٢ - ١٨٣
٤- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٤٢٤
٥- المصدر السابق ١/١ : ٣٦٣
٦- المقريزي ، المقفى الكبير ٣ : ٨٠٢

وفي سنة (٦٩٧) هـ أعاد المنصور لاجين روك الديار المصرية ، ووكل في ذلك رجلاً من الأقباط ، « فشرح في كتب قوائم بمساحة البلاد واسمائها ، فأظهر النتيجة في ذلك ، وجار على النّاس »[١] .

ومما زاد الأمر سوءاً وحياة النّاس ضنكاً ، توارد الأخبار بتتابع زحف التتار على البلاد الإسلامية تارةً ، وتقدُّم الصَّليبيين تارة أخرى ، فتمتلىء نفوس النَّاس خوفاً ورعباً ، إذ ارتبط اسم التتار بالهلاك والدمار ، وسفك الدماء بعد هجمتهم الوحشية على بغداد سنة (٦٥٦) هـ ، وفتكهم بأهلها ، وقتلهم للخليفة المستعصم بالله ، وإزالتهم للخلافة العباسية .

وبعد ذلك بسنتين (٦٥٨) هـ تُنكب حلب على يد التتار ، ويُقتل كل من فيها [٢] ، ثم يعاود التتار الزحف على البلاد الشامية سنة (٦٧٥) هـ ، حتى تصل مقدمتهم إلى مدينة حلب ، وقد جمعوا من العساكر نحو ستمائة .[٣]

وتتوارد الأخبار في سنة (٦٩٩) هـ من حلب ؛ بأن القان غازان ملك التتار قد زحف على البلاد حتى وصلت أوائلُ عسكره إلى مدينة إلبيرة [٤] . وفي هذه السنة أيضاً نُكبت دمشق باستيلاء التتار عليها .[٥]

ولم يكن المماليك غُفلاً عنهم ، إذ كانوا لهم بالمرصاد ، وجرت معهم مواقع كثيرة كان النَّصر فيها - أغلب الأحيان - إلى جانب المماليك ، وأول من تصدّى لهم المظفر قطز في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨) هـ وهزمهم ، وكانت أول هزيمة للتتار

١- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ١٥٢ ، وابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٩٦
٢- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ١٦١
٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٣٦
٤- البيرة : بلد بين حلب والثغور الرومية . الحموي ، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله ، معجم البلدان ، (دار صادر ودار بيروت ، لبنان ، ١٩٥٧م) ١ : ٥٢٦
٥- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٤٠٣

بعد سقوط بغداد في أيديهم ، وقد حَدَّت من اندفاعهم ، وساهمت في رفع الروح المعنوية لدى المسلمين بعد أن قتلَ المسلمون من التتار وأسروا جمعاً كثيراً .

وكانت للظاهر بيبرس حروب ووقائع مع التتار ؛ ففي سنة (٦٦٤) هـ افتتح قلعة صفد [١] ، وفي سنة (٦٧٣) هـ ، غزا سيس [٢] ، وفتح العديد من القلاع ،[٣] وبعد ذلك بعامين (٦٧٥) هـ سار لحرب التتار « فواقعهم على الأبلستين [٤]، وقد انضمَّ إليهم الروم ، فانهزموا ، وقتـــل منهم كثير ، وتسلم السُّلطان قيسارية ونزل فيها بدار السلطان » [٥] .

وتقدم التتار نحو حلب سنة (٦٨٠) هـ وعاثوا فيها فساداً ، الأمر الذي جعل أهل دمشق يجتمعون في المسجد ، ويتضرعون إلى الله ، بل « وحملوا المصحف العثماني على الرؤوس ، وخرجوا من الجامع إلى المُصلى خارج البلد ، وهم يسألون الله النصر على الأعداء » ،[٦] فتوجه المنصور قلاوون نحو التّتار بعساكره وأوقع بهم هزيمة عظيمة في حِمص [٧] .

ثم توجه المنصور قلاوون نحو حصن المرقب [٨] ، وحاصره (٣٨) يوماً وأخذه عنوة من الفرنج ، ثم توجه سنه (٦٨٧) هـ لغزو الفرنج في طرابلس ، وفتحها عنوة ، ومات وهو في طريقه لغزو عكا [٩] .

١- المقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠٢
٢- سَيسَةُ : وعامة أهلها يقولون سيس ، بلد بين أنطاكية وطرسوس . الحموي ، معجم البلدان ٢٩٧:٣
٣- المقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠٣
٤- أبلُستَين : مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبْسُس مدينة أصحاب الكهف . الحموي ، معجم البلدان ٧٥:١
٥- المقريزي ، الخطط ٣٠٣:٢
٦- المقريزي ، السلوك ٣/١ : ٦٩١
٧- المصدر السابق نفسه
٨- حصن المرقب: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام. الحموي، معجم البلدان ١٠٨:٥
٩- المقريزي ، الخطط ٢ : ٢٣٨

وسار ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل على نهجه ، وتوجه لفتح عكا سنة ٦٩٠ هـ ، وحاصرها (٤٤) يوماً حتى فتحها [١] .

وهكذا فقد كانت الأجواء الاجتماعية مشحونة بالوبــاء تارةً ، والغلاء تارةً أخرى ، والمجاعات والحروب تارة ثالثة .

وكان للغزوين الصليبي والتتري ، أثر كبير في إذكاء الروح الدينية في نفوس النّاس ، إذ أحس المسلمون أن هذه الحرب هي حرب عقائدية موجهة نحو الإسلام والمسلمين ، لأن الفرنجة « اتخذوا من الصليب شعاراً لهم » [٢] ، ولذا فمن الطبيعي أن يتجه المسلمون نحو حمى الإسلام بتمجيد الرّسول (ﷺ) ، واستلهام سيرته العطرة ، والتغني بانتصاراته .

وساهم حكام المماليك في توجه النّاس نحو حمى الدين ، وذلك لحثهم على الجهاد ، فاكثروا من بناء الجوامع والزوايا والربط ؛ إذ قام الظاهر بيبرس سنة (٦٦٥) هـ ببناء جامع أطلق عليه اسم جامع الظاهر [٣] ، كما قام حسام الدين لاجين « بعمارة جامع ابن طولون ، وزيادة امواله ، وصلاح أحواله » [٤]، وفي سنة (٧١١) هـ رسم السلطان النّاصر محمد بن قلاوون بعمارة جامع سُمي بـ «الجامع الجديد الناصري» [٥]، ثم أمر ببناء جامع آخر سنة (٧١٤) هـ[٦] ، وبلغ مجموع ما بناه الناصر من جوامع في حدود ثلاثين جامعاً .[٧]

١- المقريزي ، المقفى الكبير ٣:٧٩٥
٢- وليم موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م) : ١٥
٣- المقريزي ، الخطط ٢ : ٢٩٩
٤- بيبرس المنصوري ، التحفة الملوكية : ١٤٩
٥- المقريزي ، الخطط ٢ : ٣٠٤
٦- المصدر السابق ٢ : ٣٠٦
٧- وليم موير ، تاريخ دولة المماليك في مصر : ٩٨

واهتم سلاطين المماليك ببناء الخانقات [١] ، نذكر منها الخانقاه البُندقدارية التي أنشأها الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري الصالحي النجمي [٢] ، « وجعلها مسجداً لله تعالى وخانقاه ، ورتب فيها صوفية وقراء سنة (٦٨٣) هـ » [٣] ، ومنها خانقاه ركن الدين بيبرس بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري قبل أن يلي السلطنة ، فبدأ في بنائها سنة (٧٠٦) هـ ، والحق بها رباطاً [٤] وقبّة بها قبرة ، وقرر بالخانقاه (٤٠٠) صوفياً ، وبالرباط مئة من الجند ، وأبناء النّاس الذين قعد بهم الوقت ، ورتب بالقبة درساً للحديث النّبوي له مُدَرِّس ، وعنده عده من المحدثين [٥] ، كما أنشأ الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس [٦] سنة (٧٢٣) هـ « وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة » [٧].

ومن الرُبط ، رباط الفخريّ بناه الأمير عزالدين أيبك الفخري أحد أمراء الملك الظاهر بيبرس ، ورباط البغدادية بنته تذكار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٨٤) [٨]هـ .

وكان للفقهاء ورجال الدين مكانتهم واحترامهم عند سلاطين المماليك ، لما لهم من تأثير كبير في العامة ، فقد ذكر ابن الفرات أن الظاهر بيبرس كلف أهل دمشق

١- مفردها خانقاه (خانكاه) ، وهي كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه : أي الموضع الذي يأكل فيه الملك ، واستحدثت في الإسلام في حدود سنة (٤٠٠) هـ ، وجعلت ليخلو الصوفية فيها لعبادة الله تعالى . المقريزي ، الخطط ٢ : ٤١٤

٢- هو أستاذ الملك الظاهر بيبرس ، كان من خيار الأمراء ، وقد كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، غضب عليه ، وصادره وأخذ مملوكه بيبرس ، ت سنة (٦٨٤) هـ . انظر العيني ، بدر الدين محمود ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان حوادث (٦٦٥ - ٦٨٨) هـ ، تحقيق محمد محمد أمين ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨م) : ٣٤٦

٣- المقريزي ، الخطط ٢ : ٤٢٢

٤- الرُبط : جمع رباط ، وهو دار يسكنها أهل طريق الله ، وهو بيت الصوفية ومنزلهم . المقريزي ، الخطط ٢ : ٤٢٧

٥- ابن حجر ، شهاب الدين أحمد العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، (دار الكتب الحديثة ، مصر ، د.ت) ١ : ٥٠٧

٦- سرياقوس : بليدة في نواحي القاهرة بمصر . الحموي ، معجم البلدان ٣ : ٢١٨

٧- المقريزي ، الخطط ٢ : ٤٢٠

٨- المصدر السابق ٢ : ٤٢٧

بجباية المال عند توجهه لغزو الروم ، فحضر إليه الشيخ الإمام محي الدين النووي ، [١] « وكلمة في ذلك بكلام خشن ، فلاطفه الملك الظاهر ، وقال : يا سيدي مُدَّ يدك أعاهدك أنني متى كسرت العدو في هذه السّنة أُبطل الجباية ، ويكون خاطرك معي ، فعاهده على ذلك » .[٢]

ويسْتشف مدى تأثير القضاة ورجال الدين على الحكام المماليك من قول الملك النّاصر محمد بن قلاوون عند موت القاضي محمد بن فضل الله [٣] فخر الدين ناظر الجيش : « لعنه الله خمس عشرة سنة ما يدعني أعمل ما أريد » .[٤]

وكان للمماليك عنايتهم بشيوخ الطرق الصُّوفية ، إذ أكثروا من زيارتهم ، وبناء الزوايا لهم ، ويذكر في ذلك أن الظاهر بيبرس كان له شيخ يدعى (خَضراً [٥]) ، يرافقه في أسفاره وحروبه ، تيمناً به ، وطلباً لبركته ، حتى قال في ذلك أحد الشعراء :[٦].

مـــا الظاهـــرُ السلطان إلا مالـكُ الدُّنيـا بذاك لنا الملاحمُ تخبرُ
ولنا دليلٌ واضح كالشّمس في وســط السّماء بكل عين تنظرُ
لما رأينا الخضرَ يقدم جيشـــهُ أبـداً عَلمنا أنـّــهُ الإسكندرُ

١- هو الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، الفقيه الشافعي ت (٦٧٦) هـ علاّمة بالفقه والأحاديث له الكثير من الكتب منها : رياض الصالحين ، وبستان العارفين وغيرها ينظر في أخباره ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٧:٢٧٨ ، وتاريخ ابن الفرات ٧:١٠٨

٢- تاريخ ابن الفرات ٧:٨٥

٣- هو القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله كاتب المماليك ، وناظر الجيوش بمصر ، كانت له أوقاف كثيرة ، وبرٌ وإحسان إلى أهل العلم ت (٧٣٢) هـ . ينظر في أخبارة : النعيمي ، عبدالقادر بن محمد ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، (مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٨٨م) ١ : ٤٣١

٤- المقريزي ، الخطط ٢ : ٣١١

٥- هو الشّيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهراني العدوي ت (٦٧٦) هـ ، كان الظاهر بيبرس يعظمـه ، وينزل إلى زيارته ، ويطلعه على غوامض أسراره ، ويستصحبه في أسفاره ، ينظر في أخباره : الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيـق احسان عباس ، (دار صادر ، بيروت ، د.ت) ١ : ٤٠٤ . المقريزي ، الخطط ٢:٤٣١

٦- تاريخ ابن الفرات ٧:١٠٢ ، والمقريزي ، الخطط ٢:٤٣١

وهذا قلاوون يطلب من أحد شيوخ الصوفية أن يبتهل هو والصوفية إلى الله حتى يشفي ولده المريض ، ويخرجه من فم الموت .[١]

وكان لبعض الكوارث الطبيعية أثر في عودة الناس نحو حياض الدين ، خصوصاً ما كانت تتعرض له الأماكن المقدسة من كوارث ، ففي أوائل دولة المعز أيبك سنة (٦٤٨) هـ جاءت الأخبار من مكة ، بأن رياحاً عاصفةً عظيمةً مزقت أستار الكعبة ، وأزالت عنها الكسوة السوداء .[٢]

وفي مستهل رمضان عام (٦٥١) هـ ، احترق المسجد النّبوي الشّريف ، وأتت النيران على سقوفه ، وسقوف الحجرة النّبوية ، ومنبـــر الرسول ، « وكانت من جملة الآيات المنذرة » [٣].

وظهرت نار شرقي المدينة المنورة سنة (٦٥٦) هـ « يخرج منها شرارٌ يأكل الحجارة » [٤]. وضجّ الناس جراء ذلك حتى صار يودع بعضهم بعضاً ، وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها ، وتصدقوا بأموالهم ولزموا الصوم والصلاة ، حتى كشف الله عنهم هذه النار ، وانجلت تلك الظلمة .[٥]

ونتيجة لذلك فقد اهتم سلاطين المماليك بالأماكن المقدسة ، وأولوها الكثير من العناية ، ففي سنة (٦٦٧) هـ سار الملك الظاهر بيبرس قاصداً الحج ، فعرّج على غزة ، ثم إلى الكرك ، ومنها إلى المدينة المنورة ، وغسل الكعبة بماء الورد بيده [٦] ، كما قام بعمارة الحرم النّبوي ، وقبة الصخرة ، وزاد في أوقاف الخليل .[٧]

١- ابن حجر ، الدرر الكامنة ١:٧٤٥
٢- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٢٩٠
٣- المصدر السابق ١/١ : ٢٩١
٤- المصدر السابق ١/١ : ٢٩٨
٥- المصدر السابق نفسة
٦- المقريزي ، الخطط ٢:٣٠٢ ، وابن دقماق ، الجوهر الثمين ٢:٧٥
٧- المقريزي ، الخطط ٢:٣٠٣

وبلغ من اهتمام المنصور قلاوون بشؤون مكة ، إلزام شريف مكة بتعليق كسوة الكعبة الشريفة الواصلة من مصر ، وتسهيل زيارة الحجاج وحراستهم أيام مواسم الحج وذلك سنة ٨٦١هـ [١].

في هذه الظروف والأوضاع ولد الشّاعر محمود بن سليمان بن فهد الحلبي ثم الدّمشقي شهاب الدين أبو الثناء ، كاتب السّر وعلاّمة الأدب ، وكانت ولادته في دمشق سنة (٦٤٤) هـ ، تُجْمِع على ذلك الكثير من المصادر التاريخية . [٢]

وقد أثنت المصادر على علمه وأدبه ، فذكرت أنه « كان عَلَماً في علم الأدب ، حُجّة في نقل كلام العرب ، رحلة للطلاب ، قدوة للكتّاب ، صائلاً في حومة البراعة ، مجلّياً في حلبة أرباب اليراعة ، حسن السّيرة والسلوك، كاتباً كاتماً أسرار الملوك » [٣] ، واستشهد القلقشندي في كتابه صُبح الأعشى بنماذج كثيرة من ترسله .[٤]

وعُرِفَ الشّاعر شهاب الدين كاتباً بالرغم من أنه كان شاعراً مُجيداً ، وخدم بدواوين الإنشاء « نحواً من خمسين سنة ، وكان يكتب التقاليد على البديهة » [٥] . كما عُين لوقتٍ في الديار المصرية لقضاء الحنابلة . [٦]

١- تاريخ ابن الفرات ٧:٢٤٧

٢- ابن رجب ، زين الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين الحنبلي ، الذيل على طبقات الحنابلة ، (دار المعرفة ، بيروت ، د.ت) ٤:٣٧٨ ، والكتبي ، فوات الوفيات ٤ : ٨٢ حيث أشار أن اسم والده هو سلمان ، وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٩:٢٦٤ ، والشوكاني ، محمد بن علي ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القـــرن السابع ، (دار المعرفة ، بيروت ، د.ت) ٢ : ٢٩٥

٣- ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه تحقيق محمد محمد أمين ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م) ٢:١٥٣

٤- القلقشندي ، صبح الأعشى ٩:٣٧ ، ٤٤ ، ٥٥ و ١٢ : ٨ ، ١٢ ، ١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٤٠ ، ٢٠٥

٥- الصّفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، أعيان العصر وأعوان النّصر ، (معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، المانيا الاتحادية ، مصوّر عن مخطوطة (١٨٠٩) ، مجموعة عاطف افندي ، مكتبة السليمانية ، استانبول) ٣:٢٥٠

٦- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد ، ذيول العبر في خبر من غبر ، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م) ٤:٧٤

وفي سنة (٧١٧) هـ تولى الشّاعر كتابة السّر في دمشق ، بعد وفاة شرف الدين عبدالوهاب بن فضل الله العمري .[١]

وتتلمذ الشاعر شهاب الدين على أيدي الكثير من الشيوخ الأفذاذ ، أمثال الشّيخ مجد الدين بن الظهير[٢] ، « وسلك طريقته في النظم ، وأربى عليه ، وحذا حذوه في الكتابة »[٣] . كما حَدَّث الشاعر عن ابن مالك[٤] وغيرهم .[٥]

وقد تحلى الشهـــاب بالكثير من الأخلاق والشّمائل الطيبة ، فوصفته المصادر بأنه كان « دّيناً ، خيّراً ، متعبّداً ، مؤثراً للانقطاع والسكون ، حسن المحاورة كثير الفضائل »[٦] .

ووصفه تلميذه الصّفدي بأنه كان « محباً لأهل الخير والصالحين مواظباً على النوافل والتلاوة والأدعية ، يستحضر ذلك ، ويذكر الموت دايماً ، وعنده خوف من الله تعالى ، وعليه سكينة كبيرة ووقار »[٧] .

وقــد أتقن شهـــاب الدّين الفنين النظم والنثر ، « وبرع في الحالين بديهة وفكراً »[٨] ، وترك الكثير من المؤلفات نذكر منها : مقامة العُشاق وهي مفقودة ،

١- ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، (مكتبة المعارف ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٠م) ١٤:٨٢

٢- هو محمد بن أحمد بن محمد الأربلي الدمشقي ، كان ديناً ، خيراً ، فاضلاً ، أديباً ، رقيق الشّعر ، ينظر في أخباره تاريخ ابن الفرات ٧:١٢٧

٣- الكتبي ، فوات الوفيات ٤:٨٢

٤- هو جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك ، المالكي حين كان بالمغرب ، الشافعي حين انتقل إلى المشرق . انظر المقّري ، أحمد بن محمد المقّري التلمساني ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، (دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٨م) ٢:٢٢٣

٥- الذهبي ، ذيول العبر ٤:٧٣ والكتبي ، فوات الوفيات ٤:٨٢ ، والشوكاني ، البدر الطالع ٢:٢٩٥

٦- ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ٤:٣٧٨ ، وابن العماد ، ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، (دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، طبعة جديدة) ٦:٧٠

٧- الصفدي ، أعيان العصر ٣:٢٥٠

٨- الصّفدي ، أعيان العصر ٣:٢٥٠ ، والشوكاني ، البدر الطالع ٢:٢٩٥

كتاب منازل الأحباب ومنازه الألباب وما زال مخطوطاً ، حسن التّوسل إلى صناعة الترسل ، ديوان أهنى المنائح في أسنى المدائح ، بالإضافة إلى الكثير من الأشعار المبثوثة في بطون الكتب .(١)

وفي الخامس والعشرين وسبعمائة للهجرة ، ينتقل الشّاعر إلى جوار ربه ، وتطوى صحيفة أعماله، عن عمر يناهز (٨١) عاماً ، اتفق على ذلك العديد من المؤرخين (٢) ، إلا ابن إياس الذي أشار إلى أن وفاته كانت سنة (٧٢٠)هـ (٣) ، ولكننا نرجّح الرواية الأولى ، كونها وردت في أكثر من مصدر ، وأشار لها أكثر من مؤرخ ، ودفن في التربة البهائية التي أنشأها بالقرب من اليغمورية بدمشق (٤) .

وهكذا فقد حفل العصر المملوكي ، بالكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، من ثورات وفتن ، وصراع على السُّلطة ، وزحف مغولي ، وتربص صليبي ، زيادةً على الضنك ، والبؤس ، والقحط ، والظلم ، والكوارث الطبيعية التي عانى منها الناس ، وعاشها الشاعر شهاب الدين محمود ، فتأثر بها ، وانفعل بأحداثها ، وعبر عنها في الكثير من القصائد التي مدح فيها السّلاطين عند انتصارهم في معاركهم مع العدو ، أو توجههم لقتاله تشجيعاً لهم ، وحثاً على مواصلة القتال ، وكان لا بد للشّاعر من استدعاء الماضي الإسلامي بكل أمجاده وانتصاراته ، ولم يكن أمامه أفضل من سيرة رسول الله (ﷺ) بكل ما فيها من خير وصلاح للبشرية ، فوضعها نُصب عينيه ، ينهل منها ، ويعرض ما فيها من مواقف مشرّفة ، ليتخذها المسلمون انموذجاً لهم وهم يواجهون المعتدين .

١- الكتبي ، فوات الوفيات ٤:٨٢ ، وعمر كحالة ، معجم المؤلفين ، جمع وإخراج مكتب تحقيق التراث ، (مؤسسة الرّسالة ، بيروت ، ١٩٩٣م) ٣:٨٠٩

٢- الذهبي ، ذيول العبر ٤:٧٣ ، والكتبي ، فوات الوفيات ٤:٨٢ ، وابن كثير ، البداية والنهاية ١٤:١٢٠ ، وابن حبيب ، تذكرة النبيه ٢:١٥٢ ، والمقريزي ، السلوك ٢/١ : ٢٦٩ ، وابن العماد ، شذرات الذهب ٦:٦٩

٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١:٤٥١

٤- البداية والنهاية ١٤:١٢٠ ، وعبدالقادر بدران ، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ، (المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥م) : ٣٢٦-٣٢٧

* الفصل الأول
دوافع المديح النّبويّ عند الشّاعر
شهاب الدّين محمود

أولاً : آثار العصر والبيئة

ثانياً : الدّوافع الشّخصيّة

– الخُلاصة

* آثار العصر والبيئة

أولاً : الحثُّ على الجهاد

ثانياً : الإصلاح السّياسيُّ

ثالثاً : التّهذيب الخُلقي

رابعاً : الهُروبُ من الواقع ، والعودة إلى الجذور

أولاً : الحثُّ على الجهاد

عرفنا أن فترة الحكم المملوكي كانت فترة صراع مع قوى خارجية كانت تتربص بالإسلام والمسلمين الدوائر ، ففي الوقت الذي كان فيه الصليبيون ما يزالون يستولون على عدد من المدن الإسلامية ؛ كان التتار يزحفون بجيوشهم الجرّارة نحو بغداد مهد الخلافة العباسية ، حيث وقعت بأيديهم عام (٦٥٦) هـ ، وعاثوا فيها فساداً وتدميراً ، وحاولوا التوجه نحو البلاد المصرية ، إلا أن القائد المملوكي قطز ؛ تصدى لهم في موقعة عين جالوت ، وكسر شوكتهم ، وَرَدَّهم على أعقابهم .

وفي خضم هذه الأحداث المتلاحقه ، أدرك العرب انهم مُستهدفون في دينهم وعروبتهم ، فكان لا بد من التطوع للجهاد ، وحفز الهمم وشحذ الطاقات له ، لرد المعتدين ، وساهم الشعراء في ذلك الوقت ، بنصيب كبير في استثارة همم المجاهدين وتحريضهم ، وسلكوا في ذلك سبيلين : الحث المباشر على الجهاد ، وبسط سيرة الرسول (ﷺ) وجهاده كفّار قريش ، وتصديه لهم . فذكروا الحروب الإسلامية ومجرياتها ووقائعها ، وتغنوا بالانتصارات الإسلامية ، « وهذه الغزوات الكبرى ، والانتصارات المصيرية ، الفاصلة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، هي بالتأكيد صفحة مشرقة من صفحات البطولة في حياة الرسول ، بمقدورها أن تبث الأمل في النّفوس ، إبان العصر المملوكي » [1].

ولذلك اتجه الشُّعراء بأشعارهم إلى الدوحة النبوية ؛ فالرسول (ﷺ) كان القائد في هذه الانتصارات والوقائع ، فمدحوه وذكروا ما جرى في زمنه من أيام وحـوادث ، « لكن أعينهم ترّقب ما يجري في عصرهم ، وقلوبهم متعلقة بقضيته ، فهم إن اتجهوا لماضي الإسلام ، فإنما كانوا يلتمسون قبساً يُضيء حاضرهم ويرشدهم لمستقبلهم » [2].

١- بردة البوصيري قراءة أدبية وفلكلورية : ٤٣

٢- فوزي محمد أمين ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول (٦٤٨-٧٨٤) هـ ، (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢) : ٨٨

وشاعرنا الشِّهاب محمود ، واحدٌ من أبناء العصر ، انبرى لتحريض الناس ، وحفز هممهم للجهاد ، وهو الشَّاعر الذي عاصر عدداً من السَّلاطين المماليك ، كالظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وابنيه الأشرف خليل والناصر محمد ، وشهد عدداً من حروبهم مع الصليبيين ، وخلد انتصاراتهم بشعره . من ذلك قصيدته البائية التي مدح بها السُّلطان الأشرف خليل بعد فتحه عكا ، يقول في بعض أبياتها : [١]

الحمدُ للهِ زالت دولـــةُ الصُّلُـــب وعـــزَّ بالترْكِ دينُ المُصطفى العَربي

هذا الذي كانت الآمالُ لـــو طَلبت رؤياهُ في النوم لاستحيت مِنَ الطَّلَـبِ

وأشْرفَ المصطفى الهادي البشيرُ على ما أسْلفَ الأشرفُ السُّلطانُ عن قربِ

فَقرَّ عيناً بهذا الفتـــحِ وابتهجـــتْ بفتحـــه الكعبةُ الغراءُ في الحُجُبِ

ويلاحظ في هذه القصيدة إشارة الشَّاعر للرسول (ﷺ) بأن جعله مشرفاً على هذه المعركة ، وأنه ابتهج بهذا النصر فقرت عينه ، بل أن أخبار هذا الفتح ، قد سرت إلى الكعبة حتى ابتهجت به أيضاً .

وَوَجَد الشّاعر شهاب الدين في المديح النبوي ، والوقائع النَّبوية ، نبعاً لا ينضب لاستثارة همم المسلمين في عصره ، كما في قوله في احدى نبوياته يستذكر جهاد الرسول الكريم ، والمشاق التي تحملها في سبيل نشر الدعوة ، والشَّجاعة التي تحلى بها في حروبه ضد كفار قريش : [٢]

وَجاهَدَ فيه الخلقَ حَـقَّ جِهَـادِهِ وَبَاعدَ فـــي قُربى رِضَاهُ الأقاربا

وَقامَ بأمرِ اللهِ في النَّـاسِ وَحْدَهُ وَمِنْ قَبل أَن يَلْقَى على ذاكَ صَاحِبَا

[وَوَاجَهَهُمْ][٣] فيه بمـا يَكْرَهونـــهُ وَعَادا همو فَـــرْدَاً ولم يك هائبا

١- ابن الجزري ، شمس الدين أبي عبدالله محمد القرشي ، حوادث الزمان وأنبائه ، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، المعروف بتاريخ ابن الجزري ، تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري ، (المكتبة العصرية ، صيدا ، ط١ ، ١٩٩٨م) ١:٦١ ، والمقريزي ، المقفى الكبير ٣:٨٠٨-٨١١ . وانظر قصيدة الشاعر في مدح الظاهر بيبرس . الكتبي ، فوات الوفيات ١:٢٣٨ ، وقصيدته في مدح قلاوون بعد فتح حصن المرقب . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٧ : ٣٢٠ - ٣٢١

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٥

٣- في الديوان وواجهم ، والصواب ما أثبتناه

وقد غدت المدائح النبوية للشاعر معرضاً للمعارك التي خاضها الرسول الكريم (ﷺ) ، وتفصيلاً لوقائعها ومجرياتها ، واستخلاصاً للعبرة والعظة منها ، وهنا نجده يلح على معركة بدر على نحو واضح ؛ باعتبارها أول مواجهةٍ مسلحةٍ بين الرسول (ﷺ) وكفار قريش ، وكأن الشاعر أراد من هذا الالحاح المتكرر أن يربط بين حال المسلمين في عصره ، وحال المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية ، وأن يستخلص المسلمون في عصره الدورس والعبر من هذه المعركة ، ويتأسوا بالرسول الكريم - عليه السّلام - ويتبعوا خُطاه ، ويسيروا على هديه .

وركز الشاعر في حديثه عن معركة بدر على قضية التأييد الإلهي للمسلمين ، بسبب إخلاصهم في نشر الدعوة ، والتزامهم بجهاد الكفار ، لافتاً انتباه أهل عصره باسلوب غير مباشر ، إلى أن النّصر على الأعداء لا يتأتى إلا بإخلاص النية في الجهاد ، والتضحية في سبيل الله ، كما في الأبيات التالية التي يفصِّل فيها القول في أسباب انتصار المسلمين في بدر :[1]

ومـا ذاكَ إلا أنهم طلبـوا العُلـى	فلـذَّ لهـم وِرْدُ الـرَّدى دونَ ذلك
وَوَفَـوْا بلقياهُ النُّـذورَ وقبّلـوا	برؤيـاهُ أخفـافَ المطيِّ الرواتكِ[2]
ولـولاهُ مـا بيعت وخالِقُها اشتـرى	نفـوسَ حُمـاة الدِّيـن بينَ المعاركِ
ولا عُفِّرتْ فـي طاعة الله في الوغى	وجـوهُ كرامٍ تحـتَ وقـعِ السَّنابكِ
ولا أشرقَـت والنَّصـرُ تُجْلَى نِصالُـه	حوالـيِ العوالي في الخُطوبِ الحوالكِ
وقالوا لِبيـض الهنـدِ تُدمَـى ثغورُها	هَلُمّي فإنا لـم نَهبْ وقَـعَ نَابـكِ
إلى أن أقامـوا الدِّيـن وابتسمت بهم	نَواجـذُ أفـواهِ المنايا الضَّواحـكِ
وألوَوْا وَقَـد أجنتهـم ثمرَ المنـى	مِـنَ النَّصر قُضبانُ السُّيوفِ البواتكِ[3]

١- الشهاب محمود ، أهني المنائح : ٧٣-٧٤

٢- الإبل الرواتك : التي تمشي وكأن برجليها قيداً ، وتضرب بيديها ، مشية فيها اهتزاز .

٣- البواتك : القواطع الصارمة .

ويكثر الشاعر في سياق حديثه عن معارك الرسول الكريم من المقارنة بين قوّة المسلمين ، وقـوة كفار قريش ، ويستخلص من ذلك عبرة مؤداها : أن القوة ليست بكثرة العدد والعدة ، وأن قوى الشر مهما عظمت فإن مصيرَها الهزيمة والقتل ، كما في قوله :[1]

وأتوهُ في بَدْرٍ وفي أُحُدٍ بمـن ... جَمعـوا وجاءوهُ معَ الأحزابِ
وأمَدَّه بملائكٍ جاءت علـى ... مثـل الخيولِ لواحقِ الأقرابِ
فتحكّمتْ فيهم كُماة صَحابةٍ ... قتلاً وأسـراً في أذلِّ رقابِ
كانوا بِذلة كفرهم وعنادهـم ... مثل الذئابِ رأت أُسودَ الغابِ
وَثَوَوا ببَدرٍ في القليبِ مهادهُمْ ... هُضبانُ جمـرٍ بالحميمِ مُذابِ

ويصوِّر الشَّاعر مَصارع كفار قريش ، ويرسم صوراً دموية للهزائم التي حلَّت بهم على أيدي المسلمين ، وَيَسْخر من قادتهم ، ويصف الهوان الذي حل بهم ، والذل الذي أصابهم ، كما في قوله :[2]

وببـدرٍ جاءتـهُ جُنْدٌ مـن اللـ ... ـة علـى سُبَّـقٍ كرام النَّواصي
ورآهـمْ مَـنْ شاهـدَ الخصمَ مقتو ... لاً ومـا شُـقَّ عَنه زغفُ الدِّلاصِ[3]
كـم قتيـلٍ منهم بعرصة بَـدْرٍ ... لـم ينلهُ حَدُّ القَنـا العـرّاصِ
أقبلـوا كالنسـور كثـراً وردُّوا ... بأسـارٍ كالطَّيـر فـي الأقفاصِ
وأتـوا كالكَواثـر الشُّهـب اذلا ... لاً وراجـوا فـي قبْضَة الأقتناص
أُشرِبُـوا حُـبَّ كُفرهُـم فلهـذا ... أصْبَحوا في القَليبِ صَرْعى اغتِصاصِ
قَسَـمَ الحـزنَ والدمارَ عليهـم ... قاطنيهـم هُنـاكَ والشُّخَـاصِ

ويعود الشاعر إلى هذا المعنى في قوله :[4]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٥
٢- المصدر السّابق : ١٠٤
٣- الدّلاص : الدرع البراقة الملساء اللينة .
٤- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٦

أنجدتهُ الأمـلاكُ في يـــوْمِ بَدرٍ   وَتَولَّــت أُمـــورَ تلكَ الوقعةْ
وأبادوا رَأسَ الضَّـلالِ أبـا جَهـ   ـلٍ وأمثالَـه الوليـــدَ وزَمعَـــة [1]
بـدَّد تهُـم ملائِـكُ اللهِ والأصـ   حابِ مَــا بيـــنَ وَهْدَةٍ أو تَلعةْ
كـم قِتيل هَوى إلى الأرض مِنهم   قَبْلَ أن تَخرِقَ الأسنَّــةُ درعةْ

وَيَسكُبُ الشاعر على مسامع المسلمين في عصره ، صوراً متعددة لبطولة الرّسول (ﷺ) وشجاعتــه ، وتصدّيه لكفار قريش ، وتحدّيه لهم ، وكأنه يدعوهم إلى التأسي به ، والسّير على دَرْب الجهاد الذي سار عليه كما في قوله :[2]

قامَ بالدينِ مُفرداً لا يُحابـــي   لـو رآهُ حيّــا أبَـــاهُ وأُمَّــه
لَمْ يَهبْ في الإنذار أمةَ كفـرٍ   لا وَلَــم يَخشَ مَنْ بِسوءٍ أمَّه
حَــارَبَ الخلقَ لا يُرجىّ أمــرؤ قطُّ بغيـر الإسلام يومـاً سَلَمه

ويضـــرب الشاعر لهم مثلاً على ذلك من صحابته (ﷺ) ، وكيف أن الله سبحانه ، قد أيدهم ونصرهــم ، وهزم أعداءهم ، لأنهم وطَّنوا أنفسهم على جهاد الكفار ، وأخلصوا النية لله ورسوله ، وذلك إذ يقول :[3]

بايعوا اللهَ على أنَفسهـــمْ   في جِهاد الكُفرِ واللهُ اشترى
وكَساهُم حُلَل النَّصرِ التـي   نَبَذَتْ تِلكَ الأعـادِي بالعَــرا
وَحباهمْ أرضَهم مِنْ بَعدِ ما   أسكنوا أعدَاءَهُم بَطنَ الثَّرىَ ...
كم رأوا بالنَّصرِ يَوماً أبيضاً   ذَاقَ فيه الكُفـرُ مَوتاً أحمـرا

١- هو زمعة بن الأسود بن عبدالمطلب بن أسد ، وهو من المجاهرين بالظلم لرسول الله (ﷺ) قتله المسلمون في بدر . انظر ابن عبدالبر ، يوسف بن عبد البر النّمري ، الدُّرر في اختصار المغازي والسّير ، تحقيق شوقي ضيف ، (دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ) : ٤٤
٢- الشهاب محمود ، اهنى المنائح : ٦٧
٣- المصدر السابق : ١١٩

وهكذا نرى « أنَّ شخصية محمدٍ (ﷺ) كانت قناعاً تحدث من ورائه الشّعراء المسلمون عن هموم الأمة وآمالها ، واستطاعوا من خلال هذا القناع ، أن يعبِّروا بالملامح المحمدية العامة عن واقعهم ومستقبلهم ، بعد الإشارة إلى ماضيهم أولاً » [١].

ولعل هذا يقدم لنا توضيحاً لما ورد في المدائح النَّبوية بصفة عامةٍ في العصر المملوكي ، من ذكر لغزوات الرّسول (ﷺ) ووقائعه مع المشركين ونتائجها ، وما جرى فيها من تفاصيل ، فهي غوص في الزَّمن الماضي المشرق لربطه بالحاضر ، فكان الشاعر يستدعي هذه المعارك النَّبوية بما فيها من نصر وعزةٍ للمسلمين ، لتذكير مُسلمي عصره بماضيهم ، وانتصارات أجدادهم على قوى الشرك ، وتأييد الله لهم ؛ لإلهاب حماسة المقاتلين ، وتشجيعهم على القتال ، « فهل يُعيد التاريخ نفسه ، وهل يقتدي الحاضر بالماضي ، ما دام جوهر القضية واحداً لم يتغير بين المسلمين وخصومهم ؟ ، وما دام مظهر الصَّراع واحداً بين قوى الشِّرك والتَّوحيد » [٢].

١- حلمي القاعود ، محمد (ﷺ) في الشّعر الحديث ، (دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ط١ ، ١٩٨٧م) : ٢٠٤

٢- بردة البوصيري قراءة أدبية وفلكلورية : ٤٧

ثانياً : الإصلاح السّياسيّ

أشرنا عند حديثنا عن الحياة السّياسية في العصر المملوكي الأول - عصر الشاعر - إلى أن الحياة السياسية كانت مضطربة اضطراباً شديداً ، لذلك برزت الحاجة إلى الإصلاح والتوجيه . وقد سلك الشعراء في العصر المملوكي سبلاً متعددة في ذلك ، تارة عن طريق الهجاء والنقد الاجتماعي ، وتارة عن طريق الفكاهة والسُّخْرية ، وحيناً بالحديث المباشر عن موضع الداء ، وحيناً بالحكمة والموعظة الحسنة وضرب الأمثال لهم من سيرة الرسول (ﷺ) وسياسته للنّاس ، ورفقه بالرعية ، وحُسن قيامه عليها ، وحرصه على مصالحها .

وقد كانت الرّغبة في الإصلاح السياسي ، من الدوافع الرئيسة التي حفزت شهاب الدين محمود على مدح الرسول الكريم ، وذلك بتقديم المثل والقدوة الحسنة للحكام آنذاك من خلال الحديث عن سيرته - عليه السلام - لعلهم يتأسون بها ، ويقارنون بين سياسته (ﷺ) للرّعية ، وسيرتهم في أبناءِ عصرهم ، ويسيرون على منهجه في الرفق بالناس ، واجتناب الإثم والعدوان ، فها هو ذا يرسم في إحدى مدائحه النّبوية المنهج الذي سار عليه الرسول - عليه السلام - في تبليغ دعوته للناس ، ويصوّر القيم والمثل العليا التي دعا إليها ، وحرصه على بناء مجتمع سليم خالٍ من العادات الفاسدة والتقاليد البالية . يقول : [١]

وأتاهُ جبريـلُ بالوحيِ في غـا	ر حرىً حَـالَ وِحْدَةٍ وانفِـرادِ
فوعى مَا أوحـى وقامَ بأمـ	ـر اللهِ فـي الخَلقِ هَادِيـاً للعبادِ
داعياً مُرْشِداً إلى اللهِ وإلى الحـ	ـقّ وَخَلْـعِ الأوثـانِ والأنْدَادِ
واجتِنابِ الآثامِ والبغيِ والغـ	ـيِّ وَوَأدِ البنـاتِ والإلحـادِ
وَرؤوفاً بهـم حَريصاً عليهـم	صَافحاً عَـنْ أذى المعادِي المعادِ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٥

« والسّلطة التي يمثلها الخليفة أو الإمام أو الحاكم ... ، تستقي أفكارها من القرآن الكريم ، والشَّريعة النّبوية ، بحكم كونهـا مسلمة ، وهي لا تَجِدُ غير ذلك سنداً لها ؛ أي أن مرجعها الأول والأخير مُتعينٌ في النّهج المحمدي على صعيد التطبيق ، لا على مستوى ترديد العبارة » [١]. لذا يُلحّ الشّاعر في مدائحه النّبوية على النهج الذي سار عليه النبي (ﷺ) في الدعوة ، وصبره علـى النّاس ، وتحمله لأذاهـم ، وإصراره على إصلاحهم واجتثاث الفساد من نفوسهم ، مقدّماً لحكـام عصره من شخصيته – عليه السّلام – طرازاً مدهشاً من الصّبر على الإصلاح ، وتحمّل المسؤولية . كما في قوله :[٢]

قـام في أُمّةٍ هداهم به اللـ ... ـهُ وكانوا فـي ليل شِرْكٍ حيارى

شُـرّدٍ كالأنعام جهلاً وغيّـاً ... يعبـدون الأحجـارَ والأشجارا

وأَبـوهُ وعاندوه وعـادَوْ ... هُ وَسمّـوا داعي الهُدى سحّارا

وهـوَ يدعوهمُ ويَحلمُ عَنهمْ ... ويوالـي عليهـم الإنـذارا

وقد اتّصف بعض حكام المماليك بالقُسوة في معاملة الرّعية ، والتشدُّد في إيقاع العقوبات عليها ، وتجاوزوا الحدود في ذلك ، ففي سنة (٦٨٢)هـ أمر السُّلطان قلاوون مماليكه بقتل كل من وجدوه من العوام ، لأن جماعة منهم خالفوه بأمر كان يريده ، فأعملوا السيـف فيهم ثلاثة أيام ، حتى قتلوا عدداً كبيراً منهم ، ولم يأمر بكف القتل عنهم ، إلا بعد أن شفـع فيهم القضاة ومشايخ العلم [٣]. لذا فقد ركّز الشّاعر في معرض حديثه عن سياسة الرسول – عليه السلام – على صفتي الحلم والعفو ، ليذكّر حكام عصره بهما ، ويحثهم على الرفق بالرعية ، وعدم التجبّر في سياستهم ، وذلك كما في قوله : [٤]

١- عزيز السيد جاسم ، محمد (ﷺ) الحقيقة العظمى ، (دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق ، ١٩٧٨م) : ٣٨٨

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٨

٣- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٣٥٤

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٧

وكذاكَ الذّراع ناجـــاه إذ أوْ   دع فيـــه العدوُّ بالغُل سُمَّهْ
فعفا عن جانبهِ صفحاً وأبدى   دون ما يوجب العقوبة حُلْمهْ

والرّسول – عليه السلام – مناط الامن والطمأنينة للمسلمين في كلّ زمان ومكان ، وقدوةٌ حسنةٌ لهم ، ومثل أعلى في الحرص على هداهم والرأفة بهم ، والشّفقة عليهم ، وفي ذلك يقول الشّاعر : [١]

نبيُّ الهُدى هادي الورى موضع التُّقى   شفيعُ البرايا صاحبُ الحـــوض واللوا
أمانٌ لنا منْ كُـــل ما أهلك الورى   قديمـــاً بــــه إذْ بيْـــن أظهرنا ثوى
حَريصٌ على رُشْد الورى شاهدٌ لهم   رؤوفٌ رحيمٌ ليس ينطق عـــن هوى
شفيقٌ بأهل الرّشـــد يأخـذ رشده   بحجـــرة منْ في نار باطله هـــوى
فيُنْصُرُ منْ يُهـدَى طريـق نجاتـــه   وَيُعشى الذي يغوى إذا ما النوى النوى

وكان لظروف العصر الاجتماعية ، وما فيها من بؤس وضنك بسبب المجاعات والكوارث الطبيعية ، أصداء واسعة في الشعر الذي قيل في العصر المملوكي الأول .[٢] فقد صوّر كثيرٌ من الشّعراء معاناتهم ، وسوء أحوالهم ، وشكوا فقرهم ، وبــؤس عيشهم ، وانتقدوا بعض الحكام المماليك الذي عسفوا بالرّعية ، وسخروها لخدمتهم ، وجرّ الأموال إلى خزائنهم ، حتى بلغ من قبائحهم كما يقول السّبكي « ما يُذَهِّبونَهُ من الذّهب في الأطرزة العريضة والمناطق ، وغيرها من أنواع الزراكش التي حرّمها اللهُ عزَّ وجل ، وزخرفة البيوت ، سقوفها وحيطانها بالذّهب ، وقد لعن رسول الله (ﷺ) من ضيّق سكّة المسلمين ؛ وأنت إذا اعتبرت ما يَذْهَبُ من الذّهب في هذه الأغراض الفاسدة ، تجده قناطير مقنطرة لا يُحصيها إلا الله تعالى ... ولو كان مضروباً سكّة يتداولهُ المسلمون لانتفعوا به » [٣].

١- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٥
٢- فوزي أمين ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول : ٢٦٣ – ٢٧٠
٣- السّبكي ، معيد النعم : ٤٩-٥٠

وتشفُّ بعض المدائح النبوية التي قالها شهاب الدين محمود عن تلك الاحوال ، وذلك عن طريق عرض صور كرم الرسول (ﷺ) وبرّه بالرّعية ، وإنفاقه على الفقـراء والمحتاجين ، تاركاً - أي الشاعر - للناس أن يقارنوا بين هذه الصورة المثالية ، و حال الحكام في ذلك العصر ، كما في قوله :[١]

لا يملُّ الكريمُ بَـذْلَ العَطايـا   فاقترحْ وارجُ بالكريمِ الكَريما

وإذا مَا أردتَ تَدعو خُصوصاً   ثُمّ فاجعَلْهُ إن مَنَنْتَ عُموما

تلقَ في موقـف الدُّعاء نَـوالاً   شَاملاً للورى وَأَجْراً عَظيما

وَعَطاءً جَمّاً وَفَضلاً غزيـراً   وَنَـــدىً وَافراً وبرّاً عَميما

وَيُلِـحُّ الشَّاعر في أكثر من مدحةٍ نبوية ، على شكوى النّاس من الجدب وقلة الزّرع ، فيذكر كيف كان الصحابة - رضي الله عنهم - يلجؤون إلى الرّسول (ﷺ) عندما يحلُّ بهم القحط والجفاف ، فلا يتأخر عن نصرتهم ، إذ يرفع يديه إلى السماء ويطلب من الله الغيث ، وهو بذلك - الشاعر - يعرض صورة مشابهة تماماً لما كان يحدث في عصره من مجاعات بسبب انحباس الأمطار ، ونقصان النيل ، وكثيراً ما كان النيل ينقص عن حده في العصر المملوكي ، فتنعدم الغلة ، وتشح الأقوات ، ويحل الضّنك بالنّاس ، وبإشارة الشّاعر إلى سرعة استجابة الرسول (ﷺ) لأصحابه ، يلمز بالمماليك الذين يكدّسون الأموال ، ويتركون العامة عُرضة للجوع والأمراض ، وذلك في قوله :[٢]

وَجاءوهُ يَوماً وَهوَ يخطُبُ فاشتكوا   إليـــهِ الذي هُم فيه مِنْ شِدَّةِ الخَطبِ

وأنَّ الحيا قَدْ شَحّ والزّرْعَ قَدْ ذَوى   وَضَرعَهمُ قَدْ جَفَّ والنّاسَ في جَدْبِ

فأقبلَ يدْعُو والسَّمــــاءُ نَقيّـــةٌ   فَجَــاءت بأمثالِ الجبالِ مِنَ السُّحُبِ

ويقول في مدحةٍ أخرى :[٣]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٨

٢- المصدر السابق : ٤٨

٣- المصدر السابق : ٦٤

وأتوه يشكُونَ جَدْبَاً كَسَـــا الأرْ ضَ شِعَـــاراً مــن النَّفار الغُبرِ
جَفَّ من حبسِ قَطْرهُ الزَّرعُ والضر عُ وَضَاعتْ ظَمــاً وُحُوشُ البَرِ
فدعـا والسَّمـــاءُ ليــسَ بها غيـ مٌ فجادتْ بالقَطْرِ في كُلِّ قُطْرِ

ومن الجائز أن هذه الاشارات ، كانت تلقى أحياناً استجابةً من الحكام المماليك ، وسبق أن أشرنا إلى قيام الظاهر بيبرس بجمع النّاس عند انعدام الأقوات ، وتوزيع مؤنتهم عليه وعلى أولاده ، وأمرائه .

ويتطرق الشَّاعر إلى بعض فئات المجتمع المحتاجه إلى العون ، كاللاجئين الذين انقطعت بهم السُّبل ، والأرامل اللواتي فقدنّ مُعيلهن ، وذلك لأبراز المشكلة بصورة واضحة ، كما يشير إلى إزالة الرسول (ﷺ) للعبء النَّفسي الجاثم على قلوب النّاس (الغمُّ والغُمَّة) ؛ باحترام حريتهم ، والمحافظة على كرامتهم ، وعدم تكليفهم من الأعمال مالا يطيقون ، في الوقت الذي كان فيه المماليك يُسخّرون النّاس لخدمتهم بالقوة والإكراه .

يذكر المقريزي في حوادث سنه (٧٠٨) هـ ؛ أن المماليك أرادوا عمل جسرٍ من القاهرة إلى دمياط [١] ، خوفاً من نزول الفرنج أيام النيل ، فجمع أمراء المماليك سبعمائة رأس من البقر ، وثلاثين ألف رجل ، ونكّلوا بالكثير منهم ، وضُربوا ، وقطعت آذانهم ، وَخُرِمَتْ أُنوفهم ، حتى انجزوا العمل في أقل من شهر . [٢] فأراد الشَّاعر شهاب الدين أن ينبه إلى هذا الأمر ، فاتخذ من معاملة الرسول (ﷺ) للناس في عصره مثالاً ، كما في قوله : [٣]

كَمْ جلا شرْعهُ ونُورُ هُداه عـنْ قُلُوب الأنام غمَّاً وُغُمّة
هو للمرتجين غيْثٌ ولــلا جين غوثٌ وللأرامل عصْمة

١- دمياط : مدينة قديمة بين تنيّس ومصر على زاوية بين بحر الروم المالح والنيل ، ومن شماليها يصبُّ ماء النيل إلى البحر المالح الحموي ، معجم البلدان ٢:٤٧٢
٢- المقريزي ، السلوك ٢/٢ : ٤٨-٤٩
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٦

ثالثاً : التَّهذيب الخُلقيّ

حاول الشّاعرُ توجيه أبناء عصره إلى الأخلاق الحميدة ، بعد أن رأى ما هم فيه من انحراف ، فعرض أمامهم أخلاق رسول الله (ﷺ) وأخلاق صحابته الكرام ، من خلال مدائحه النّبوية ، ليضعوها نصب أعينهم ، لعلهم يرتدعون عما هم فيه من ضلال .

واتخذت ظاهرة التهذيب الخلقي عند الشّاعر محاور عدة ، فقد عايش الشاعر ظاهرة السؤال والاستجداء ، وإسراف الناس والشعراء فيها ، فحاول من خلال مدائحه النّبوية معالجتها ، وذلك بدعوة النّاس إلى عدم إذلال النّفس ، والتعلق بالآخرين لطلب عارض دنيويٍّ ، بالتوجه إلى الله ، والالتجاء إليه في الملمات ، وذلك كما في قوله : (١)

فوِّض أموركَ مِنْ بينِ الأنامِ إلى ... مَنْ في يديهِ زمامُ النَّفعِ والضَّررِ
وارْغَبْ إلى فَضْلِهِ وارغَب بنفسِكَ عَنْ ... سِوَاهُ وَامْدُدْ إليه كَفَّ مُفتقرِ

وحتى يؤكد هذا المعنى ، فإنه يقرر أنَّ الرّزق بتقدير من الله ، ولذا يحث الناس على اللجوء إليه والطلب منه ، وذلك في قوله :(٢)

فالرّزقُ رزقُكَ والأنامُ وسائط ... فعلامَ أصْبحُ بَيْنهمْ أتضرَّعُ
آليتُ لا أمَّلْتُ غيرك مُنْعما ... فلينعموا بنوالهم أو يمنعوا

وبعد أن يقرر هذه الحقائق (النفع والضرر والرزق بتقدير من الله) ، يدعو إلى القناعة لما فيها من عزّة ورفعة ، وذلك في قوله :(٣)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٢
٢- المصدر السابق : ٣٠-٣١
٣- المصدر السابق : ٩٧

كلّ شيءٍ آواك يَغني إذا لَـــمْ   تَبْغِ فَخْراً بــــهِ ولا استِكْبَـارا
ليسَ شيءٌ يكفي فإن تقنع النّفـ   سُ تجـــد قلّ ما ترى اكثـارا
حِلْيَةُ الفقر في سُلُـوك طريقِ الـ   عزِّ أضفى ثَوباً واثنى شِعــارا
وأصحُّ الغـرامِ فـي قَصْدِكَ السا   داتِ أن تَجمعَ الذيولَ انكِسَارا

ويتخذُ الشّاعر من صورة الاعتراف بالذنب ، وسيلة للتهذيب ، فهو يدعو أبناء عصره – من خلال دعوته لنفسه – إلى تأنيب النفس ، والتحسر على ما فات من تقصير ، وذلك في قوله :[1]

أنا قصّرتُ في المسير إليـهِ   فَلهـــذا تَأسفُي فيه طُولُ
أنا فرّطتُ والمُفرّطُ أولـــى   أن يدومَ الجوى لَهُ والغليلُ
أنا أهملتُ ما يفيدُ فَعونـا   يَ أَسيً دائمٌ وَدَمْعٌ هَمولُ
حَسراتٌ أقلُّها قلقٌ نَـــا   مٍ وَحُزنٌ بادٍ وَوَجدٌ دَخيلُ

وبمعرفة الشّاعر أن النّاس « لا يُدْركون مصالحهم بأنفسهم ، ولا يشعرون لعواقب أمورهم بغرائزهـم ، ولا ينزجرون مع اختلاف أهوائهم ، دون أن يرد عليهم آداب المرسلين ، وأخبار القرون الماضين ، فتكون آدابُ الله فيهم مستعمله ، وحدوده فيهم مُتبعة ، وأوامره فيهم متمثلة ، ووعده ووعيده فيهم زاجراً ، وقصص من غبر من الأمم واعظاً »[2]، فإنه يوضح لأهل عصره طريق الهداية ، بعرض صورة الرسول ، وكيف دعا قومه وهم شرّدٌ كالأنعام ، ووضّح لهم سبيل الحق ، فأبصروا بعد عمى ، واهتدوا بعد ضلال ، وذلك في قوله :[3]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٠
٢- الماوردي ، ابو الحسن علي بن محمد ، أعلام النبوة ، ضبط وتخريج ، خالد عبدالرحمن العــك ، (دار النفائس ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م) : ٦٥
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٨

وَدَعا قَومَهُ وَكُلٌّ من القـو   م عَـن الرُّشْـدِ عَقْلُـهُ مَعْقُول
فاستجابَ الأُلَى اجتباهُم لَهُ اللـ   ـهُ وبانَ الهُدى لَهُـم والسَّبيـلُ
وأجابوه شُرعَـةً لا أذى التهـ   ديدُ يثْنيهـم ولا التَّنكيـلُ
أصْبحُوا في عمًى وأمسوا وَكلٌّ   بَينْ عَيْنيـه للهُـدَى قِنديـلُ

ويلحّ الشَّاعر على ظاهرة انغماس الناس في عصره بالمجون والمعاصي ، إذ يحدثنا المقريزي عما يُسمى بعيد الشَّهيد عند أهل مصر ، فيه تخرج « عامة أهل القاهرة ومصـر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على شطوط النيل ، وفي الجزائر ، ولا يبقى مُغَنّ ولا مغنيّةٍ ، ولا صاحب لهو ، ولا رَبُّ ملعوب ، ولا بغي ولا مُخَنث ، ولا ماجن ، ولا خليع ، ولا فاتك ، ولا فاسق ، إلا ويخرج لهذا العيد ، فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم ، وتُصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق ، وتثور فتن ، وتقتل أناس ، ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة ، عنها خمسة الآف دينار ذهباً » [1]. فكان لا بد من تذكير النّاس وبث النصيحة بينهم لإيقاظهم من غفلتهم . كما في قوله : [2]

كلُّ غـاوٍ يُدافـعُ الرّشـدَ بالغـ   يِّ مُصـرٌ علـى الأذى حَرّاصِ
تَرك النُّـور كالنَّهـارِ وألـوَى   يَطْلبُ الضَّوء مِنْ شُنُوف الخَصاص[3]
يا عقـولَ الأنعامِ خليتُـم الـدا   رَ فَخِبتمُ للماهـر الغَـوَّاصِ
أين أنتمْ عَنّ أشرف الخلقِ من أعـ   لـى البرايا وأظهر الأعيـاصِ[4]

ويؤكّد على هذا المعنى في مدحةٍ أُخرى بقوله : [5]

١- المقريزي ، الخطط ١:٦٩
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٤
٣- شنوف الخصاص ؛ ثقب الأذن الضيق الذي يوضع فيه القُرط .
٤- أعياص قريش : كرامهم ينتمون إلى عيص ، وعيص في آبائهم .
٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٥

وَتبّاً لذي غــيّ رأى سُنــن الهُدى   بَــدا ولوى عــن نورهِ مع مَنْ لوى
تُبدّي لهُ حــوْضَ الهدايــة سلسلاً   فعــافَ وروضُ الرُّشــدِ ريّان فاجتوى[1]
ألم ينظـروا والحــقُّ أبيـضُ أبلـجٌ   يُريهــم مَكاناً في هدايتهــمْ سُوى
وَينقذُ مَنْ باللهِ آمــنَ مِـنْ لَظـى   إذا وهْجُها يَوماً أصابَ الشّوى[2] شَوى

ويستخلص الشاعر في نهاية دعوته إلى التهذيب الخلقي نتيجة مفادها : أن العرب إذا ساروا على نهج الرسول (ﷺ) حَقّقوا أعلى المراتب وأرفع الدّرجات ، ومن ذلك قوله في إحدى مدائحه النّبوية يذكر فيها معاهد النبوة : [3]

مغنىً به فاض فَيضُ اللهِ وانبعثتْ   به إلى الخلقِ طُرّاً [4] للهُدى شُعبُ
وَطبّقت رَحْمةُ اللهِ البلادَ بــه   كأنها الغيثُ يسْـري وَهوُ مُنْسكبُ
وَسارَ منْهُ الهدى لَم تبـقَ شارِقَـةٌ   إلا ونورُ سناهـــا مِنْهُ مُكتسـبُ
مغنىً به خيرُ خَلْقِ الله كلّهـــمِ   ومن بهِ بَلَغتْ أَقصى العُلا العَـرَبُ

١- اجتوى : لم توافقه الأرض وكره المقام فيها .
٢- الشوى : جلدة الرأس .
٣- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١١
٤- الطرّا : مالا يُحصى عددة من صنوف الخلق .

رابعاً : الهروب من الواقع ، والعودة إلى الجذور

ولَّدت بعض مظاهر الفساد السّياسيّ والاجتماعيّ في نفوس الناس ، الرَّغبة في التخلص من هذا الواقع ، ولكن كيف السّبيل إلى هذا التحرر ، والحروب محتدمة ، والصِّراع على السُّلطة مُستمرّ ، والنّاس قد انقسموا على انفسهم ؛ ما بين مغرق في اللهو والملذات ومغرقٍ في التصوف ، فاتجهت الأنظار إلى الماضي بما فيه من صفاء ونقاء ، وصورٍ مثالية جميلة ، وقد اتخذ ذلك مظاهر مختلفة في مَدائح شهاب الدين محمود منها :

١- الهروب إلى المكان :

وتمثل ذلك بالحنين إلى الدِّيار الحجازية ، والاكثار من ذكر مواقع معينة في الجزيرة العربية ، كالعقيق و المصلّى وَسَلْع وَقُباء ، ... ، من ذلك قوله في إحدى مدائحه النَّبوية يبين فيها فرط حنينه إلى الدّيار الحجازية ، ويصفها بأنها دار الهدى والنُّور : (١)

وَأَضْحَى قَرِيبُ الدَّار مَـنْ كَانَ نَازِحاً ... وَظلَّ رضيُّ البـالِ مَنْ باتَ باكيا
فَأمسى على فَقرٍ إلى دارةِ الحِمـــى ... بها عَنْ مغاني الأَرضِ اجْمَعَ غَانيا
وَيشرفُ مِنْ وَادي العَقيقِ علـى قُبا ... ويرقـى رُبـىً فُقْـنَ النُّجومِ عَواليا
رُبىً لو غَدت مِنْ نُور رَوضٍ عواطِلاً ... بَدَت مِـنْ سَنا نورِ الجلال حَواليا
وَيقبلُ مِنْ نَحو المُصلّـى إلى حِمَـى ... بِـهِ خَيْـرُ خلقِ اللـهِ أَصْبَحَ ثَاويا

واتخذ الهروب من الواقع صفة المجاورة ، فقد كان بعض الفقهاء من مصر والشام يرحلون إلى الدّيار الحجازية ، ويقيمون فيها بجوار الرسول الكريم ، وكأنهم يبحثون عن المكان الطاهر ، وفي ذلك يقول الشاعر :(٢)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٤
٢- المصدر السابق : ٢٨

هَنَّـــأَ اللهُ امـــرأً جَاورهُ لا يَرى لِلوَصْلِ مَا عَاشَ انصِرَاما
مُطمئِنَاً لا يُبالِي عِنْـــدَهُ رَحَـــلَ الحَـيُّ سَريعاً أَو أقاما
كلَّما شَـاءَ هُنـا أَو مِنْ هُنـا قَبَّل الحُجـــرةَ أو قَـالَ سَلاما
يا لَها مـنْ نِعمَـةٍ مَنْ حَازها حَازَ في الدَّارين آلاءً جساما

والشاعر مُدْرك أن ما يتمناه كان في الزّمن الماضي في عَصْر الإسلام الذّهبي ، وهي أيام قد انقضت ، ولذا فهو يتنسم ريحها ، وعبق تاريخها من خلال المكان الذي جرت فيــه هذه الأحداث ، وهو مكان مقدس ، وبمجرد حلول الشّاعر فيه يحقق الأمان . وهو بذلك يقرر الرغبة النّفسية في انبعاث شيء من هذا الماضي الغابر إلى الحاضر الراهن ، ولكن يبقى هذا الأمر مجرد أمنية ، وحسرات في نفس الشاعر ، وفي ذلك يقول : (١)

طُوبى لَها داراً وطُوبى لامـرىء يجْنى ثِمارَ القُربِ مِنْ شَجَراتها
وَلئن قَضَيْتُ وَما قَضيتُ مآربي مِنْهـا وَلَـم أُشْرِف على شُرُفاتها
فلكم قَضى قبلي مُحِبٌّ مُغـرمٌ بحَشاشةٍ طُويت على حَسَراتِها

٢- استعادة صُور الزَّمن الماضي (الذاكرة المستعادة) :

يتمنَّى الشَّاعر في إحدى مدائحه النَّبوية عودة الأيام الماضية ، ويبدي استعدادهُ لشرائها بما بقي من عمره ، لو كانت تُستحدث ، وفي ذلك يقول : (٢)

لَيتَ أياماً مَضَتْ عادت ولـــو بينَ أَحـلامِ الكَرى زَارَتْ لماما
لَوْ بِباقِي العُمْرِ تُشْرَى كُنْتُ مَنْ سَامَهـا قَبْلِ الوَرى طُراً وَساما

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٣-٤٤
٢- المصدر السابق : ٢٨

ويتطلعُ الشّاعر إلى مُجتمع يعمه النُّور والهداية والتقوى من جميع جهاته ، يعبق بأطيب النفحات الإيمانية ، والأخلاق النّبوية ؛ مجتمع طاهر تحفه الملائكة ، لا المجتمع السائد حيث الآفات الاجتماعية منتشرة ؛ من بطالةٍ ، واستهتار بالدّين ، وانحلال أخلاقي ، ولذا يُلح الشّاعر على العودة إلى هذا النّبع الصّافي ، وهذه الأيام المشرقة ، حتى يحقق لذاته ولمجتمعه الاستقرار ، وفي ذلك يقول : [١]

هَلْ لي إليها عودة اعْتَدُّهــــا لمكـــــارِمِ الأيام خَيْرَ هِباتِها
وَأبلِّغُ النّفس المشوقَةَ رُتْبَـــةً لَم يرْقَ لي أملٌ إلى دَرَجَاتِها
وَأملِّيءُ العينَ القريحَةَ بالذي أيَسْتَهُ إلا فــي خِدَاع سِنَاتها

٣- الحديث عن أخلاق العرب ومكارمهم

نظر العربُ إلى المماليك على أنهم غاصبون للسلطة ، لذا فقد حاولوا باستمرار إعــلان الثورة والتمرد على الحكم المملوكي ، إيماناً منهم بأنهم أحق بالسلطة من المماليك ، إلا أن هذه الثورات ، باءت بالفشل « ولم يكتب لها النجاح ، لأنهم لم يتمكنوا من تنظيم أنفسهم ، ومن توفير أسباب النّصر ، فكسرت شوكتهم ، بيد أنهم التمسوا وسائل أخرى للتعبير عن تطلعاتهم مثل العلم والأدب » .[٢]

ولعدم جُرأة الشعراء العرب على تأييد هذه الثـــورات صراحة ، فقد اتخذوا من « المدائح النّبوية ذريعة للتحدث عن حال العرب ، وما آل إليه أمر المسلمين بعد أن استبد الأعاجم بمقاليد الأمور » . [٣]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٣
٢- محمود سالم ، أدب الصُناع : ١٣
٣- محمد كامل الفقي ، الأدب في العصر المملوكي : ١٥١

وهذا الشاعر شهاب الدين محمود ، يعود في مدائحه النَّبوية إلى الجذور ، ويحن إلى العرب والعروبة ، ويشيد بهما ، فهو يرجع إلى عصر الأصالة ، وعزة العرب ، مُهاجراً من عصره ؛ عصر تحكم الأعاجم ، لامزاً بالمماليك عندما يتحدث عن أخلاق العرب ومكارمهم ، من خلال حديثه عن رمز العروبة رسول الله – عليه السلام – وذلك في قوله :[(١)]

وَأقولُ يا خيرَ الـــوَرى أزِفَ النَّوى	وَبـدُونِ نَيْل رِضَاكَ لَسْتُ بِقَانِـع
أَنا عبْدُكَ الجاني الذي لَمْ أَخشَ منْ	ذَنبي العَظيم وَجَاد مُثْلُكُ شَافعي
أنتَ الكَريمَ ولَيْـــس سَعي مُقصرٌ	فـــي سَعيـه عِنْد الكَريم بِضَائع
هاجرتُ بل تَاجرتُ فِيـكَ بمُهجَتـي	شَوْقاً وَحُبُّـك كَانَ جُلَّ بَضَائِعي

ويتدرج الشاعر في ذكر تشرف العرب بانتمائهم إلى الرّسول العربي ، فهو قد رفع من قدر والده عبدالله ، ثم من قدر قبيلته بني هاشم ، بل من قدر قريش ، ثمّ من شأن مُضر ، وبالتالي من شأن العرب جميعهم ، وهو يشير في ذلك إلى حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – عن رسول الله (ﷺ) قوله : « خلق اللهُ الخلق ، فاختار من الخلق بني آدم ، وأختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مُضر ، واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار إلى خيار ، فمن احب العربّ ، فبحبي أحبّهم ، ومن أبغض العربَ فَببُغضي أبغضهم » [(٢)] . وفي ذلك يقول الشاعر : [(٣)]

أَحمدُ الهادي إلى اللهِ وَقَدْ	جَهَل الخلقُ الهُدَى والنُّـذُرا
زانَ عَبدُ اللهِ لا بلْ هَاشِماً	بَلْ قُريشَاً كُلها بَل مُضَـــرا
فلذا إن ذَكروُا الفَخْرَ بِـهِ	لم يُطقْ غير همُو أَن يَفْخَرا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٩

٢- الصالحي ، محمد بن يوسف ، شبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوّض ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م) ١:٢٢٩

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٨

ولذا يقدّم الشاعر العرب على غيرهم ، بانتسابهم إلى الرسول :[1]

سَمَا به هَاشِمٌ قِدْماً فَتَمَّ بِـــهِ   في قوْمه الفَخْرُ والتَّقديمُ والحَسَبُ

وقد أدرك المماليك هـــذا الأمر ، وحاولوا التماس الشرعية الدينية لحكمهم ، وقد أشرنا في التمهيد إلى إحيـــاء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية ، وكيف اتجه المماليك إعلامياً للعناية بالأماكن المقدسة ، والاهتمام ببناء المساجد والزوايا ، وكيف اسبغوا الألقاب الدينية على أسمائهـــم ، مثل ركن الدين ، وحسام الدين ، وسيف الدين ٠٠٠ ٠

وينبه الشّاعر إلى ضرورة الثورة لتحقيق الهدف ، وإرجاع العزة للعرب ، ويجعل من خلال حديثه عن معجزات الرّسول - عليه السلام - في إحدى مدائِحه مَدْخلاً لذلك ، فهو يتحدث عن تسبيح الحصا بيد الرسول (ﷺ) ليُسمع كل مُصغٍ أو غفول ، وهو يذكر في مدائحه النّبوية أيام العربِ وبطولاتهم ، ويتعجّب من صمت العرب عن إعادة مثل هذه البطولات ٠ ومن ذلك قوله :[2]

وكذا الحَصَا بيدَيْكَ أسْـ   ـمَعَ كُـلَّ مُصْـــغٍ أوْ غَفُولِ
عَجَباً لتسبيح الجمـــا   دِ وَصَمْتِ ذي الرأيِ الأصِيلِ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٢
٢- المصدر السابق : ٩٥

* الدّوافع الشَّخصيَّة :

أولاً : الحنين إلى الدِّيار الحجازية
ثانياً : التَّبرُّك بالمقدَّسات
ثالثاً : الشُّعور بالذنب والاستغفار
رابعاً: وصفُ طريق الحجِّ ومناسكه
خامساً: الحصول على المكانة الاجتماعيّة والأدبيّة
سادساً: مؤثِّرات صُوفيَّة

أولاً : الحنين إلى الدّيار الحجازية

يُستشفُ من المدائح النّبوية التي قالها شهابُ الدين محمود بعض الدوافع الذاتية التي حفزته على القول في مدح الرسول الكريم (ﷺ) ، ومن هذه الدوافع الحنين إلى الدّيار الحجازية وما فيها من معالم دينية مقدّسة ، ومما اذكى هذا الحنين وجود العوامل التي كانت تحول بين الشَّاعر وأداء فريضة الحج ، ولعل أبرز هذه العوامل : المخاطر التي كانت تواجه ركب الحجيج المسلم ، ولا سيّما مخاطر اللصوص وقُطَّاع الطُّرق ، وقد أشار الشاعر إلى ذلك في قوله : [١]

إذا خَافَ حادينا الكَلالَ حَدابكُـــمْ   فنستقصـــرُ المَسرى ونستوطِيء الحَزْنَا[٢]

وإن زَادَتْ الأخطارُ في السَّير نَحْوَكُمْ   فما يَرْهَـــبُ المشتاقُ ضَرْباً وَلا طَعنا

وَيا حَبّذا خَوضُ الرّدى في لِقائكُـــمْ   فماذا عسى المسرى يكونُ وإنْ أَضْنَى

وقد عبّر الشاعر عن هذا الحنين في صور فنية شتى منها : الطلب من قوافل الحجيج أن تحمل تحيتهُ إلى الرّسول الكريم (ﷺ) وتبلغ أشواقه إليه ، وتدعو له في الحضرة النّبوية الشّريفة أن يزورها ، مُؤدّياً فريضة الحج ، وذلك في قوله :[٣]

أَيُّها السَّائِلُ الـــذي رُزِقَ التّو   فيـــقَ لا تَنْـــسَ سَائلاً مَحْروما

قُلْ إذا طبتَ بالقدومِ على طيْ   بَة نَفْسَاً خَلَّفْتُ نَضْوَاً[٤] سَقِيما

وَأسألَ اللهَ لي بجاهِ الذي سِرْ   تَ إليـــه بَعْـدَ التّنائي القُدُوما

وتكررت هذه المعاني التي ينثل الشاعر من خلالها أحاسيس الشّوق ، بأسلوب مفعم بالمشاعر الإيمانية الصَّادقة على نحو يلفت النظر ، ويبدو أن رؤية قوافل الحجيـج

١- الشهاب محمود ، أهني المنائح : ٨٦

٢- الحزن : ما غلظ من الأرض في ارتفاع .

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٨

٤- نضواً : هزيلاً .

كانت تستجيشُ مشاعر شهاب الدين محمود ، وتهيج أشواقه إلى أداء فريضة الحج ، وزيارة الأرض التي شهدت مبعثة - عليه السلام - وضمّت جَسدهُ الطاهر ، على شاكلة ما نرى في الأبيات التالية :[١]

لا تني في السُّرى إلى أَن تَرى البا   نَ وَسَلْعَاً وَرَامةَ والنَّخِيلا
طِبْتَ مَسْرىً وفازَ قَدْحُكَ بالسُّو   لِ فَكُن لي إلى الرَّسولِ رَسولا
وبلغت المنى فبلّغ هَذاكَ اللهُ عني عبء اشتياقٍ ثقيلا
ثُمّ سلّم والثمْ ثرى الأرض ما اسـ   طعت وكرّر في تُرْبِها التَّقبيلا
وابْكِ عني فلو وَصَلْتُ إليه   ظلَّ دمعي لُلسُّحُب فيه رَسيلا [٢]
ثمّ قلْ قدْ تركتُ في عَرْصَةِ الدَّا   رِ من القومِ نَضْوَ شَوقٍ عليلا
يرتجي أن يرى حِمَاكَ ومـاذا   كَ وإن شفَّـه الضَّنا مُسْتَحيلا
فعسى فَضْلُـكَ العَميـمُ يناديـ   ـهِ فيلقى إلى اللقاءِ سَبيلا
ولو اسْطَاعَ كانَ من شدَّة الشَّو   قِ إلى الحيِّ للرِّياحِ زَميلا

ويعترفُ الشّاعرفي قصيدة آخرى ، انّ الذنوب والآثام التي اقترفها ، هي التي تحول بينه وبين زيارة الرسول (ﷺ) وذلك في قوله : [٣]

وَقلْ يَا رَسولَ اللهِ خَلّفْتُ مُفْرَداً   بُحبكَ يَطْفوُ في الدُّموع وَيغرَقُ
يحاولُ أن ينحو إليكَ وبينـه   وبينكَ سورٌ مِنْ خَطَايَاهُ مُحْدِقُ

وهنا تضطرم نارُ الشّوق في نفس الشّاعر ، فيحاول أن يُحفف من وطأتها ، فَيخيِّل لنفسه أنه قد زار الحمى ، وملأ عينه من نوره الفياض ، مُتمنياً أن يُصبح هذا الحلم حقيقة ، كما في قوله : [٤]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٩
٢- رسيلا : مُتتابعاً .
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٣
٤- المصدر السابق : ٤٣

لهُ كُلّما اشتاقَ الحمى مِنْ دُموعه وانفاسه الحرّى عَقيقٌ [١] وأبرقُ
تمثلــــهُ الأشواقُ بالبابِ ماثلاً يلوحُ لَه نــورُ التّجلي فَيُصْعَقُ
رجا أن مـــا مَنّـاهُ فرطُ اشتياقه بوصلكمــو فــي عامِه يَتحقَقُ

وَيشدُّ الشّاعر الرّحال إلى الدّيار الحجازية ، فيعبر عن سعادته ، ونشوته الغامرة ، وهنا نجده يرصد مشاعره الذاتية على نحو دقيق ، ويُسقط هذه المشاعر على المطايا التي تغذُّ الخُطا إلى البلاد المقدسة ، حنيناً وشوقاً ، وذلك في قوله :[٢]

ويُقْبلُ مِنْ نَحو المُصلّى إلى حِمـىً به خيـــرِ خلقِ اللهِ أَصْبَحَ ثاويا
إلى حرمٍ إن يَحْدُ حادى السُّرى بـهِ مَطاياه مَــدَّت في سُراها الهواديا [٣]
إلى حَرمٍ يَسترخصُ الناسُ في السُّرى إليه لِتلقَـــاهُ النُّفـــوسُ الغواليا
إلى حــــرمٍ يدنيه منــه غرامهـــم فسيانَ دانيه ومن كــانَ قاصيــا
ترى الفُلكَ تجري في رياح ارتياحهم ويلفى حَنينُ العيسِ للركبِ حاديا

ويؤكد الشاعر هذا المعنى في قصيدة أخرى بقوله :[٤]
فترى العيسَ كُلَّمَــــا ذكرتهُ في الفلاة الحذاةِ ذاتُ ارتِقاصِ

ويجد الشاعر لَذّة ما بعدها لَذّة في قطع الفلوات ، للوصول إلى الحجرة النّبوية ، مبدياً استعداده لبذل روحه في سبيل ذلك ، كما في قوله : [٥]
غَنّى بذكر الحمى فارتاحَ كلُّ شَجي وخاضَ بالدّمع حادي الرَّكبِ في لُجَجِ[٦]
واسترخَص السّير أن أدنى تواصلــه مِـــنَ الأَحبّة بالغالِي مِـــنَ المُهَـــجِ
ولذّ قطعُ الدُّجى إن كان يُسفر عن صبـــاح يـــومٍ بنُـــور الوصلِ مُنبلج

١- العقيق : الخرز الأحمر .
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٤
٣- الهواديا : هوادي الخيل أعناقها لأنها أول شيء من أجسادها .
٤- الشهاب محمود : أهنى المنائح : ١٠٣
٥- المصدر السابق : ٨٢-٨٣
٦- اللجج : شدة ظلمة الليل وسواده .

حتى إذا لاحَ نُورُ القُرب وابتسمتْ   تلك الثَّنياتُ من وجهِ الحِمَى البهجِ
ولاحت الحُجْـــرَة الغراءُ مُشْرِقة   كالدُّر ما بين أصداف مـــن السَّبَج[١]
فأيّ ماءِ دُموعٍ لَـــم يُرَقْ فَرَحاً   وأيُّ نـــارِ ضُلُـــوعٍ ثَمّ لَمْ تَهجِ

وَتتحقَّقُ أمنية الشاعر ، فيزور الدِّيار الحجازية ، ويؤدي فريضة الحج ، فهل وضع ذلك حدّاً لأشواقه وحنينه ؟ إن المتتبع لديوانه ، يجد أن هذا اللقاء لم يُخفِّف من شدة الوجد ، ولم يطفيء شُعل الحنين المتقدة في قلبه ، فهو كلما زار مكاناً في الحجاز حنَّ إليه ، وتمنى أن يعيش ما تبقى من عُمره فيه ، متفيئاً ظلال الطمأنينة ، وروح الرضا ، فها هو بعد عودته من مكة إلى المدينة يصوّر أشواقه إلى البيت الحرام ، ويعبّر عن مخاوفه من المعاناة التي سيواجهها بعد أن يرحل عن المدينة المنورة ، وذلك في قوله : [٢]

ذاك الفراقُ وإن اصـــمَّ مسامعـي   لـــم يُخلِ مِنْ هَذا اللقاءِ مَطامعي
فلذاك لَمْ يبلغْ بي الظَّمـــأُ المدى   حَتّـــى أعادَ إلى العذيبِ مَشارعي
لم أبقَ بعْـــدَ البُعْدِ لَوْلا أنّـــي   فَارقْـــتُ أحْبابِـــي بنيَّةِ رَاجعِ
إن غبتُ عَـــنْ دارٍ همْ بربوعهـا   فإلى حِمـــىً نَشـــأوا بـهِ وَمرابعِ
الشأنُ في هـــذا الذي أخشى به   أن الحِمَام يكـــونُ عَنْهـم قَاطِعـي
قَدْ كُنْتُ غبتُ وفي ضميري عَوْدة   ورجعتُ بالأشـــواقِ رَجْعَة طالـعِ

وبعد أن يعود الشاعر من رحلة الحج إلى دياره ، يلتفت إلى الأيام التي قضاها في ربوع الحجاز ، فإذا هي أجمل أيام العمر ، متمنياً لو أنها تعود ، أو أن يعود هو إلى تلك الدّيار ، كما في الأبيات التالية المشرَبة بأنفاس الحنين : [٣]

سرى والدُّجى شوقٌ إليه وتذكـــار   خيالٌ أضاءتْ مِنْ ضُلوعي لَهُ نارُ
أتى سَاعياً لا أصغرَ اللـــهُ سَعيـــهُ   وَمن دُونِهِ يبدو نزوعٌ [٤] وَأخْطَارُ
وقُلْتُ بروحي أَنْتَ يا خَيْرَ طَـــارِقٍ   نأت بي برغمـــي عن زِيَارتِهِ الدَّارُ

١- السبج : الكساء الأسود ، أو الخرز الأسود دخيل مُعرّب ، وأصله سبه
٢- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٨
٣- المصدر السابق : ٢٠-٢٢
٤- نزوع : غُربة .

بعدتَ ولم يبعد مُحبٌ فـــؤادهُ   لأحبابـــه مـن بعدِ فرقتهم جارُ
بعيشِكَ قل لي كَيْفَ سَلْعٌ وحاجرٌ   وكَيْفَ عهـــود لي هناكَ وأَسرارُ
نعمتُ بها تلك الليالي التي مَضَت   وآناؤها مِنّ رِقَّـــةِ الوَصل اسحارُ
أُشاهدُ أنّى شِئتُ تربة أحمـــدٍ   كما تشتهي آمالُ نفسـي وتختارُ
عَسى نهلةٌ أخرى بأكنافِ طيبـــةٍ   على ظَمأ تُطفى بهـا هذِه النَّارُ

وتتكرّر مثل هذه المعاني في مدائح شهاب الدين محمود ، ويبدو حديثه في بعض هذه القصائد أشبه ما يكون بالبوح العاطفي ، لما فيها من حرقة الوجد ، وصدق المشاعر ، على شاكلة قوله : (١)

هَلْ لِعَينـي في ظِلِّ رَامةَ هجعةْ   أمْ لعيشـــي بأرضِ طِيبة رَجْعةْ
أم لهــذا الغليــلُ بَـردٌ وإن يـ   ـرد إلا من العَذيـــبِ بِجُرْعـــةْ
كـــانَ عهدي لما ترحَّلْـتُ عنه   أن عَـوْدي يكونُ مِنهُ بسرْعَـــةْ
فأبى الحظُ أن يكونَ لوشكِ الـ   ـبيـنِ عَـــوْدٌ إليهِ يُشعِبُ صَدْعةْ
فأنـــا الآن بيـن شوقٍ أذابَ الـ   ـقلـبَ مِنيّ فصارَ في العينِ دَمْعةْ
وَسهـــادٌ رأى الرُّقـــادَ يُريني   طَيفهم فـــي الكرى فبادرَ دَفْعةْ

ويُكثـــف الشاعر الحنين من خلال رموز معيّنه مثل (البرق ، وَسَلْع وكاظمة ورامة . . .) تعبيراً عن هاجس القرب والعودة إلى الأماكن المقدسة ، وذلك كما في قوله : (٢)

إذا البرقُ مِـــنْ تِلقاء كاظمةٍ عنَّا(٣)   اذابَ الحشـــا وزادَ الكَرى عَنَّا
وإن لاحَ من أرجاءِ سَلْعٍ فلا تَسل   عِهَـاد الحيا سَقى الحَيَابل سَلِ الجَنَّا
فما أومضَ البرقُ اللموعُ برامـــةٍ   فأنشأ إلا من مَدَامعنـــا المزنـــا
وأين الحِمَـــى مِنَّا ولكـنَّ شَوْقنـا   جلاه لنا وَهْنــاً ونحنُ على الدَّهنا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٥-١١٦
٢- المصدر السابق : ٨٦
٣- عنَّا : ظَهَرَ .

ثانياً : التبرك بالمقدسات

شاعت في العصر المملوكي عادة التّبرك بقبور الصالحين والأولياء ، وخاصة ممن يرجع بنسبه منهم إلى رسول الله (ﷺ) ، فهذا موفق الدِّين بن عثمان المتوفى سنة (٦١٥) هـ ، يؤلف كتاباً سمّاه : (مرشد الزوار إلى قبور الأبرار) ، والمسمى (الدّر المنظَّم في زيارة جبل المقطَّم) ، ذكر فيه ما يشتمل عليه جبل المقطم [١] في مصر ، من قبور الأولياء والأبرار ، والصحابة والتابعين ، والعلماء والزهاد ، والمساجد المشيدة عليه ، وذكر حكايات عن كراماتهم [٢] .

وقصد النّاس في العصر المملوكي زيارة هذه الأماكن طلباً للبركة ، أو عندما يحزبهم أمر ، أو يقعون في ضائقة ، فيدعون الله اعتقاداً منهم أن الله يستجيبُ دعاءهم في ذلك المكان . يقول المقريزي عن قبر السّيدة نفيسة [٣] بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب : « وقبر السّيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة بإجابة الدعاء بمصر ، وهي أربعة مواضع ؛ سجن نبي الله يوسف الصّديق - عليه السلام - ، ومسجد موسى - صلوات الله عليه - وهو الذي بطُرا [٤] ومشهد السّيدة نفيسة - رضي الله عنها - والمخدع الذي على يسار المصلّي في قبلة مسجد الإقدام بالقرافة ، فهذه المواضع لم يزل المصريون ممن أصابته مصيبة ، أو لحقته فاقة أو جائحة ، يمضون إلى أحدها ، فيدعون الله تعالى ، فيستجيب لهم ؛ مُجرَّبٌ ذلك » [٥] .

١- جبل المُقطّم : الجبل المشرف على القرافة ، مقبرة فسطاط مصر والقاهرة وهو جبل يمتدّ من أسوان ، وبلاد الحبشة على شاطىء النيل الشرقي ، حتى يكون منقطعة ، طرف القاهرة ، ويسمى في كل موضع باسم ، وعليه مساجد ، وصوامع للنصارى . الحموي ، معجم البلدان ٥:١٧٦

٢- موفق الدين بن عثمان ، مرشد الزوار إلى قبور الأبرار المُسمى الدّر المنظم في زيارة جبل المقطم ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، (الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م) .

٣- نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، تقية صالحة عالمة بالتفسير والحديث ، ولـــدت بمكة ، ونشأت بالمدينة ، وتوفيت بالقاهرة سنة (٢٠٨) هـ . خير الدين الزركلي ، الأعلام ، (دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨٤م) ٨ : ٤٤

٤- طُرا : قرية في شرقي النيل قريبة من الفسطاط من ناحية الصعيد . الحموي ، معجم البلدان ٤:٢٤

٥- المقريزي ، الخطط ٢:١٤١

ويذكر المقريزي عن مشهد زين العابدين [١] بن الحسين بن علي ان النّاس يتبركون بزيارته ويقصدونه ، ولا سيّما يوم عاشوراء . [٢]

وإذا كان النّاس في ذلك الوقت ، يعتقدون ببركة هذه الأماكن ، وهي قبور لأناس صالحين من عترة النبي (ﷺ) فكيف بموضع قبره (ﷺ) ، وحجرته الشريفة ، ومسجده ، وقد رُوِي عنه – عليه السلام – قوله : « من زار قبري وجبت له شفاعتي ، وقال : من زارني بعد موتي ، فكأنما زارني في حياتي . والزيارة شأن من ربح ليتبرك بوقوفه عند قبره ، وبالصلاة في مسجده » [٣] .

وهذا الشاعر الشهاب محمود لا يجد مكاناً يلوذ به إذا حزبه أمر ، أفضل من الحمى النبوي ، وذلك في قوله : [٤]

إذا نابني أمرٌ ألمّ فليسَ لِـــي ... على غيرهِ مِنْ ذا الأنامِ مُعَوّلُ
إذا قيلَ هذا يرتجى فَضْلُ جَاهِهِ ... فجاهُ رَسولِ اللهِ أَعلى وَأَفْضَلُ
ومالي وَقَد كَرّمْتُ وَجْهِي بِتُربهِ ... أبذّلـــه بالــــذّلّ أو أتبذّلُ

وإذا أحس الشاعر بالضّيق ، فليس له إلا ان يمرّغ وجهه بتربة رسول الأنام ، فهو يرى البركة في ظل القرب من الأماكن المقدسة ، ويسعى للزيارة عله يستنشق نسمة من شذا هذه الأماكن الطاهرة ، بل ويرى الحظوة في لثم ترابها ، وفي ذلك يقول : [٥]

عَسى نَفْحَةٌ يَضْفُو بها ظلُّ جاهِهِ ... عَلَـــيّ وَيَصْفو لَهُ بموردِها شُربي
وعلّى أَنْ أحظى بلثمِ ترابـــهِ ... وَأُصْبِحَ بَعدَ البُعدِ مِنْ جِيرة الشّعبِ

١- هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، رابع الأئمة الأثني عشر عند الإمامية كان يُضرب به المثل في الحلم والورع ، توفي في المدينة عام (٩٤) هـ . ينظر في أخباره ، الأصفهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبدالله ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م) ٢ :١٣٣ ، والزركلي ، الأعلام ٤ :٢٧٧

٢- المقريزي ، الخطط ٢ :٤٤٠

٣- ابن قنفذ القسنطيني ، أبو العباس أحمد بن الخطيب ، وسيلة الإسلام بالنبي (ﷺ) تحقيق سليمان الصيد ، (دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م) : ١٤٤-١٤٥

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣١

٥- المصدر السابق : ٤٩

وتبرّك الشاعر بالمقدسات يحقق له الشّفاء ، مما يعانيه من كروبٍ وهموم ، وذلك كما في قوله : [١]

مَنْ لِعَيني لو أمْطَرَتْ تُرْبةَ الهـا	دِي بهامٍ مِنْ دَمْعها السَّفَّـاحِ
ولقلبي المرتاعُ بالبيـنِ لَوفـا	زَ بحـظِ المستوطِـنِ المرتاحِ
ولكربيَ لو بَـلَّ مِنْهُ نَسيـمُ الـ	قـربِ من ذَاكَ الحِمَى الفيّاحِ
ولسمعيَ لَوْ حَـلَّ فيـه عُقُودٌ	مِـنْ أَحاديـثِ تِلكَ البِطَاحِ

ويبـدو الشّاعر في مدحة نبوية أخرى ، متسائلاً هل تقبيل الثرى يؤدي بعض ما عليه ؟ مبدياً استعداده لشد الرحال نحو الحمى النبوي ، والسعي إليه على وجه ، لولا أنَّ الشّرع والأدب يمنعانه من ذلك ، يقول : [٢]

وَهلْ تُماطُ وَقد جِئْتُ الثّنيّـةَ ما	بينـي وبين المُصلَّى والنَّقا الحُجُبُ
فأنظرُ الحَـرمَ السّامِـي بِسَاكِنِه	وَأُمْطِرُ الأرضَ دَمْعاً دُونَهُ السُّحُبُ
والثمُ التُّربَ إجلالاً لديه وَهَـلْ	لَثمُ التُّـراب يؤدي بعضَ مَا يَجِبُ
وَلَو أطقْتُ على وَجْهِي سَعيتُ بِهِ	لَوْ كَانَ لَمْ يَنْهَ عَنْهُ الشَّرعُ والأَدَبُ

ولا يقتصر التّبرك بالأماكن المقدسة على الشّاعر وحده ، فهذا ركب الحجيج عندما يشرف على مكة ، يمرّغ أفراده خدودهم وجباههم بثراها الطاهر ، فيزول عنهم التعب ومشاق الرحلة ، وتستلذُّ نفوسهم الموت في سبيل بلوغ هذا الثرى الطاهر ، وفي ذلك يقول الشاعر : [٣]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٥
٢- المصدر السابق : ١١١
٣- المصدر السابق : ٦٠

إذا عَاينوا أعلامها وَضعُوا لَهــا ... خُدُوداً على وجه الثَّرى وَجِباها
ولا سيَّما إن شارَفُوها وشَاهَدوا ... حَدائِـــقَ سَلْـعٍ والقِبَابُ وَراها
ولاحَتْ لَهُم أنوارُها فتأمّلـــوا ... سَناها وَجاثُـــوا بالعيونِ رُباها
وَزالَ عَناهُم واستلذَّتْ نفوسُهمْ ... ورود المنايـا فـــي بلوغِ مُناها
وَجاءوا إلى بابِ السَّلامِ وقبّلوا ... ثَراهُ وَنَـادوا بالسَّــلامِ شِفَاهَـــا

وفي أواخر حياته ، يتمنى الشّاعر زيارة الحمى النبوي ، حتى يمرِّغ خدة بثرى الأرض المقدسة لتحلَّ له شفاعة الرسول الكريم ، وذلك في قوله : [1]

ليتني لَوْ حللتُ قَبْلَ مماتِـــي ... بحِمَـــاهُ وَفُزْتُ فيهِ برَكْعَةْ
ليتني لَوْ وَضَعْتُ خَدِّي على آ ... ثارِ تُـرْبٍ هُناكَ باشَرنَ شَفعهْ
ولو أنّي بلغتُهُ كانَ لِـي عِنْــ ... ـدَ شَفيـعِ الأنامِ شُبْهَة شُفْعَةْ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٧

ثالثاً : الشّعور بالذنب والاستغفار

بدا الشاعر متحسراً على ما سلف منه من ذنوب في الأيام الخوالي ، ولذا فقد آن له أن يترك اللهو جانباً ، ويزهد في دار الغرور ، ويرجع تائباً إلى الله ، فجدّ في الإقبال على طريق التقوى ، وأعرض عن الغواية ، وفي ذلك يقول : [1]

فيا نَفسُ جُدّي في الخَلاصِ وأَخلِصي ... وَفـــرّي إلـى مَنْ لَيسَ يَطردُ تَائبا
ولا تَقْنَطي من رَحْمَةِ اللهِ وَليكُـــنْ ... رَجَـــاؤُكِ نُعْمَـاهُ على اليأسِ غَالبا

وتأتي نغمة التحسر على ما فات ، في نبويات الشّاعـر المتأخرة ، وهو في شيخوخته ، فمع إحساسه بدنو أجله ، وقرب رحيله عن هذه الدنيا ، فطن لما اقترف من ذنوب ومعاصٍ ، ولذا فقد أظهر خوفه من عقاب الله ، وندمه على ما سبق من تفريط ، بعد أن ظهرت عليه علامات الرحيل من : شيب ، وضعف ، وسُهاد ، وأرق ، وفراق للأتراب . يقول : [2]

لَيْسَ بَعْدَ السَّبعينَ إلا الرَّحيـــلُ ... فإلامَ التفنيـــــدُ والتَّعليـــــلُ
دَهَمتك النُّـــوى ولا زادَ قدمـ ... ـتَ لهـــا والمدى عَلَيــك طويلُ
لم يفدْكَ الكثيــرُ مِنْ مُهلَةِ العُمـ ... ـر فماذا عسى يُفيــدُ القَليـــلُ
أنْتَ فرَّطتَ فانـدْبِ الآنَ إن كا ... ن يردُّ الماضي عليــكَ العويـــلُ

ويتساءل الشّاعر عن إبطائه في التوبة ، فهل يريد بعد الشَّيب ردّ الشَّباب ؟! ، وهو متيقن أنه لا بد راحل ، فماذا سيكون زاده ؟ ، وماذا ستكون حجته أمام الله ؟ وفي ذلك يقول : [3]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٤
٢- المصدر السابق : ١٠٧
٣- المصدر السابق : ٨٣-٨٤

حتَّامَ إبطائِـــي بيـــوم مَتابـــي أأرومُ بَعْـــدَ الشَّيــــبِ رَدَّ شَبابي
وعــلامَ أوقِنُ بالمعَـــادِ ولا أرى رُوحي تَعـدُّ ذخيرتـــي لمآبـــي
فإذا سُلِبـــتُ عَنِ الذي في كَسبِهِ انفقتُ عُمـري مَا يكونُ جَوابـــي
أأقولُ مَدَّ لـــي الغـــرور عنانهُ فركضتُ فـي شوطَي صِباً وتصابي
أو ما يُقالُ فهبـــكَ أيامَ الصِّبا كنت اعتقلـتَ بهذهِ الأسبَـــابِ
أو ما انقضى عَصْرُ الشَّبابِ وآذنت أيـــامُ لَهْـوِكَ والصِّبا بذَهـــابِ
وأقمتَ أنتَ على الغرورِ وَقد تَرى فتـــكَ الـــرَّدى ومصـارِعَ الأترابِ

فالشّاعر يلوم نفسه على التّفريط ، ويذرف الدموع ، عسى أن يستدركه الله برحمته ، بعد أن اعترف بالتقصير فيما مضى من عمره ، وبعد ظهور العلامات المنذرة بقــرب الرحيل عن هذه الفانية ، ولذا فإنه يحث نفسه على المسارعة إلى التوبة والاستغفار ، إذ لم تبق له حجة في الغفلة والتقصير ، وذلك في قوله : (١)

ليت شِعْري إذا سُئلتُ عَنِ الغفـ ـلةِ مِـــنْ بَعْدِ هذه ما تَقولُ
ما بقى في الزمـانِ فُسْحَة أمها لِ فعجِّل فقد مَضى التأجيلُ
قُمْ وَبادرْ وَتبْ وَسَارِع إلى الطَّا عة مِنْ قبلِ أن يَفوتَ القُبُولُ
وتوقّ القُنـــوطَ وارجُ فَما ثَمَّ إذا ما أخلصْتَ شيْء يَحُولُ

ويكرر الشّاعر صورة الرّحيل ، وضياع العمر ، في أكثر من مدحةٍ نبوية ، مما يدلل على شعوره العميق بالتقصير ، فالعمر رحلة بدأت ، وشارفت على الانتهاء ، ومن ذلك قولهُ : (٢)

ضاعَ الزَّمان وضـاقَ عَنْ إدراكِ مامولـي وَسُولـــي
هي سفرةُ العُمـرِ انتهـت ودنـا إلى الأُخرى قفولي

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٧
٢- المصدر السابق : ٩٥

وهو غافل ، ذنبه في ازدياد كلّ يوم ، وعمره في انتقاص : [١]

غَافِلٌ فرطُ ذَنبهِ في ازديادٍ كُلَّ يومٍ وَعُمرهُ في انتقاصِ

وذنوب الشّاعر حمل ثقيل على كاهله ، وهو موشك على الرحيل ، ولم يُعد ما يكفيه من الزاد لرحلته هذه : [٢]

أشتكي ثِقل كَاهِلي بِذُنوبي ورحيلي الدَّاني وقلة زَادي

ويرى الشاعر أن مدحه للرسول (ﷺ) هو وسيلته للخلاص من هذه الذنوب التي اقترفها خلال رحلة عمره ، وفي ذلك يقول : [٣]

وَلعلّي أَمحو بمدح رَسُــولِ اللهِ مِنْ مَنْطِقي ذُنُوباً كِبارا
أنا أَرجو أنْوَرَ الشّفاعةِ يهديني إليه إن زَاغَ طَرْفي وَحارا
وَلعلَّ أمرأً أراهُ فَيدعو اللــهَ لِــي أو يَجِدُ لِيْ استِغْفَارا

ويجد الشّاعر في حبه للرسول (ﷺ) وسيلة أخرى لمحو ذنوبه ، يكرر ذلك في أكثر من مدحة نبوية ، ومن ذلك اشارته إلى أنه قد تسمك بُحب الرّسول ، لعل الله يعفو عن ذنوبه الكثيرة التي اقترفها ، وفي ذلك يقول : [٤]

قد تمسّكت بحُبي أحمدا وهو للممسِكِ مِنْ أَقوى العُرا
فَلعلَّ اللهَ أن يعفوَ عَــنْ مُذنِــبٍ قَـدْ جَاءهُ مُستغفِرا
إن يَكـن ذنبيْ كَثيراً فلقد رُمتُ عَفواً عَـنْ ذُنوبي أَكْبَرا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٣
٢- المصدر السابق : ٧٤
٣- المصدر السابق : ١٠١
٤- المصدر السابق : ١٢١

وفي قصيدة أخرى يبدو الشّاعر واثقاً من عفو الله ، ويرجو لمحو ذنوبه حسن توحيده لله ، وحبه للنّبي عليه السلام ، كما في قوله : [١]

أَعوذُ بِفَضْلِهِ مِنْ سُوْءِ فِعْلِـــي   وَمَـــا خَابَ امرؤٌ باللَّهِ عَاذَا
وَأَرْجُو حُسْنَ تَوْحِيدِي وَحُبي الـ   نبـــيِّ فَعدَّتِـــي هَذا وَهَذا

ولذا فقد اتخذ الشّاعر من المديح النّبوي ، وسيلة لطلب الشّفاعة والتّوسل بالرّسول الكريم (ﷺ) بعد اعترافه بالذنب والتقصير ، وتوجّه من منطلق نفسي ذاتي إلى رسول الله – عليه السّلام – تلك الشخصية الفذة العظيمة ؛ لتكون وسيلته للشفاعة عند الله – سبحانه وتعالى – كما في قوله : [٢]

عَلَيْهِ اعتِمَادي في مَعَادِي مُؤَمِّلاً   شَفَاعَتَهُ إِذْ سَـــدَّ ذَنْبي المذاهِبَا
وَحَسْبِي رَجَائي فِي إلهي وَأَنَّـــه   يُسَامِحُ مثلي مُسْلِماً مَاتَ شَائِبا
مَلاذي إلهي والشَّفيعُ محمـــدٌ   فحسبـــيَ مَرْغُوباً إليهِ وَرَاغِبا

ويوضّح الشّاعر في مدحة أخرى بأنه يتكيء يوم القيامة على عفو الله ، وجاه نبيه (ﷺ) وذلك في قوله : [٣]

يَا خالقـــي فبحقه كُـن لي إذا   ضَـــاقَ الخِنَاقُ بِنَا وَهَالَ المطْلَعُ
وَاجْعَلْهُ لِـــي يَوْمَ القِيَامَـة شَافِعاً   لِيَكُونَ لِـــي بَيْنَ الجِنَانِ مُوَيْضِعُ
فبهِ إِلَيْـكَ تَوسُّلـي وَتَوصُّلِـــي   وَعَطاكَ أَعْظَمُ مِنْ خَطايَ وَأَوْسَعُ

ويجرد الشّاعر من نفسه شخصاً يخاطبه ، ويدعوه لقصد حمى الرّسول ، وسؤاله الشّفاعة ، لأن جاهه عظيـــم عند الله ، وأكبر من الذّنوب التي اقترفها الشّاعر ، ولذلك فهو يرجو شفاعته ، وهو متأكد تماماً أن رجاءه بعفو الله لن يخيب ، وذلك في قوله : [٤]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٦
٣- المصدر السابق : ٤٦
٣- المصدر السابق : ٣٠
٤- المصدر السابق : ١١٠

فتأملْ وابلُغْ مَرامَـــكَ والقصـ د فمـــــا بَعْـدَ رَامةَ مَأمولُ
وَتشفَّع بِــهِ فَجَــاهُ مزايـــا هُ عَظيـمٌ عِنْـدَ الجَليلِ جَليلُ
كُلُّ ذنبٍ يَخِفُّ إن راحَ والعب ءُ به فَـوقَ جَاهِــهِ مَحْمُولُ
أنـا أَرجوُ غداً وَمالـــي رَجَاءٌ بَعْـدَ رَبـي بِغَيرِهِ مَوْصُـــولُ
حـاشَ لِله أنْ يَخِيبَ رَجَـاءٌ لامرىءٍ والشَّفيـعُ فيه الرَّسولُ

وحتى يخفف الشاعر من حدة الجدال الذي أُثير حول التوسل بالرسول في ذلك العصر ما بين مؤيد ومعارض [١] ، يقرر أن الله خصَّ الرَّسول (ﷺ) بالشَّفاعة لتكون وسيلة لكف غضب الله عنا ، فكأن الله – سبحانه – يطلب منا أن نستشفع بالرَّسول للخلاص من عقابه ، ومن ذلك قوله : [٢]

وَقلْ يا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وَمَـنْ شَرُفَتْ بمولدِه تُهامةْ
وَمَن اعطاهُ مُرسِلُـهُ اعتنـــاءً خَصَائِصَ رُتبةٍ أَعْلَتْ مَقامهْ
فمنهنَّ الشَّفاعَة فـي مَقَـــامٍ إذا ما كَـلَّ عَنهُ الرّسلُ قَامهْ
وَخَصَّصَهُ بها لتكفَّ عَنَّـــا شَفَاعتَـهُ إذا غَضِبَ انتِقَامهْ

« هكذا يلجأ الشاعر إلى حمى رسول الله (ﷺ) وإلى قلبه الرحيم ، ليشفع له عند الله سبحانه وتعالى ، أن يرحمه مما يعانيه من ذل وغربة ، وفي اللجوء راحة وأمل ، تستشعر بهما النفس المعذبة » [٣].

١- انظر ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن تيمية ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، (المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٧٠م) .
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٠
٣- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجهُ العلمي والأدبي ، (مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢م) ٨:٢٩١

رابعاً : وصف طريق الحج ومناسكه

احتفل المماليك بموسم الحج احتفالاً كبيراً ، ومما احتفوا به ؛ المحمل النبوي وكسوة الكعبة ، وكانوا يهتمون بإقامة مهرجان لهما قبل السّفر إلى الحجاز (١) .

وجرت العادة بخروج قافلة للحج في كل عام ، كما يستدلُّ من قول ابن الفُرات في حوادث سنة (٦٨٢) هـ : « وفي شوال من هذه السنة خرج المحمل السُّلطاني من مصر إلى الحجاز الشريف على جاري العادة » (٢).

وقد تحدث الشعراء في معرض مدحهم للرسول (ﷺ) عن أماكن النبوة ومعاهدها ، ووصفوا الطريق إليها ، وما اكتنف الرحلة من مشاق وصعوبات ، وهذا الشّاعر شهاب الدين محمود ، يتحدث في مدائحه للرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - عن الأماكن الحجازية ، ويصف الطريق التي يمر بها ركب الحجيج وصف خبير ، فقد مرَّ من هذه الأماكن وخبرها ، فتحدث عنها ، وعن الرواحل التي تنقل الحجيج ، وذلك في قوله : (٣)

عَناهُمْ إذا خاضوا مِنَ البرِّ لُجَّةً	سَفَائِنُها شُمُّ المناكِبِ أينُقُ
وَأضحوا على مِثل الحنايا كأنَّهم	سِهامٌ بها الأَغراضُ تُرمَى وَتُرشَقُ
وَأسْفَر عَن ليل المفازَة بِالمنى	لَهم مُوهِناً صُبْحُ المفازَةِ يُشْرِقُ
وَأوْمَضَ برقُ النَّجْحِ مِنْ أبرُقِ الحِمى	فلاقاهمو مِنْهُ بَشيرٌ مُخَلَّقُ (٤)
يَلُوحُ لهم وهناً فتهفو قلوبُهم	إليه ويَخفى بالهضَاب فَتَخْفِقُ
إلى أنْ بَدا مَعنى النُّبوةِ واغتَدى	لأبصارِهم نُورُ الهُدَى يَتألَقُ

١- محمد زغلول سلاّم ، الأدب في العصر المملوكي ١:٢٣٣ .
٢- تاريخ ابن الفرات ٧:٢٧٦
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٣
٤- مُخلّق : مستو أملس لين .

ويمضى الشاعر في وصفه طريق الحج ، فها هو في إحدى مدائحه النبوية ، يتخيل شخصاً يخاطبه ، ويطلب منه أن يسأل ركب الحجيج العائدين من الحج ، هل سلكوا أماكن حددها الشّاعر ، كان قد زارها ، ومن ذلك قوله : [١]

سَلِ الرَّكب هَلْ مَروا بجرعاءِ مالكٍ   وَهَــل عَاينـوا قَلباً تَركْـتُ هُنالِـكِ
فعهدى بهِ يَومَ الرَّحيلِ عَـنِ الحِمى   وَقَدْ ضَاعَ مني بَيْـنَ تِلْـكَ المسالِكِ
واحسبهُ ما بيـنَ سَلْـع إلى قُبا   أقـامَ وإلا فهـوَ مـا بيـن ذلكِ
وطوبى له المثوى بمأوى ذوي التُّقـى   ومغنى الهُدى السّاري وَمَسْرى الملائكِ

ويلجأ الشاعر في الحديث عن رحلة الحج ، إلى استرجاع الذاكرة ، فهو دائم التّذكر لما أمضى في هذا الحمى من عهد ، ويزداد لهيبُ نيران قلبه ضُراماً كلما تذكر العقيقَ ، وحرّك وجده ذِكْرُ المصلى ، وذاب هُياماً بهوى سَلْع ، وفي ذلك يقول : [٢]

تذكَّرَ بالحمى عَهْداً بِرامـة   وَعَيشَـاً بالعذيب صَفا فَرامهْ
وَلاحَ لَهُ علـى عَليا زرودٍ   بَريقٌ بالعقيقِ خَفى [٣] فَشامهْ
فأذكى الذّكرُ مُهجته ضُراماً   وأزجى البَـرقُ مُقلته غَمامهْ
وما ألهاهُ ظلُّ الدَّوح يصفو   عليه من الأراكةِ [٤] والبَشامهْ
وحرّك وجدَهُ ذِكْرُ المُصلّـى   وجاذَبهَ هـَوى سَلْعٍ ذمامهْ
وناجتهُ قِبَابُ قُبَـا بسـرٍ   مِـنَ الأشواقِ لَمْ يُطقِ اكتتامهْ
ولم يُطربه إلا ذِكْرُ سَلْـعٍ   وَرامـة لا سُعـادُ وَلا أُمامهْ

ويصف الشّاعر مناسك الحج ، وما ينبغي على الحجاج ، أن يقوموا به من طوافٍ وسعي ، بقوله : [٥]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٢
٢- المصدر السابق : ٣٨
٣- خفا البرق خَفوا وخُفُوّا : لَمَعَ .
٤- الأراكة : شجر معروف يُستاك بفروعه .
٥- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧١

لَوْلاهُ لَمْ يُعْرَفْ طَـــوَافٌ ولا أَهـــلَّ بالتَّلبيـــةِ المحرمُـــونْ
ولا سَعى السَّاعُونَ في صَحْبِهم ولا ارتَقى فَوْقَ الصَّفا المرتَقُونْ
وما دَرى الحُجّاجُ ماذا الــذي يأتونَ في الاحـــرامِ أَوْ يَتقونْ
وَلا أتـوا مِنْ كُلِّ فَجٍّ إلـــى ذاكَ الحِمى يَستوطِئونَ الحزونْ

ويتتبع هذه المناسك تتبُعاً دقيقاً ، عند حديثه عن ركب الحجيج ، منذ وصولهم إلى عسفان ، ثم سعيهـــم بين الصَّفا والمروة ، وطوافهم بالبيت العتيق ، وذلك في قوله : [١]

طُوبى لَهُم طابَ مسراهم وراقَ لَهم مــا عــاقَ عَنْهُم وَمَنْ هَابَ الحِمامَ جَفا
وَحَبَّذا كُـــلُّ مَـــنْ لبّى فغــدا يَـــؤُمُّ فـــي سَيْرِه عَسَفـــانَ مُعتَسِفا
حَتى إذا مَـا الصَّفَا أَدْنَـــاه رائـــدُه مِنْهُ رأى أمـــرَهُ فـــوقَ الذي وَصفـــا
وطـــافَ بالبيتِ أُسبوعاً وأطفأ بالـ لقاء نَـــاراً أذابَـــتْ قَلْبَـــه فَطفـــا
وعـادَ مِـــنْ عَرفـات ثُمَّ أَكْمَل ما يَبْغِـــي وَوَدَّع بَيْـــتَ اللهِ وانصَرَفا
وَأَمَّ دارَ الهُـدى والشَّـــوقَ يحملهُ وراكبُ الشوقِ لا يَخْشَى النَّوى القذفا[٢]
دارٌ تشـرَّفَ صَبٌّ زَارها وقَضـــى حَقَّ الهَـوى مَـنْ قَضَى في حُبِّها شَغفا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٧
٢- القذفا : البُعد .

خامساً : الحصول على المكانة الاجتماعية والأدبية

ومن الدوافع التي حفزت الشاعر على القول في المدائح النبوية ؛ الرّغبة في الحصول على المكانة الأدبية والاجتماعية ، لذا فهو يقرّرُ في إحدى مدائحه أنه – عليه السّلام – ليس بحاجة إلى مدح المادحين ، ولا إلى ثناء الشّعراء ، وذلك إذ يقول : [١]

بمديحِ الرّسولِ أَرْفَعُ قَدْرِي ... وأُرَجّي بنظْمِهِ حَطَّ وِزْرِي
إن مَنْ أَسْنَى الالهُ عَليــه ... لَغنيٌّ عَنْ كُلِّ نَظْمٍ وَنَثْـرِ
وَكَفاهُ ما أَنزلَ اللهُ فيــه ... مِـنْ ثَناءٍ مِنَ الأنامِ وَشُكْرِ

ولذا فإنّ الشاعر يُقرُّ بالتقصير في مدحــه للرسول – عليه السّلام – فالقرآن الكريم في ثنائه عليه ، قد أغلق أمامه منافذ القول ، وسبل الكلام ، كما في قوله : [٢]

ليتَ شِعْرِي مَاذا أقولُ وَهل يمـ ... ـكِنُ أَنْ أَنظُمَ السُّها وَالهنعةْ [٣]
فبماذا اثني وَقَدْ جَاءتْ الصَّـــ ... ـفُ وطـــه بوصفهِ والجُمُعةْ

وقد تسابق الشّعراء في عصر الشاعر إلى مدح الرسول (ﷺ) وتباروا في ذلك ، وحقق هذا المدح لبعضهم شهرة اجتماعية ، ومكانة أدبية على نحو ما كان من أمر البوصيري ، وَحصَّل الشَّاعر مثل هذه المكانة بين معاصرية ، فهذا خليل بن أيبك الصّفدي يتحدث عن المدائح النَّبوية للشاعر ، فيقول : « ولشهاب الدين محمود قصائد طنانة في مدح النبي (ﷺ) كتبتها ، وقرأتها عليه ، رغبة في البركة ، وطلباً للدخول في زمرة من دوّن مَدْحَه ، وكَتَبَهُ وقرَأَهُ (ﷺ) » [٤].

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٢
٢- المصدر السابق : ١١٧
٣- السُها : كويكب صغير خفي الضوء ، في بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم . والهنعة : منكب الجوزاء الأيسر ، وهو من منازل القمر .
٤- الصفدي ، خليل بن أيبك ، الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥م) ١:٢٧٦

وقد صرّح الشّاعر في مدائحه النبوية ، بأنه يطلب من ورائها السّمو والرّفعة ، وذلك إذ يقول :[1]

ماذا يَقولُ النّاسُ في وَصْفِ مَنْ ... أَنْــزَل فيــه اللهُ طَه وَنونْ

الأمرُ فَوْقَ المـدْحِ لكنّــهُ ... يُمدَحُ كي يَسمُوَّ بهِ المادِحونْ

وَما عَسى النّاظِمُ يبديهِ فــي ... أجيادِ أبكارٍ ثَنــاء وَعَــونْ

ويعود الشّاعر إلى هذا المعنى في كثير من مدائحه النبوية ، على شاكلة قوله مُبيِّناً أنّه يمدح الرسول (ﷺ) حتى يعلو قدره ، وينال الحظوة والمكانة بين الناس :[2]

وما ذكْرُها مما تَزيدُ بهَــا سَناً ... كَفَـا الشَّمسَ نُورٌ طَبّق الأفقَ بَاديا

وَلكنْ ليعلو قدرُ نَاظِمِهــا بها ... ويبدو بهِ مَنْ كَانَ في النَّاسِ خَافِيا

وإلا فأينَ البدرُ مِـــنْ مُتنـاولٍ ... وَهلْ تَنْظُم الأيدي النُّجومَ الدَّرارِيا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧١-٧٢

٢- المصدر السابق : ٥٦

سادساً : مؤثِّرات صوفيّة

لم تُشر المصادر القديمة إلى أن الشاعر كان مُتبعاً لمذهب معين ، بخلاف أنه سُني حنبلي ، كما لم تورد له علاقة قوية بالمتصوفة ، باستثناء ما جاء في عيون التواريخ عند الحديث عن وفاة مجد الدين بن الظهير ، قال : « ودفن في مقابر الصُّوفية ، ثم أضاف : وعليه تخرَّج الشيخ شهاب الدين محمود » [١]. إلا أن الشاعر كان يورد في معرض مدائحه النبوية ، بعض الألفاظ والمصطلحات الصوفية ، وقد يكون مرد ذلك إلى تأثره بشعراء عصره ، إذ إنَّ معظم الشعراء الذين نظموا في المدائح النبوية في العصر المملوكي ، كانوا ينتمون إلى طريقة صوفية معينة ، ويقرر د. زكي مبارك أنّ : « المدائح النبوية فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصّدق والإخلاص » .[٢]

ولا يخفى ما كان للصوفيين من مكانة في العصر المملوكي ، إذ اهتم بهم سلاطين المماليك ، وبنوا لهم الرُّبط والزوايا ، وسبق أن أشرنا إلى أن الظاهر بيبرس كان يتبعه أثناء حروبه رجل صوفي يدعى (خَضراً) ، بنى له الملك الظاهر العديد من الزوايا بدمشق وبعلبك وحماة وحمص والقاهرة ، وخصص لها أوقافا تعود عليها في كل سنة بـ (٣٠) ألف درهم [٣].

وطبيعة العصر المملوكي وأحداثه كان لها أثرها في تقوية الدعوة إلى التصوف ، إذ كانت أحوال الناس سيئة ، فالتتار والصليبيون يحاولون اقتناص الفرصة للانقاض على المدن الإسلامية ، والمجتمع العربي الإسلامي مقاليد حكمه ليست في يد أبنائه ، بل في

١- الكتبـــي ، محمد بن شاكر ، عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم داود ، (دائرة الشؤون الثقافية والنشر ، العراق ، ١٩٨٤م) ٢١ : ١٨٥

٢- زكي مبارك ، المدائح النبوية في الأدب العربي : ١٤

٣- الكتبي ، فوات الوفيات ١:٦٠٦ ، وتاريخ ابن الفرات ٧:١٠٢

أيدي مجموعة من المماليـك المتنازعين على السُّلطة ، والمماليك مشغولون بهذه النزاعات ، في حين تُركت العامة للجوع والأمراض ، ولذلك فقد أتجه الناس نحو التصوف ، ولقي المتصوفون الكثير من التلاميذ والأتباع ، وارتبط بالصوفيين البعد عن الدنيا وفتنتها ، والتقوى والإنصـــراف إلى العبادة ، وهذا تاج الدين السُّبكي يقرر حقيقة الصوفية بقوله : « وأنهم المعرضون عن الدنيا ، المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة ، والحاصل أنهم أهل الله وخاصته ، ترتجى الرَّحمة بذكرهم ، ويستنزل الغيث بدعائهم » [١].

ويجعل ابن خلدون علم التصوف في مقدمته ، من العلوم الشرعية الحادثة في الملَّة ، التي تقوم على العبادة والانقطاع عن الدنيا وبهرجتها يقول : « هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فـــي الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطـــاع إلى الله تعالى ، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ، ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة » [٢].

والشَّاعر شهاب الدين لم يكن صاحب رباط صوفي ، ولا منقطعاً في احدى الزوايا ، فقد كان كاتباً لدواوين الإنشاء قرابة خمسين عاماً ، صحب خلالها الكثير من سلاطين المماليك وَمَدَحَهُم ، ووصف حروبهم مع الصليبيين والتتار ، وقد وصفته المصادر بالتدين وحب الخير ، يقول عنه الصفدي في أعيان العصر « وكان محباً لأهل الخير والصالحين ، مواظباً على النّوافل والتّلاوة والأدعية ، يستحضر ذلك ، ويذكر الموت دايماً وعنـــده خوف من الله تعالى ، وعليه سكينة كبيرة ووقار » [٣]. ويؤكد

١- السُّبكي ، معيد النعم : ١٢٠

٢- ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد ، المقدمة ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د٠ت) : ٤٦٧

٣- الصفدي ، أعيان العصر ٣: ٢٥٠

الحنبلي ما ذهب إليه الصفدي بقوله : « كان ديناً خيّراً ، متعبّداً ، مؤثراً للانقطاع والسّكون ، حَسَن المحاورة » [١]. لذا تناثرت في مدائحة النبوية بعض الرموز والمصطلحات الصوفية ، وقد يكون جاء بها للمحافظة على نسق المدحة النبوية ، ولمجاراة شعراء المدائح الصوفيين كالبوصيري وغيره ، دون الالتزام بالتصوف كمنهج حياة ، ومن هذه الألفاظ ، صاحب اللُّطف الخفي [٢] في قوله : [٣]

يا صَاحِبَ اللُّطفِ الخفي فَلا تَرى   اقداره والخيرُ فيما يَصْنَـــــــعُ

وقوله : ظلُّ الإله [٤] ، وذلك في قوله : [٥]

ظِلُّ الإلهِ وَسرُّ رحمتِهِ التي   هي للشَّفاعَةِ في البريةِ تُودع

واستعماله كلمة الأثر [٦] في قوله : [٧]

رُوحٌ تَخِفُّ إلى الحِمَى   فَتَفوقهـــا ثـــاءُ الثَّقيل
فَكأنَّها الأثـــرُ الخفـــ   يُّ يلوحُ في عَافي الطُّلولِ

١- الحنبلي ، شذرات الذهب ٦:٧٠

٢- المراد من اللّطف : تأييد الحق ببقاء السّر ، ودوام المشاهدة وقرار الحال في درجة الاستقامة ، واللطف في اصطلاح الصوفية يعني تربية المشوق للعاشق بالرّفق والمؤاساة ، حتى يحصل لهُ بالكمال قوة ذلك الجمال وطاقتهُ . انظر أنور فؤاد أبي خزام ، معجم المصطلحات الصّوفيــة ، (مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م) : ١٥١

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٩

٤- يقصد الصوفية بهذه الكلمة : الإنسان الكامل المتحقق بالحضرة الواحدية ، والإنسان الكامل هو محمد (ﷺ) وهو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره . انظر الكاشاني ، كمال الدين بن عبدالرزاق الكاشاني ، اصطلاحات الصوفية ، تحقيق محمد كمال ابراهيم جعفر وآخرون ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١م) : ١٦٦ . ومحمود عبدالرؤوف القاسم ، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ ، (المكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٢ ، ١٤١٥هـ) : ٩٩

٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٠

٦- الأثر : علامة لباقي شيء قد زال ، ومعناه في عُرف الصوفية التفريد لله عز وجل في كل الأشياء بالإعراض عما يلحق نفوسهم من آثار الأشياء . انظر أنور فؤاد ، معجم المصطلحات الصوفية : ٣٨

٧- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٣

ويكثر الشَّاعر في مدائحه النبويـــــة من استخدام مفرادت الفقر والزُهد ، ودعوة النفس إلى القناعة ، وهي من مصطلحـــات الصوفية [١] ، وذلك كما في قوله : [٢]

كُلُّ شيءٍ آواكَ يُغنـــي إذا لَـمْ ... تَبْـغِ فَخْـــراً بهِ وَلا استكبارا
لَيْسَ شَيء يَكفِي فإن تقنع النَّفـ ... ـسُ تَجِـــد قَلَّ ما تَرى إكثارا
حِليةُ الفَقرِ في سُلوكِ طريقِ الـ ... عزِّ أضْفَـــى ثَوْباً وَأَثنَى شِعارا
وَأصحُّ الغرامِ فـي قَصدِكَ السا ... داتِ أن تَجمَـعَ الذُّيولَ انكِسَارا

ويعود الشاعر ليؤكد هذا المعنى مع ضرورة الالتزام بتوحيد الله ، وإظهار الانكسار والفقر إلى رحمته ، متوجاً بحسن الظن به ، وذلك في قوله : [٣]

جُلُّ ما تَرتَجي غَـداً حُسنَ تَوْحيـ ... ـدِك فالزَمْــهُ فَهْـوَ ذُخْرٌ جَليلُ
وانكسارٌ بادٍ وَفقر إلـــى العفـ ... ـوِ وأرجـى الجَميع ظَنٌّ جميلُ
وخضوعٌ وصدقُ حبٍ وتصديـ ... ـقٌ وإيمـــان طاعـــةٍ وقبـولُ
كلُّ هذا إن شـاء ربُّـك تلقا ... هُ غداً وهـــو بالنَّجاة كفيـلُ

١- الزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية ، والمراتب السَّنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله – عز وجل – والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يُحكَم أساسهُ في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدّنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة . والزهد على ثلاثة أوجه : الأول ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى ، وهو زهد العارفين . أما الفقر فهو مقام آخر من مقامات التصوف ، ولا يعني الفقر المادي فحسب ، بل العبد هو فقير إلى الله سبحانه ، وإن كثر ماله ، فكما أن المحتاج ينظر إلى الغني لمساعدته في عوزه ، كذلك الفقير إلى الله يرفع اكف الضراعة إليه طالباً رحمته وعونه . انظر الطوسي ، ابو نصر السراج ، اللُمع ، تحقيق د. عبدالحليم محمود ، وطه عبدالباقي سرور ، (دار الكتب الحديثة ، مصر ، ومكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٠) : ٧٢ ، والقشيري ، ابو القاسم عبدالكريم بن هوازن ، الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق معروف زريق ، وعلي عبدالحميد بلطة جي ، (دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٠م) : ١١٩ ، وأمين الشيخ علاء الدين النقشبندي ، ما هو التصوف ، ترجمة محمد شريف أحمد ، (د.ن ، د.ت) : ٩٠ ، ١٠٦

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٧

٣- المصدر السابق : ١٠٧

كما جاءت بعض أبيات الشاعر على شكل أناشيد صوفية ، تتضمن الحديث عن كثرة الذنوب ، وطلب الشفاعة ، كما في قوله : [١]

يَا أنيسي يا شَافعي يا مُجيري يا مَلاذي يا عِصْمَتي يا عِمَادي
جِئتُ أسعى مُودِّعاً لك إذ حا ن انصرافي وآن طُولُ انفرادي
اشتكي ثِقلَ كاهِلي بذُنوبي وَرَحيلي الدَّاني وقِلَّةَ زادي

ونخلص مما سبق أن الشاعر شهاب الدين ، كان من الفقهاء المتنسكين على طريقة السَّلف ، وهؤلاء ما اصطلح علي صافي حسين على تسميتهم بزهاد الفقهاء [٢].

وعليه فمن الممكن إيراد الشاعر ، ضمن الشعراء الذين اتصلوا بالمتصوفة ، وعرفوهم عن كثب ، وعاشوا بينهم ، لكنهم لم يعتنقوا المبادىء الصوفية ، ولا صاروا من جملة المريدين والأتباع لشيوخ التصوف وأقطابه ، ولذلك يغلب على شعر هؤلاء روح التصوف ونفحاته ، دون غموضه واصطلاحاته .[٣]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٤
٢- على صافي حسين ، الأدب الصوفي في مصرفي (ق ٧) هـ : ١١٦
٣- مزهر عبدالسوداني ، الشّعر العراقي في القرن السادس الهجري ، (دار الرشيد ، العراق ، ١٩٨٠م) : ٢١٨

الخلاصة

يبدو لنا واضحاً الآن من أن المدائح النبوية التي ابدعها الشّاعر شهاب الدّين محمود ، لم تكن مقصودة لذاتها فحسب ، وإنما كان وراءها الكثير من الدوافع والمؤثرات ، وكان « يُراد بها وضع السيرة العطرة لرسول الله - عليه السّلام - وجهاده لمشركي الجزيرة ، وفي نشر الإسلام نُصب أعين المسلمين ، ليستشعروها في جهادهم لحملة الصليب والتتار ، حمية للدين الحنيف وحماة ، وحمية لصاحبه وهداه ، ومعنى ذلك أنها لم تكن مديحاً بالمعنى المألوف ، إنما كانت استنفاراً للمسلمين في كل مكان ليستخلصوا ديار الإسلام من المعتدين الآثمين » [١].

وإذا كانت الدّعوة إلى الجهاد متصلة بالسّيرة النبوية العطرة ، فإن لها أعظم الأثر في حفز المسلمين للجهاد ، وشحن معنوياتهم بالعزم والتصميم والثبات ، فقد قاد رسول الله (ﷺ) امته إلى طريق الحق والهداية ، وحّدها بعد فُرقةٍ ، وقوى شوكتها بعد ضعف ، ولذلك فقد « اتخذ المسلمون في كل عصر من سيرته ، وأسلوب حياته ، نبراساً وقدوة ، ونموذجاً حياً ، وقبست منه الأجيال مشكاة الطريق ، ولا مع الشمائل ، فلا غرو أن نجد قوافي الشعر تنساب عبر العصور ، رقراقة بتصوير شمائلة ، وخصاله الربانية » [٢].

وفي الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة ، وعند حلول الكوارث الطبيعية ، كان الرسول (ﷺ) بسنته وشخصه مثلاً أعلى ، فهو الموئل والملاذ ، إليه يتجهون تقرباً إلى الله ، وطلباً للشفاعة وغفران الذنوب ، وهروباً من الواقع بكل ما فيه من احباطات وهموم .

١- شوقي ضيف ، الشّعر وطوابعة الشّعبية على مرّ العصور ، (دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، د.ت) : ١٧٨

٢- محمد عادل الهاشمي ، أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية (١٩٢٠ - ١٩٤٦) ، (مكتبة المنار ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٦م) : ٤٩

وفي ظل النّظام الطبقي ، وتمركز المال والسلطان والثروة والنفوذ ، في أيدي أقلية عرقية ، في حين عامة الشّعب ينهشها الجوع والمرض ، جاءت المدائح النبوية لتنبه إلى ضرورة العدل الاجتماعي ، وتحقيق المساواة بين جميع أفراد المجتمع ، « وحاول الشعراء من خلال مدائحهم للرسول (ﷺ) أو خلفائه أن يؤكدوا جملة المبادىء والأسس الإسلامية ، وأن يجسدوها في مضمون شعرهم ليبثوها إلى الناس » [١].

وأمام الانهيار الأخلاقي ، وإغراق الناس في اللهو والمجون ، برزت الحاجة إلى الإصـــلاح ، وبما أن رسول الله (ﷺ) قد جاء هادياً ومعلماً ، « فما من منزلة إلا وأبان لنا عما ربطةُ الشّرع بها من التكاليف ، فليبادر صاحبها إلى امتثاله منشرح الصدر راضياً » [٢].

وسيطرة المماليك الأعاجم على مقاليد الحكم في البلاد العربية لم ترق للعرب ، ولكنهم أمام قمع المماليك لكل محاولة للثورة على الوضع الراهن ، التفتوا إلى الأسلوب المبطن ، وتوجهوا إلى مثال العرب والعربية إلى الرسول - عليه السّلام - عربي الأرومة واللسان فمدحـــوه وذكروا نسبه الشريف ، الذي تمتد أصوله إلى خيره الخيرة إلى العرب .

والنتيجة أن هذه المدائح النبوية لم تكن كلاماً منظوماً يقال في ذكر الرسول (ﷺ) وحلو شمائله وأخلاقه ، طلباً للبركة والثّواب فحســـب ، ولـــم تكن أيضاً « هينمات دينية تسبح في فراغ ، وإنما هي نبات يضرب بجذوره في تربه المجتمع الإسلامي آنذاك ، وتغذّيه التيارات والصراعات والأحداث ، التي شغلت وجدان الناس وعقولهم » [٣] .

١- السيد عبدالقادر عويضة ، أثر الإسلام في الشّعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، (مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٧م) : ٥٢

٢- الشبكي ، معيد النعم : ١٤٨

٣- فوزي أمين ، المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول : ٢٣٢

الفَصل الثّاني

صورة الرّسول وصحابته في المدائح النّبويّة

لشهاب الدين محمود الحلبي

أولاً : الحقيقة المحمديّة

ثانياً : السّيرة النّبويّة

ثالثاً : المثالية الخُلقيّة للرّسول (ﷺ)

رابعاً: مدح الصَّحابة

أولاً : الحقيقة المحمدية

تحدث الصُّوفية عن الحقيقة المحمدية كثيراً ، وهم يعتقدون أن الرسول (ﷺ) نور أزلي أبدي ظهر في آدم حين خُلق ، وتمثل في إدريس حين تنبأ إدريس ، ووجد في شخص نوح حين أنذر قومه ، ووقت أن صنع الفلك ، ونجا بمن معه من الطوفان ، ثم تجلى في شخص إبراهيم ، إذ حطم الأصنام ، ونجا من أوار النّار التي أضرمها له قومه ، فكانت عليه برداً وسلاماً ، ثم جاء فرعون في صورة موسى ، ثم في شخص عيسى ، ثم ظهر باسم محمد خاتم النّبيين [١].

وهم يرون أن « الحقيقة المحمدية ضامةٌ لجميع الذوات ، هادية بأمر الله ، لا تُحدث أمراً إلا بإذنه ، وهي قديمة قدم الخالق ، وهي خلق دون إيجاد ، إذ هي الوجه المتعين للنور الأول » [٢].

ويعتبر الصوفية الحقيقة المحمدية : « أول مخلوق لأن حقيقته كانت موجودة في الهباء ، وهو أول الخلق ، فلما تجلى اللهُ بنوره إلى ذلك الهباء والعالم كله فيه بالقوة ، قبل منه كل شيء على حسب قربه من النور ، ولم يكن أحد أقرب إليه من حقيقته (ﷺ) فكان مبدأ ظهور العالم وأول موجود » [٣].

ويعتقد الصُّوفية أنَّ الرسول محمد - عليه السلام - أصل الأنوار ، « ومنه انبثقت منذ الأزل أنوار النُّبوات ، واغترفت من بحره العلوم ، وتفرعت عنه الحقائق ، ونبعت منه أسرار الجمال » [٤].

١- انظر : علي صافي حسين ، الأدب الصّوفي في مصر في القرن (٧ هـ) : ٣٨٠

٢- محمد غازي عُرابي ، النصوص في مصطلحات التصوف ، (دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٥م) : ١٠٠

٣- عاطف جودة نصر ، شعر عمر بن الفارض ، دراسة في فن الشِّعر الصُّوفي ، (دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٢م) : ٢٠

٤- ابراهيم بسيوني ، نشأة التّصوف الإسلامي ، (دار المعارف ، مصر ، د.ت) : ١٨٦

وقد ساعد على إذكاء فكرة الحقيقة المحمدية في العصر المملوكي ، عدد من العوامل منها : إنتشار التصوف ، وكثرة المتصوفة ، بتشجيع من الحكام المماليك ، واحتدام أوار الصراع العقائدي بين المسلمين وأهل الكتاب ، الذين بالغوا في صفة السيد المسيح ، فأراد المسلمون الرد عليهم من خلال الحقيقة المحمدية ، مما جعلها « من أبرز النظريات الدينية التي شاعت في ذلك العصر ، فكان لا بد لشعراء المديح النبوي من ذكرها ، ومدح رسول الله (ﷺ) بها ؛ لأنها تضع النبي المصطفى في مرتبةٍ سامية لايدانيها مخلوق ، وهم يسعون إلى ذلك ، وهذا في رأيهم منتهى المدح له (ﷺ) وأقل ما يليق به » [١] .

وتحدث الشّاعر شهاب الدين محمود عن الحقيقة المحمدية متتبعاً في ذلك لسنة شعراء المدائح النّبوية من قبله ، كالصرصري والبوصيري وصفي الدّين الحلّي [٢] ، ولما لم يكن الشاعر متّبعاً لمنهج أصحاب التصوف ، وإنما كان سُنياً يسير على منهج أهل السّلف ، فإنه لم يغال في الحقيقة المحمدية غُلوهم ، الذي وصل إلى اعتبار الحقيقة المحمدية هي ذات الحقيقة الإلهية ، وإنما استقى الشاعر معاني الحقيقة المحمدية مما أثر عن السلف الصالح رضوان الله عليهم .

ومن ذلك ما ورد في أحد كتب السيرة « أن الله تعالى لما أراد خلق نبيه (ﷺ) في بطن أمه آمنه ، ليلة رجب ، ليلة الجمعة ، أمر في تلك الليلة رضوان خازن الجنان ، أن يفتح أبواب الفردوس ، ونودي في السموات والأرض ، بأن النور المخزون الذي يكون فيه النبي الهادي في هذه الليلة ، يستقر في بطن أمه الذي فيه خلقه ، ويخرج إلىالناس بشيراً ونذيراً » [٣].

١- محمود سالم ، المدائح النّبوية حتى العصر المملوكي : ٢٥٤

٢- انظر : الصرصري ، أبو زكريا جمال الدين يحيى بن يوسف ، ديوانه ، تحقيق مخيمر صالح ، (جامعة اليرموك ، إربد ، د٠ت) : ١٠٩ ، ١١١ ٠ و الصفي الحلّي ، أبو المحاسن عبدالعزيز بن سرايا ، ديوانه ، (دار صادر ، بيروت ٠ د٠ت) : ٧٧ ، ٨٤ ٠ والبوصيري ، محمد بن سعيد ، ديوانه ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، (مطبعة مصطفى بابي الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٣م) : ١٠٤ ، ٢٠٤ ، ٢٧٥

٣- ابن جماعة ، عز الدين بن بدر الدين الكناني ، المختصر الكبير في سيرة الرّسول (ﷺ) تحقيق سامي مكي العاني ، (دار البشير ، عمان ، ط١ ، ١٩٩٣م) : ٢١

كما أشار العباس بن عبدالمطلب عم الرّسول (ﷺ) إلى الحقيقة المحمدية ، عندما مدح الرسول بقصيدة أشار فيها إلى قدم النور المحمدي ، وتنقله من صلب إلى رحم حتى ولادته عليه السلام ، وذلك في قوله : [١]

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ في الظِّلالِ وَفي مُسْتَودعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

ثُمَّ هَبَطْتَ البِلادَ لا بَشَرٌ أنْتَ ولا مُضغَةٌ وَلا عَلَقُ

تَنقَّل مِنْ صالبٍ إلى رَحمٍ إذا مضى عَالَمٌ بَدا طَبَقُ [٢]

حتى احتوى بيتُك المُهيمنُ مِنْ خندف عَلياء تحتَها النُّطُقُ [٣]

وَأَنْتَ لما وُلِدت أشرقَت الأر ضُ وضاءت بنورِك الأفقُ

ولا يكاد حديث شهاب الدين محمود عن الحقيقة المحمدية يختلف عما ورد في الأبيات السابقة ، فهو يشير في إحدى مدائحه النبوية إلى أن الرسول (ﷺ) خاتم الرسل في البعثة ، والأول فيهم بالنور الأزلي الذي تنقل في أجسادهم – عليهم السلام – حتى حلّ في جسده الطاهر ، وذلك في قوله : [٤]

يا مَنْ بهِ الرّسلُ الكِرامُ توسّلوا فَغَدا توسُّلُهم بهِ مَقْبولا

يا خاتمَ الرُّسلِ الكرامِ وَأولٌ فيهم وَآدمُ طِينَةً مَجْبولا

ويعود الشاعر إلى هذا المعنى في قصيدة أخرى ، فيرى أن الرسول تأخر عما قبله من الأنبياء السّابقين جسداً ، وسبقهم بنوره الأزلي الذي سبق الوجود : [٥]

وَخاتَمُ جَمْعِ الأنبياءِ وإن يَكُنْ تَأخّر مَسبُوقاً فَقَد جَاءَ أَسْبَقَا

ويعتبر الشاعر الرسول (ﷺ) مبدأ الفضل الجزيل ، وذلك في قوله : [٦]

١- الصّفدي ، الغيث المسجم ١ : ٢٧٥ ، ود. مخيمر صالح ، المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري : ٢٠ ، وأشار ابن منظور إلى البيت الأول عند تعريفه لكلمة يُخصف ، قوله : أي في الجنة حيث خصف آدم وحواء – عليهما السلام – من ورق الجنة ، أي يُلزقان بعضه على بعض ليستترا به عورتهما . لسان العرب ٩:٧٢

٢- الطبق : الجيل من الناس

٣- النطق : أكم الجبال ، والمعنى أنه في الشرف الأعلى من النسب

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٤

٥- المصدر السابق : ٥١

٦- المصدر السابق : ٩٥

يا خاتَمَ الرُّسُلِ الكرا م َومبَدأُ الفَضلِ الجزيل

وتبعاً لذلك أصبح الرسول حقيقاً برتبة الافتتاح ، وفي ذلك يقول الشاعر : [١]

خَاتِمُ الرُّسُلِ وَهو في الفَضْلِ إن عُد وا حَقيــــقٌ في رُتبَةِ الافتِتَاحِ [٢]

وبعد أن يقرر الشّاعر أن حقيقة الرسول (ﷺ) هي الأصل وهي صاحبة السّبق في الوجود ، فإنه يَخلُص إلى عددٍ من النتائج منها : أنه قد تجمّع فيه (ﷺ) كل ما كان في الأنبياء السّابقين من صِفَات ، وذلك في قوله : [٣]

وأغنى به في الخلـقِ من كُلَّ أمّةٍ وما يَستَوي أهلُ السّعادةِ والشّقا

تجمّع فيه كل ما كان في الورى وفــي أنبيــاء اللهِ طُراً مفرّقا

وأنَّ الرسول (ﷺ) هــو رحمة الله التي نُشرت على الكون ، ونعمةُ الله على أبويه : آدم وإبراهيم الخليل - عليهما السلام - وذلك في قوله : [٤]

يا نعمةَ الباري عَلـــى أبويـــهِ : آدمُ والخليل

يا رَحْمَةً نُشِرتْ عَلى الـ أكوانِ مِنْ مَلكٍ جَليـل

ويرى الشّاعر أن إسماعيل - عليه السلام - قد اختُص بالفداء لأجل الرسول (ﷺ) ومن أجله كرّم اللهُ آباءهُ وأجدادهُ الذيـــن تنقّل في أصلابهم ، وذلك في قوله : [٥]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٥

٢- يروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال في كلام زكّى به النبي (ﷺ) بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا » الأحزاب ، آية : ٧ ، انظر القاضي عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي ، الشّفا بتعريف حقوق المصطفى ، تحقيق علي محمد البجاوي ، (دار الكاتب العربي ، بيروت د.ت) ١:٦١

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٢- ٥٣

٤- المصدر السّابق : ٩٤

٥- المصدر السابق : ٩

أنتَ المبوأُ مِنْ ذُؤابةِ هاشِـــم   شَرفاً أنافَ عَلى الكَواكِبِ طُولا
بِـكَ كَرَّم اللهُ الجدودَ وَطهرَ الـ   آبــــاءَ إذ وَلَدُوكَ جيلاً جيلا
وبكَ استفادَ أبوكَ أعظمَ عِصَمةٍ   أضحت على كَرم النجار دليلا
ولكَ المقامُ وزمزم ولأجلك اخـ   تــص الفِـــداءُ أباكَ إسمَاعيلا

ومن أجل الرسول (ﷺ) رد اللهُ – عز وجل – جيش أبرهة خاسئاً على عقبيه ، لأنه – عليه السلام – الأصل وسبب الوجود ، وذلك في قول الشَّاعِر :[١]

وردَّ مرسلهُ عَـــنْ بيــتِ كَعْبَتِهِ   مِنْ أجله الفيلُ وَهوَ الأصلُ والسَّبَبُ

ويشير الشَّاعر إلى تبشير الأنبياءِ السَّابقينَ بالحقيقة المحمدية ، وورود إشارات في كتبهم إلى مبعثه – عليه السَّلام – وذلك في قوله :[٢]

بَشَّرت قَبلَـهُ بِــهِ كُتُبُ اللـ   ـهِ فَهــلا تَدبَّروا الأسفارا
ليروا وَصْفَهُ كَمَا أَسْفَرَ الصُّبـ   حُ فَهلْ يَجْحَدونَهُ الإسفارا

ويلحُّ الشاعر على هذا المعنى في مدحة نبويةٍ أخرى ، مصرِّحاً بأسماء الأنبياء الذين بشَّروا بمبعث الرسول (ﷺ) واحتوت كتبهم على نصوص بذلك [٣] ، وذلك في قوله : [٤]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٢
٢- المصدر السابق : ٩٨
٣- صّرح عيسى – عليه السّلام – بمبعثه (ﷺ) من بعده في الانجيل بقوله : « إني مرتق إلى جنات العلي ، ومرسل إليكم الفارقليط ، روح الحق ، يعلمكم كلّ شيء ولم يقل شيئاً من تلقاء نفسه » ، والمراد بالفارقليط : محمد (ﷺ) وهو ما تقدم في القرآن الكريم : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد » . كما جاء وصفه (ﷺ) في التوراة : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صّخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا « لا إله إلا الله » ، وأفتح به أعيناً عمياء ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غُلفاً » ، انظر في ذلك . ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن كثير ، شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، (دار المعرفة ، بيروت ، د.ت) : ١١١ ، وابن كثير ، الدّلائل معجزات النبي (ﷺ) تحقيق محمد بن عبدالعزيز الهلاوي ، (مكتبة القرآن ، القاهرة ، د.ت) : ٣٤٧
٤- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٧

وَمَنْ أَنْزلَ الرَّحْمَنُ ذِكْرَ صِفَاتِـهِ   وَأُمّته الوسْطى عَلى أَلسُنِ الكُتُـبِ
وصرَّحَ عيسى باسمِهِ وَكَذلِكَ الـ   كَليمُ المناجي الربَّ بالجانِبِ الغَربي

ويفصّل الشاعر في هذا الأمر ، فقد كانت الهواتف في مشارق الأرض ومغاربها تتحدث عن قرب مبعثه – عليه السلام – وكذلك رهبان النصارى ، وأحبار اليهود ، كما في قوله :(١)

وتوالتْ بُشْرَى الهواتف مِنْ قَبْـ   ـلُ بهِ فـي رُبـا الفلا والوهادِ
وكذاك الأحبار من قبلُ والرهـ   ـبانُ نَصّا عليـه فـي كُلِّ نَـادِ
واستمرَّ السَّعيدُ منهم على الحـ   ـقِّ وأردى الشَّقي سُـوءُ العِنادِ

ويرسم الشّاعر صورة للراهب النصراني بُحيرا عندما شاهد الرَّكب المكيّ القادم للتجارة في الشام ، وقد لفت انتباهه الغمامة التي أظلتهم ، فيعرف أن هذه لا تكون إلا للنبي المنتظر ، فيدعوهم للنزول بضيافته ليتحقق الأمر ، وعندما يرى النبي المصطفى (ﷺ) يعرف خصائصه وصفاته ، فيطلب من عمه أبي طالب أن يرجع به ، ويحذِّرهُ من اليهود ، وذلك كما في قوله : (٢)

وقد رآه بُحيـرا ثُـمَّ وهو بها   مِنْ حَرّ شمسِ الضُّحى في البرّ مُحْتَجِبُ
فَضيّف الرَّكبَ كي يبلو خَصائصهُ   عِلمَنـاً وتذهـبُ فيـه عِنْدَهُ الرِّيَبُ
وقالَ للعمِ : مَنْ هَذا ؟ فَقالَ لَهُ :   ابنـي قَالَ : لا ما لهذا فـي الحيـاةِ أبُ
هذا النبيُّ الذي قَدْ كَانَ بَشَّرنـا   عيسى بهِ وأتت من بَعْـدِهِ الحِقَـبُ
فارْجِعْ بهِ وَاحْذَر القَوْمَ اليهودَ على   عرفانِـهِ فَهْـوَ عِنْـدَ الكل مُرتَقَـبُ

وهنا يشير الشاعر إلى قضية نُكران اليهود ، واستكبارهم ومعاندتهم للحقّ ، بعدما تبين لهم حقيقته – عليه السلام – حسداً من عند أنفسهم ، وذلك في قوله : (٣)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٥
٢- المصدر السّابق : ١١٢
٣- المصدر السابق : ١٠٠

عَرفتهُ اليهودُ واستيقَنُــــوه　　واستَخاروا عَلى النَّجاةِ البوارا
حَسَداً مِنهُم وَقد عَلِمَ الاعلا　　مُ مِنْهـمْ أنَّ الهُدَى لا يُوارى
ولقد أنكروا الذي عَلِموا منـ　　ـه يَقينـاً وَكَذَّبـوا الأخبارا

وتبعاً لذلك يخاطبهم الشاعر مبيناً زيفهم وكذبهم ، فقد كانوا يتحدثون عنه – عليه السلام – وعن قرب مبعثه ، وعندما بُعث كذبوا به ، وحادوا عن الحق ، وذلك في قوله : (١)

وَضُحَ الحقُّ يا يَهودُ لأبصَا　　رِكمو لو رُزِقتـم استبصارا
كنتمو تخبرونه قَبلُ عِلْمَاً　　أَفَصِرتـنم لما أتى أغمارا (٢)
ثم آليتم قُريشاً وظاهــر　　تم عليـه أعدا الإلـهِ مرارا

ويشير الشاعر إلى النصارى أيضاً في أخفائهم للحق ، ويجعل حكمهم في ذلك حكم اليهود ، مثبتاً قول عظيمهم الذي أقر بنبوة محمد (ﷺ) لما عرف صفات النبوة فيه ، وأشار إلى أنَّ الله سيظهره على مُلك قيصر ، وذلك في قوله : (٣)

وَكذا مثلُ حُكمكمْ في عِنَـادِ الـ　　حقِّ جَهْلاً ما زَالَ حُكمُ النَّصارى
قَدْ أتَى في الصَّحيحِ ذِكْرُ عظيم الرّ　　رُوم لما استبانَـهُ استِخْبَـارا
سائلا عــن صِفاتِـهِ قَومَـهُ عنـ　　ـهُ بعلـمٍ يوافـقُ الأخبــارا
قائلاً إنّ هــذه صفـة الرُّسْــ　　ـل مُقــراً ببعثـه اقــرارا
مخبــراً أنهُ سيُظهــره اللــ　　ـه علــى مُلكه غدا اظهـــارا
مُعلمــاً أنــه لو اسطاع ترك الـ　　ملــك طوعـاً أتى إليه اختيارا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٠
٢- الأغمارُ جمع غُمْر وهو الجاهل الغِرّ الذي لم يجرّب الأمور .
٣- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٠ – ١٠١

ويعرّج الشاعر على قصة سيف بن ذي يزن [1] مع عبدالمطلب جد الرسول (ﷺ) الذي أخبره بنبوة حفيده ، وطلب منه كتمان ذلك ، وفي ذلك يقول : [2]

وكذا سيفٌ بن يزن من قبـ ـل دعا جده وأخفى السّرارا

وحكى وصفه كأن قد رآه ثمّ أوصى بكتمه استظهارا

ونتيجة لما تقدم ، يُفضّل الشّاعر الرّسول (ﷺ) على الأنبياء والرُّسل والخلق أجمعين ، فهو صاحب الأصل الطيب الطاهر ، أعلى النبيين رتبة وجاهاً يوم القيامة ، بفضل ما حواه من قرب ومحبة من الله ، وذلك في قوله : [3]

نبيٌ غدا أعلى النّبيين رتبةً فلم يحو خلقٌ منهم مثل ما حوى

نبيُ الهدى هادي الورى موضع التقى شفيع البرايا صاحبُ الحوض واللّوا

أمانٌ لنا من كُلّ ما أهلك الورى قديماً به إذ بين أظهرنا ثوى [4]

ويشير الشّاعر في مدحةٍ أخرى إلى التمايز الذي خُصَّ به الرّسول (ﷺ) دون الأنبياء الآخرين ، بحيث لم يعُد يشاركه فيه منهم أحد ، وذلك إذ يقول : [5]

وخصّتهُ دون الأنبياء جميعهم خصائِصَ ما فيها لَه مِنْ مُشارِكِ

به طُهِّرَ البيتُ المحَرَّمُ من أذى طَواف العرايا والنّساء العوارِكِ [6]

وَحُطَّتْ به الأوثانُ عَنهُ وَنُزِّهَت نواحيه عَنْ تِلكَ الدِّماء الصَّوائِكِ [7]

١- سيف بن ذي يزن من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم ، مكث في ملك اليمن (٢٥) سنة ، وكان له الفضل في استرداد ملك اليمن من الأحباش بمساعدة الفرس ، وهو آخر من مَلك اليمن من ملوك قحطان . الزركلي ، الأعلام ١٤٩:٣ . وقصة إخباره عن مبعث الرّسول لجده عبدالمطلب . ابن كثير ، البداية والنهاية ٣٢٨:٢-٣٣٠

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠١

٣- المصدر السابق : ٦٥

٤- ثوى : أقام .

٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٣

٦- النّساء العوارك : النّساء الحُيض .

٧- الدّماء الصوائك : الدماء اليابسة اللازقة .

ولما كان المتصوفة يعدون الرسول « الانسان الكامل الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره ، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين » [١]؛ فإن الشاعر يسوق دليلاً على ذلك من ائتمام المرسلين به في المسجد الأقصى ساعة الأسراء ، وذلك في قوله : [٢]

مَوْطِنُ مَنْ أَسْـرَى بِهِ رَبُّه   إليـــــهِ وأَتَمَّ بِهِ المُرسَلُونْ
يأوي إليه الأخرونَ الأُلـى   يرجُونه في الحَشْرِ والأَوَلُونْ

وأتمام المرسلين به – عليه السلام – جعله المقدم عليهم والسابق لهم في الفضل ، وذلك في قول الشاعر : [٣]

خَاتم الرُسلِ وإن كَـانَ لَهُمْ   كُلُّهم في مَوْقِفِ الفَضْلِ إماما
فهو في الرتبةِ أَضْحَى مبدأً   للنبيينَ وفي العَصْرِ ختامـــــا

ويضيف الشاعر قوله في قصيدة أخرى : [٤]

وإمامُ كلِّ المُرسَلينَ وَصَاحِبُ الـ   معراجِ والإسرا وَقُرْبَ القَابِ

وهنا يلتقي الشاعر مع الصُوفية الذين يرون في « إسراء محمد تدرجاً في مقامات القرب » [٥].

ويخلص الشاعر من خلال الحقيقة المحمدية إلى أن الرسول (ﷺ) أعلى الخلائق رتبةً ، خُصّ بالنُور الأزلي ، والتَّجلِّي الإلهيّ ، ولذلك فهو وحده الذي يملك الشَّفاعة للناس من دون الأنبياء الآخرين يوم القيامة ، لذا يقرّر أن هذه الشّفاعة هي رُتْبة من الله – عز وجل – أعلت من مقام الرسول (ﷺ) وذلك في قوله :[٦]

١- أنور فؤاد ، معجم المصطلحات الصّوفية : ٤٩
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح :٧١
٣- المصدر السابق : ٢٧
٤- المصدر السابق : ٨٥
٥- إبراهيم بسيوني ، نشأة التصوف الإسلامي : ٧٢
٦- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٠

ومن أعطاهُ مُرسلـــه اعتناءً خَصائصُ رتبةٍ أعلت مقامهْ
فمنهـنَّ الشّفاعةَ فـي مقامٍ إذا ما كَلَّ عَنْهُ الرُّسل قامهْ

ويرى في الرسول (ﷺ) شفيع المذنبين العاصين ومخلصهم من نار جهنم ، ولا أحد غيره من الأنبياء يشفع فيهم « الشّفاعة التي يحيد عنها أولو العزم ، بما خصه الله به من الفضل والتشريف » [١] ، وذلك في قوله : [٢]

فأَنْتَ شَفيعُ المذنبينَ وَقَدْ غَدَتْ جَهَنَّمُ تَرْمي المعتدينَ وَتَرمــقُ
ولا أحدٌ حَاشَاكَ يا سَيّدَ الوَرى هُنالِكَ إلا وَهوَ حَيْرانُ مُطْرِقُ
ولا جَاه في ذاك المقامُ لشافِـعٍ سِوالكَ بِهِ للخلـق طُراً تَعلُّــقُ

وقد غدا الرسول (ﷺ) عند الشاعر ، الأمل ومحط الرجاء ، تتعلق به نفوس البشر يوم القيامة ، وذلك في قوله : [٣]

لهُ اللّوا والحوضُ في بعثهمْ يُظلُّهـم ذا وبــذا يرتــوونْ
وشافعُ الكـــلِّ إذا ما أتوا إليه عِنْدَ اللهِ يَستَشفِعـــونْ
مُنقذهم مِنْ كَربِهِم يوم لا تنفعهــم أموالُهم والبَنُــونْ

ويجعل الشاعر الرسول (ﷺ) شفيع أُمته ، إذا ضاق بها الحال أتاها بالفرج ، والناس يومئذٍ في شُغل بأنفسهم ، وهو في شُغل بأمته ، وذلك في قوله : [٤]

شفيعُ أُمتهِ يـــومَ المعـــــادِ إذا ضـــاقَ المجالُ عليهم جاءَ بالفرجِ
وذبَّ عنهُم وأغنتهم شفاعتُـــــه عندَ الحسابِ عَنْ الأعذارِ والحججِ
والناسُ إذ ذاك في شغلٍ بأنفسهم كلٌّ على غير مـــا يغنيه لم يعجِ

١- ابن كثير ، أبو الفداء اسماعيل بن عمر ، الفُصول في حياة الرّسول ، إعداد حجر عاصي ، (دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩١م) : ١٢٧
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٤
٣- المصدر السابق : ٧١
٤- المصدر السابق : ٨٣

ويفصّل الشاعر في خطوات الشفاعة ؛ فبعد أن ييأس الناس من شفاعة الأنبياء – إذ كلهم منشغل بنفسه – يأتون إلى الرسول (ﷺ) فيقف بدوره أمام الحضرة الإلهية ، ويحمد الله – عز وجل – ثم يُشَفَّع في أمته ، وينقذ عصاتها من حرّ النّار ، وذلك في قوله : [١]

والناسُ قد يئسوا شَفَاعَةَ كُـلَّ مَنْ   حَوَتِ القيامةُ فـي ذُرا عَرَصَاتها

يأتـي فيحمـدُ ربّـهُ بمحامـدٍ   لا تُـدركُ الأفهـامُ كنه صِفاتها

فيقالُ سَلْ وَاشْفَعْ فَقَدْ أُعْطِيتَ من   رُتَـبِ الشَّفاعَةِ مُنتهى غاياتها

فيقول أُمتِـي التي ما أَشْرَكَـتْ   بِكَ لحظةً هب لي ذُنوبَ عُصاتها

فهناكَ نُعتقُ مـن لظىً بشفاعةِ الـ   هادي ونأمنُ مِنْ سُطا لَفحاتهـا

ويضيف الشاعر إلى جانب الشفاعة التي منحها اللهُ لنبيه محمد – عليه السلام – (الوسيلة والفضيلة) [٢]، وذلك في قوله : [٣]

فأسنى لهُ اللهُ الوسيلةَ في غدٍ   وَصَلَّى عليه مِنْ نَبيٍّ وَمنْ مُنْبي

والرسـول (ﷺ) صاحب الحوض ، الذي يرجو الشاعر أن يكون ممن يُسقَون منه : [٤]

نبـيٌّ لـهُ الحوضُ الرّوي وإننـي   لآمل أن أغدو غداً بعض من سقى

وقد توج الله نبيهُ إلى جانب هذه الكرامات بمقام الحمد [٥] .... : [٦]

وحباهُ مَع اللواءِ مَقام الـ   حَمدِ في بَعثِهِ وَحَوْضاً رَوِيَا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٢

٢- الوسيلة والفضيلة : هما أعلى منزلة في الجنّة وأقربهما إلى العرش ، كما جاء في الحديث : « سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو » . ابن كثير ، الفصول في حياة الرسول : ١٢٨

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٨

٤- المصدر السابق : ٥١

٥- عن ابن مسعود عن النبي (ﷺ) أن المقام المحمود هو : قيامه (ﷺ) عن يمين العرش مقاماً لا يقومهُ غيره ، يغبطه فيه الأولون والآخرون . القاضي عياض ، الشّفا ١:٣٩٠

٦- الشهاب محمود ، أهنى المنائح :٥٨

ثانياً : السِّيرة النَّبوية

استوعب الشاعر شهاب الدين محمود في مدائحه للرسول الكريم ، السّيرة النبوية استيعاباً دقيقاً ، وعرض لتفصيلاتها على نحو يدلُّ على تمثله العميق لها ، فلم يترك حادثة صغيرة أو كبيرة تتعلق بها إلا وتناولها بصورة أو بأخرى ٠ غير أنني أنبه هنا إلى أن الشاعر قد عرض لمجريات السيرة النبوية في مدائحه جميعاً ، مفصِّلاً القول أحياناً ، ومجملاً أحياناً أخرى ، فقد تحدث عن الأمور التي تزامنت وولادة الرسول الكريم – عليه السلام – وأشار بلغة تقريرية إلى تصدّع إيوان كسرى ، وخمود نار الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة [١] ، كما أشار إلى نبوءة الكاهن سطيح [٢] بولادة النّبي – عليه السلام – وذلك في قوله : [٣]

وخمود بيت النَّار من آياتِكَ الـ	لاتِي تَردُّ الطَّرفَ عَنْـكَ كَليلا
وكذا بُحيرةُ سَاوةٍ غارت وَقَـدْ	كَانَـتْ جَوانِبها تفُوقُ الميلا
والموبذانُ [٤] رأى مَناماً هَالَـهُ	وسَطيحٌ شَرَّفَ باسمِك التَّأويلا
وكذاكَ في الأيوانِ أعظمُ معجزٍ	بهرَ العقـولَ وحيـرَ المعقولا

وقد عاد الشَّاعر إلى هذه المعاني في مدحة أخرى ، مُصوِّراً المظاهر الكونية التي حدثت ليلة ميلاد الرسول – عليه السلام – مما بهر العقول ، وحيَّر الألباب ، وذلك في قوله : [٥]

١- ساوة : مدينةٌ حسنة بين الرّي وهمذان في وسط بينها وبين كل واحدٍ من همذان والرّي ثلاثون فرسخاً ٠ الحموي ، معجم البلدان ٣:١٧٩

٢- هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب أحدُ كهنة العرب المشهورين فسّر رؤيا رآها كسرى بمجيء الرسول (ﷺ) ٠ ينظر في أخباره : ابن كثير ، البداية والنّهاية ٢:١٦٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، وموسوعة التاريخ الإسلامي ، رسول الله نبوءة سَطيح والزرقاء ، (دارالكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢م) ٠

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠

٤- الموبذان : كاهن نار الفُرس رأى ذات الرؤيا التي رآها كسرى يوم ولادة رسول الله (ﷺ) إذ رأى ابلاً صعاباً تقود خيلاً عُراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم ٠ ابن كثير ، البداية والنّهاية ٢:٢٦٨

٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٥

وانشِقاقُ الإيوانِ من فوقِ كِسْرى   مَلِـــكُ الفُرسِ لَيلَـةَ المِيـلادِ
وخُمودَ النّيرانِ مِـنْ بَعْدِمَـــا مَرْ   رَّ لهـا الفُ حُجةٍ فِـــي اتقادِ
وكذا غَارَتْ البُحَيْـرَةُ مِنْ سَـــا   وَةَ والماءُ حَوْلَها فِـي ازديادِ
وكذا الجنُّ عادَ مَنْ رَامَ مِنْها السَّـــمعَ يُرْمَـــى بكوكَبٍ وَقّـــادِ
وتوالت بُشرى الهواتِـــف من قبـ   لُ بهِ في رُبا الفـلا والوهـــادِ

ويرسم الشّاعر صورة تنطوي على قدر كبير من السُّخرية من أصنام قريش التي نُكِّست على وجوهها ساعة وضعه – عليه السلام – وذلك في قوله : (١)

وأصبحتِ الأوثانُ ساعةَ وضعِهِ   منكسةً فالروسُ منهن أَشْوُقُ (٢)

وذكر الشاعر لهذه الظواهر لا يخلو من الرمز ؛ فتصدع ايوان كسرى ، رمزٌ لتصدع الظلم ، وخمود بيت النار ، رمز لخمود الشرك ، إيذاناً بمولد الحق ، ورصد الشّهب للشياطين رمزٌ للقضاء على الكهانة (٣).

وَيُصوِّر الشاعر ابتهاج الكون كله بميلاده – عليه السلام – والضياء الذي غمر السماوات والأرض ، وَكَشفَ سُبل الهدايةِ للناس : (٤)

بمولده ضاءَ الوجودُ وأشرقت   رُبا الأرض بالوجهِ الأغر المبارك

ويصدر الشاعر عن روح إيمانية عميقة ، وهو يتحدث عن البركة التي حلت في بيت حليمة السعدية ، عندما تشرفت بإرضاع الرسول (ﷺ) وكيف أن حياتها انقلبت رأساً على عقب ، فراحلتها الهزيلة الضعيفة امتلأت عنفواناً وقوة ، وثديها الضّامر الذي لم يكد يكفي رضيعها ، أصبح يسيل لبناً ، وأرضها القاحلة المجدبة عمَّها الخير : (٥)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٥
٢- أشوُق : متتابعة بعضها يسوق بعض .
٣- شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ، (دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، د.ت) : ٢٤١ ، وماهر حسن فهمي ، قضايا في الأدب والنقد ، رؤية عربية وقفة خليجية ، (دار الثقافة ، قطر ١٩٨٦م) : ٩٦
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٢
٥- المصدر السابق : ٦٠-٦١

كَذلكَ لمَّا استرضَعتْــــه حَليمةٌ   رَأَتْ في بيتِها اليُمنَ مِنهُ وشَاهَا
وَمدَّت كَمَا شاءت وَزَال هُزالها   وَذمَّت نِسـاءُ الحيِّ حَالَ رَجَاها

وفي البادية حيث الصّفاء والنقاء ، يتابع الشاعر رحلة الرسول (ﷺ) مشيراً إلى حادثة شق الصّدر ، وتطهير الله عز وجل لقلب نبيه بالماء والثلج والبَرد ، إذ يرسل عليه ملكين يشقان صدره ، ويخرجان قلبه ويطهرانه ، ثم يرجعانه إلى مكانه ، وأترابه من الغلمان ينظرون : [1]

وشاهدت الغلمانُ شقَّ فؤاده   فَطيماً وتطهيرَ الملائكِ للقلبِ

ويصف الشاعر المشهد الأول للوحي ، حيث تنزّل عليه من السماء ، وهو متعبد في غار حراء ، ويرســـم صورة حية للرسول وهو يستقبل التبليغ الأول ، والأحوال التي اعترته ، مقرراً ظهور الهدى ، وانتشار الضياء في جميع أرجاء الكون ، وذلك في قوله : [2]

جاءهُ بالوحي جبريلُ وقـدْ   ألِفَ الوحدَةَ في غـــارِ حِرا
قال : اقرأ فاعتراه وجـلٌ   ثـــمَّ مـــا فارقَـــهُ حَتَّىَ قرا
وأراهُ عِنْدَمـا صَلَّـــى بِهِ   صِفَةَ الفَرْضِ عَلى مَا أَمَـــرَا
يَا لهُ يَوماً قَضَى اللهُ بِـهِ   للهُدى في خَلْقِه أَنْ يَظْهَـــرَا
أشرقَ الأفقُ بهِ حَتَّى غدا   مِنْ ضِياء الشَّمْسِ أَبْهَى مَنْظَرا

ولا يفوت الشاعــر أن يشير إلى المكان الطّاهر مكة ، الذي شع منه الفيض الإلهي ، وانبعثت منه الاشعاعات النورانية ، لتبث الهدى في القلوب ، والطهارة في النفوس ، وهذا الفيض الإلهي ، عمَّ مشارق الأرض ومغاربها (إشارة إلى شمولية الدَّعوة) ، وذلك إذ يقول : [3]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٨
٢- المصدر السابق : ١١٨
٣- المصدر السابق : ١١١

مَغْنىً بهِ فَاضَ فَيْضُ اللهِ وانبَعَثت ... بِــهِ إلى الخَلقِ طُرّاً للهُدَى شُعَبُ
وَطَبَّقَتْ رَحْمَةُ اللهِ البِلادَ بِــهِ ... كَأنها الغيثُ يَسْري وَهوَ مُنسَكِبُ
وسار منه الهدى لم تبق شارقةٌ ... إلا ونــــور سناها منه مكتسبُ

ويتوقف الشاعر عند حقيقة الدعوة المحمدية ، التي أضاءت الأرض بنور ربّها ، وأخرجــت الناس من الظلمات إلى النور ، وبينت لهم سبل الحق والرشاد ، وذلك في قوله : [١]

وَوَقتنا أنْــوار سُنّتــه المُثـ ... ـلى وقوعاً في حَبْلِ دارِ الغرورِ
وأرانا بِنُورِهَـــا كُلَّ خَيْرٍ ... لَمْ يَحِلْ عِلْمَة لنا في الضَّميرِ

ويستوحي الشاعر آي الذكر الحكيم وهو يتحدث عن الدعوة التي جاء بها الرسول الكريم ، وَمَنَّ بها اللهُ على عباده ، ليهديهم إلى سُبل الرشاد ، بعد أن خيم الجهل والغي على نفوسهم ، وذلك كما في قوله : [٢]

مُحمدُ المبعوثُ للخلــقِ رَحْمَــةً ... وَمَنّاً مِــنَ البَرِّ الرؤوفِ تلامنَّا
وهادي الوَرى والغيُّ قَدْ طَبَقَ الرُّبا ... فَلا عَلَمٌ للرُّشْدِ يَبْدو ولا يفنى

وينوه الشاعر بالمكارم الخلقية التي كان يتحلّى بها الرسول الكريم ، وأهلته لحمل الرّسالة وتبليغها للناس ، وذلك إذ يقول : [٣]

يا رَحمةً نُشِرَتْ عَلى الـ ... أكوانِ مِــنْ مَلِك جَليلِ
أنْتَ المبوَّأُ في المفَــا ... خِرِ ذِرْوَةَ الشّرَفِ الأصِيلِ
ألقــى إليــكَ اللهُ ما ... القى مِــنَ القولِ الثّقيلِ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٠
٢- المصدر السابق : ٨٧
٣- المصدر السابق : ٩٤

ويصوّر الشاعر انقسام الناس ازاء هذه الرحمة الإلهية إلى فريقين : فمن استجاب للرسول (ﷺ) وأطاع هداه ، فقد استحق السعادة ورضى الله ، ومن تولى عن هذه الرحمة فقد اختار طريق الشّقاء ، وذلك في قوله : [١]

رَحْمَةُ اللهِ في الوجودِ على الخَلْـ قِ هَدَاهُم بها الصِّرَاطَ السَّويا
فاستجابَ الذي بَرَاهُ [٢] سَعيداً وَتَولـى الـذي قَضَاهُ شَقيا
فَغَـدا مَـنْ أَطَاعَـهُ وَأَتـاهُ رَاضِيَـاً عِنْـدَ رَبّـهِ مَرْضِيَّا

وكان لا بد من تأييد النبي (ﷺ) بما يثبت صدق دعواه ، من « خصال لا تستطاع إلا بقدرة إلهية ، تدل على أن الله تعالى خصه بها تصديقاً على اختصاصه برسالته ، فيصير دليلاً على صدقه في إدعاء نبوته » [٣]. وقد تتبع الشاعر في ذلك كتب السيرة فما ترك فيها من حديث عن معجزات النبي – عليه السلام – إلا وأدرجه في مدائحه النبوية ، ولم يبال بالجدل الذي قام حول هذه المعجزات ، ما بين مؤيد لها ومنكر لبعضها ، بل كان كل همه ، أن يحشد في مدحته النبوية ، كل ما يستقيم له من معجزات نبوية ، مبدياً انبهاره بها ، ويرددها مراراً ، مأخوذاً بما تمثله هذه الشخصية العظيمة من إبهار يأخذ بسنى الأبصار ، ولذلك نراه يلح عليها ، ويكررها في مدائحه ، مع إدراكه أن النظم لا يستطيع أن يوفيها حقها ، وذلك في قوله : [٤]

ذو المعجزاتِ الباهـراتِ كأنَّهـا شَمسُ الضُّحَى لم تَستتِرْ بِضَبابِ
لم يحوِهَا نَظْمٌ وَهلْ شُهُبُ الدُّجى ممـا يُنظَّـمُ في سُلوكِ سَحَابِ

وقد كثر الحديث عن المعجزات النبوية في العصر المملوكي كثرة مفرطة ، سواء في الشعر ، عند مدح الرسول (ﷺ) أو في تأليف الكتب التي ترصد معجزاته – عليه السلام – مثل : (الوفا بأحوال المصطفى) لمؤلفه عبدالرحمن بن الجوزي ، (وشمائـل

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٨
٢- براهُ : خَلَقَهُ .
٣- الماوردي ، أعلام النبوة : ٧٩
٤- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٥

الرسول ودلائل نبوته وفضائله) لابن كثير ، « وربما كان العالم الإسلامي في حاجة إلى ما يشبه المعجزة لينشله ، وكان ظهور هذين الاتجاهين عودة إلى النبع المحمدي وقت الشدة ، أو القوة في الجهاد والأمان النفسي » [١].

ويمكن تقسيم معجزات الرسول (ﷺ) وكراماته ، كما أشار إليها الشّاعر إلى معجزات سماوية ، ومعجزات أرضية ، وتتمثل المعجزات السّماوية في : القرآن الكريم ، والإسراء والمعراج ، وانشقاق القمر .

وقد توقف الشاعر عند مظاهر الإعجاز القرآني ، ولعل أكثر هذه المظاهر دوراناً في مدائحه ، الإعجاز البلاغي ، وتحديه للأنس والجن أن يأتوا بآيةٍ من مثله ، وإقرارهم بالعجز ، كما يبدو في قوله : [٢]

خصَّهُ اللهُ بالكتابِ الذي أذ ... عَـن قَسراً لهُ مُطيعٌ وعاصي
أعجزَ العالمين إنساً وَجنَّـاً ... فأقروا بالعجزِ لا عَنْ تواصي

ويلمّ الشاعر في قصيدة أخرى ، بعناصر جديدة لهذه المعجزة القرآنية الخالدة ، بتضمنـه علم ما مضى من العصور ، وكيف أنه دُستورُ الأمة ، ودليلها في الدنيا والآخرة ، وذلك في قوله : [٣]

والكتابُ الذي تَحدَّى بـهِ الخلـ ... قَ فَبَـاؤا بَعجْزِهم والقُصورِ
فيه أحكامنا وَعِلْمُ الـذي يأ ... تي وأنباءُ ما مضَى في الدهورِ
ودليلٌ في موقف الحشر يهديـ ... ـنا سناهُ ومؤنِـسٌ في القبورِ
وشفيع أيضاً لقاريه فـي المو ... قِـفِ يحظى بجاهِـهِ المبرُورِ

١- ماهر فهمي ، قضايا في الأدب والنقد : ٩٤
٢- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٣-١٠٤
٣- المصدر السابق : ٦٩

ويبينُ الشاعر في مدحة أخرى أن القرآن مصدر هداية وإلهام للمسلمين ، فقد هداهم إلى الخير ، وثبّت قلوبهم على الحق ، كما يبدو في قوله : [١]

خَصَّهُ اللــــهُ بالكتاب فأعيت	آيةٌ مِنْــــهُ كل مَنْ خَاضَ سَمْعَهْ
مُعْـجزٌ يَسَّـــرَ الإلـــــهُ علينا	حِفْظَــــهُ إذ عَــزا إليــهِ جَمْعَهْ
مُحْكَـمٌ ثَبَّـــتَ القلوبَ بهِ اللـ	ـهُ فمـــا للشَّيطَانِ فيهنَّ طَمْعَهْ
وهدانَــــــا بـهِ وبالسُّنَّةِ البيـ	ـضَاءِ شَرْعَ الهُدى فلم نعد شَرْعَهْ

ويلاحظ أن الشاعر كرر لفظة (خَصَّهُ الله بالكتاب) في مدائحه النبوية ، وذلك ليؤكد انفراد الرسول (ﷺ) بهذه المعجزة ، وتميزه واختصاصه بها عن سائر الأنبياء السَّابقين ، وإن كانوا أصحاب كتب سماوية ؛ فإن القرآن الكريم له خاصيته التي تميزه عن سائر الكتب الأخرى ، بحفظه من التحريف ، وخلوده على مدى الأيام .

ويفقد الرسول (ﷺ) أعزَّ اثنين لديه : عمه وزوجه اللذين كان يأوي إليهما وقت الشدة ، فتأتي « حادثة الأسراء والمعراج ، تثبيتاً للرسول (ﷺ) على طريق المقاومة الطويل وتكريماً له في أعقاب سنين طويلة ، من العمل والصمود والكدح ، وتتويجاً لهذه السنين الصعبة ، رفعه إلى قلب السماوات ، واطلعه على جوانب الإعجاز الإلهي الباهر في الكون الكبير » [٢].

وقد اختلف العلماء في الأسراء والمعراج ، هل هو بالجسد أم بالروح « فذهبت طائفة إلى أنه اسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، وذهبت طائفة إلى أن الاسراء كان بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السّماء بالروح ، والذي عليه الأكثرون – وقال به معظم السّلف – أنه إسراء بالجسد والروح في اليقظة » [٣] .

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٦

٢- عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة ، (مؤسسة الرّسالة ودار النفائس ، بيروت ، ط١٣ ، ١٩٩١م) : ١١٠

٣- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، (مصوّر عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت) ٢٩٣:١٦

وهنا نجد الشاعر شهاب الدين محمود يُشير صراحة إلى أن إسراء الرسول (ﷺ) كان بالجسد والروح في حال اليقظة ، وليس رؤيا منام ، وذلك كما يبدو في قوله : [١]

أسرى إلى الأقصى بِجسمِكَ يَقْظَةً   لا فـــي المنام فَيقبَلُ التَّأويلا

ويقرر الشاعر أن هذهِ الرّحلة الأرضية السّماوية كانت رِحْلَة تكريم للرسول (ﷺ) أُطْلِعَ فيها على أَسْرار الكون ، وجلس فيها إلى الحضرة الإلهية « فإذا المعراج النّبوي رمزٌ لبلوغ النبي التكامل ، ولتحقيق القيم وتمثلها ، وهذا التكامل هنا تجاوز التناقض بين الإنسان والطبيعة ، ثم بين الإنسان واللاإنسان ، بين المادي والروحاني ، ثم بينه وبين جميع الأنبياء والرسل ، ثم بينه وبين عالمي الغيب والشهادة » [٢] ، وذلك في قول الشاعر : [٣]

خاتم المرسلينَ أَسرَىٰ بهِ اللـ   ـهُ إليـــه زِيادَةً في الكَمالِ
فازَ فيها بِقابِ قوْسَين أَوْ أَدْ   نَـــى فيا ليلة مَضَتْ بِليالِ

ولم يغفل الشاعر الحديث عن مجريات هذه الرّحلة الأرضية السّماوية ، فقد أُسرى به – عليه السلام – مِنْ مَكَّة ، وَحَطَّ رحالَهَ في بيتِ المقدس ، وَهُناكَ صَلَّى بالأنبياء السَّابقين جماعة ، وفيهم كليمُ اللهِ موسى ، وخليله إبراهيم ، وبقية الأنبياء – عليهم السلام – إذا كانوا « ينتظرون (خاتمهم) لكي يؤمهم في صلاة جماعية تعبيراً عن الدور الواحد الـذي جاؤوا إلى العالم لأدائه ، واتجاهاً إلى الهدف الواحد الذي بُعثوا لتحريك النّاس إليه » [٤] ، وإشارة إلى تفضيل الرسول وتقديمه عليهم ؛ وفي ذلك يقول : [٥]

فَعَرَجْتَ تَخْتَرِقَ السّموات العُلا   شَرَفَـــاً على الفَلَك الأَثيرِ أثيلا
صَلَّيْتَ والأملاكُ خَلْفَكَ قَدْ تَلوا   فيهـــا كَليمـــاً سَابِقاً وَخَليلا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١
٢- قراءة أدبية وفلكلورية في بردة البوصيري : ٤٢
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٢٣
٤- عماد الدين خليل ، دراسة في السيرة : ١١٥
٥- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١

ويفيض الشاعر في الحديث عن هذه المعجزة ، في غير ما قصيدة ، ويرسم صورة جميلة نابضة بالحياة ، وقد صار الرّسول قاب قوسين أو أدنى من الحضرة الإلهية ، تتويجاً « للامتيازات التي اختص بها الرسول - عليه السلام - وامتاز بها عن باقي الأنبياء لأنه اقترب من ربه أيما اقتراب » [(١)] ، وذلك من مثل قوله : [(٢)]

وَصَعِدْتَ مَع جِبْرِيلَ حَتَّى القابَ مِنْ   قَوْسَيْـــن أَوْ أَدْنى بَلغتَ حُلولا
جَــاوَزْتَ مَوْقِفَهُ وَقُلْــتَ أَههُنَـــا   يَـا صَاحِبِـي يَدعُ الخَليل خَليلا
أَوحَــى إليـــكَ اللهُ ما أوحَى وما   كَذَبَ الفُؤادُ ولا استَرابَ ذُهولا
وَرَجَعْــتَ والليلُ الذي فيــه السُّرى   والعُـودُ مـا خَلَعَ السَّوادَ نُصُولا

ويتحدث الشاعر عن المعجزة السماوية الثالثة ، معجزة انشقاق القمر نصفين ، وذلك لإقامة الحجة والدليل على المكذبين المعاندين ، بعد أن أصبحت علامة واضحة في كبد السماء يراها كل الناس ، ومن ذلك قوله في معرض تعداده لمعجزات الرسول (ﷺ) : [(٣)]

فمنها انشقاقُ البدرِ كَيْفَ بكتمِهِ   وَكُـــلٌ لَهُ في الأُفقِ أَصْبَح رَائيا

ويخرج الشاعر من الحديث عن المعجزات السماوية إلى عرض الكرامات التي خُص بها - عليه السلام - ويذكر عدداً منها ، ومن ذلك نبع الماء من بين أصابعه ، والبركة التي أصابت الماء حتى روى جيش المسلمين ، وفي ذلك يقول : [(٤)]

وَجَرى الماءُ مِن أنامِلِـه الخَمــ   سِ وَمَــا ثَمّ قَطرةٌ في الرِّحالِ
فارتوى الجيش منه واحتملوا الـ   ماءَ ولــم يَربَعوا عَلى الأوشالِ

١- د.مخيمر صالح ، المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري : ١٥٩
٢- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١
٣- المصدر السابق : ٥٥
٤- المصدر السابق : ١٢٣

ويسترسل الشاعر في مدحة أخرى في الحديث عن استمطار الرسول للسماء ، ويعرض الموقف عرضاً مؤثراً ، من خلال الصورة التي رسمها للنبي الكريم وقد صعّد يديه إلى السماء ، يدعو الله أن يُغيث صحابته ، وذلك إذ يقول : [١]

وحيـــنَ شكـا إليه القومُ جَدباً	أنـارَ علـى ربوعَهـمُ قُتامـةْ
فَصعَّـــدَ كَفَّـهُ والجـوُّ مصحٍ	فَمـدَّ لَـــهُ الغَمام بهِ خيامـــةْ
ولم يَـتردَّد إليـهِ يديـــهِ إلا	وصوبُ الغيثِ قَدْ وَالى انسجامةْ
وأومأ إذ طَفا فانجـــابَ عنهُم	وأمّ الغيـــثُ يستفري [٢] أكامةْ

ويتحدث الشاعر عن كرامة أُخرى للرسول (ﷺ) وهي إحلال البركة في الطعام وتكثيره ، ويعرض صورة الصَّحابي جابر [٣] الذي دعا الرسول (ﷺ) لتناول الطعام ، فيأتي الرسول ومعه عدد كبير من الصحابة لم يتوقعه جابر ، فها هو واقف وقد بلغت به الحيرة أشدها ، كيف يطعم هذه الأعداد الكبيرة غير المتوقعة ، لقد أرادها دعوة خاصـة للرسول (ﷺ) لأنه يعرف ان ما أعده ، لا يكفي إلا لمجموعة قليلة من الأشخاص ، ولكنه بفاجأ بدعوة الرسول (ﷺ) لصحابته ، هلموا إلى مأدبة جابر ، فماذا يفعل ؟ وهنا تتجلى المعجزة الإلهية ، والكرامة النبوية ، فقد أكل كل المدعوين حتى شبعوا دون أن ينقص من الطعام شيء : [٤]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح: ٤٠ ، ويترجم الشّاعر في الأبيات السابقة حديث أنس بن مالك عندماذكر : « أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعه من باب كان وجاه المنبر ، ورسول الله (ﷺ) قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله (ﷺ) قائماً فقال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وتقطعت السّبل فادع الله لنا يغيثنا ، قال : فرفع رسول الله (ﷺ) يدية فقال : اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، قال أنس ولا والله ما نرى في السّماء من سحاب ، ولا قزعة ولا شيئاً ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل التّرس فلما توسطت السماء ، انتشرت ، ثم أمطرت ، قال : والله ما رأينا الشمس ستاً » . ابن كثير ، الفصول في حياة الرسول : ٩٩ ، وشمائل الرسول : ١٦٤-١٦٥

٢- يستفري : يشق .

٣- جابر بن عبدالله بن عمر بن حرام ، من الحفاظ للسنن ، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير ، ت (٧٤) هـ . انظر ابن عبدالبّر ، ابو عمر يوسف ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق على محمد البجاوي ، (دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م) ١:٢١٩ - ٢٢٠

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٠

وَبُهْمَةُ جَابِـــرٍ لمــا دَعَـــاهُ لَهَـــا وَأَحَبَّ أَن يُخْفَى قتامهْ
فَنادى في الصّحاب ألا هَلمُّوا إلى سُؤرٍ [١] وَلَمْ يَأْبَ الكَرامةْ

ويورد الشاعر قصة أخرى لتكثير الطعام ببركة رسول الله (ﷺ) فيعرض قصة الصّحابي جابر بن عبدالله ، عندما استعان برسول الله ليفكه من ثقل الدين ، فيأتيه الرسول (ﷺ) ويأمره أن يكيل للغرماء ، فيكيل لهم حتى يوفيهم ، ويبقى تمره كأن لم يؤخذ منه شيء ، وذلك إذ يقول : [٢]

وَشَكَــى جَابِرٌ لَهُ ثِقَلَ الدَّيـ ـنِ وإلحاحَ خَصْمِهِ في العُسرِ
وَلديه تَمـرٌ يوفيهُـــمُ البعــ ـضَ بمجمـــوعِ مَالهُ مِنْ تَمرِ
فأتاه فأكْمَــلَ حَقَّهــم منــ ـهُ وأضْحَـــى كَحلِّهِ في الوَفرِ

وهذا الرسول (ﷺ) وقد غرس النخل لسلمان الفارسي - رضي الله عنه - بيديه الكريمتين ، فيثمر في عامه التالي ، ويكون سبباً في افتكاك سلمان من أسر العبودية البغيض : [٣]

غَرَس النَّخْلَ لسلمانَ فمـــا مـــرَّ ذاكَ العـــامُ حَتَّى أثمرا
ففداهُ اللهُ في الحالِ وَقَدْ كَا نَ فـــي رِقِّ العِـدا مُستَأثِرا

وهذه شاة أم معبد الهزيلة العجفاء ، يمس رسول الله (ﷺ) ضرعها الجاف اليابس ، فيمتلىء من فوره لبناً سائغاً للشاربين ، فيشرب منه الرسول (ﷺ) وصحبه حتى يرتوون ، واللبن في الضّرع على حاله ، وذلك في قول الشّاعر : [٤]

١- السؤر : بقية الطعام .
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٣-٦٤
٣- المصدر السابق : ١٢٠
٤- المصدر السابق : ١٢٣

وكذا شاة أمّ معبدٍ حين مست   كفّـــه ضرعها النّحيفَ البالي
فامتلى ضرُعها ودرّت على الفو   ر برَسْـــلٍ جَارٍ على استرسَالِ
روّت القومَ واستمرّت وما كـا   نَ يُرى في ضُروعِها مِنْ بلالِ

ويعجب الشّاعر من المشركين الذين قست قلوبهم، وهو يتحدث عن الحجر الذي رقَّ للرسول - عليه السلام - وهاجـه الحنين إليه ، فسلم عليه عند مروره من جانبه ، وذلك في قوله : (١)

وَسلّمت الاحجَارُ عِنْدَ مروره   بِها والحصى بالذّكر عَادَ مُنطّقا
فتباً لجهال يشكّون في الذي   غدا بيّناً عند الجَمادِ مُحَقّقــاً

ويعود الشّاعر إلى هذا المعنى في قصيدة أخرى فيقول : (٢)

وسلامُ الأحجار تبدؤه مِنْـــ   ـها به في وروده والصّدور
وامتثال الأحجار بدأً وعوداً   أمرهُ في ذهابهــا والحضور

ويشير الشاعرُ إلى تسبيح الحصا بين يدي رسول الله (ﷺ) ليسمع كلَّ ساه عن الحق : (٣)

وسبّح للرحمن في كفّه الحصا   فأَسمع من أصغى ومن كَانَ سَاهيا

ومن هذا الكرامات الإلهية التي عرض لها الشّاعر في مدائحه النبوية استجابة الأشجار للرسول - عليه السلام - وانصياعها لأمره وذلك في قوله : (٤)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٢
٢- المصدر السابق : ٦٩
٣- المصدر السابق : ٥٥
٤- المصدر السابق : ٢٧-٢٨

ودعا الاشجارَ فانقادَت إلى أمــرِه طَوْعَـــاً وَلم تَعْصِ مَراما
فقضى ما شاءَ مِنْهــنَّ وَمذ قال عودي َراجِعاً عَادت إلى ما

ويتخذ الشاعر من الجذع الذي كان يجلس عليه رسول الله (ﷺ) ليخطب بالناس معجزة أخرى مؤيدة على صدق دعواه ، إذ يصدر الجذع الجاف اليابس ، الذي لا روح فيه ولا حياة ، حنيناً مؤثراً لأن الرسول (ﷺ) فارقه وصعد المنبر : (١)

حَنَّ إليه الجذْعُ مِنْ حَسْرةٍ َعليــــــه لمّا صَعِدَ المنبرا

ويعود الشاعر بالجذع إلى صورته الأولى الساكنة ، بعد أن يضمه الرسول (ﷺ) في صيرورة عجيبة من ساكن جامد ، إلى متحرك يحس ويشعر ، ثم عودة مرة أخرى إلى السكون صورته الأولى ، في إشارة عجيبة إلى تأثير الرسول (ﷺ) بالجماد : (٢)

وإليه الجذعُ إذ فَارَقَــــهُ حَنَّ حتَّى ضَمَّه ثُمَّ التزاما

ويرى الشاعر في حنين الجذع موعظة من أكبر المواعظ للاقتراب من تعاليم الإسلام ، واضعاً إياها في دليل عقلي منطقي مقنع ، فإذا كان الجماد لم يطق صبراً على فراقه - عليه السلام - فكيف حال البشر إزاءه ، وذلك كما يبدو في قوله : (٣)

وحنينُ الجذعِ فيه عِظَـــةٌ لامـرىءٍ أَزْمَـع َعنهُ سَفرا
أين يلقى الصبرَ مَنَ فارقَهُ وجمادٌ لم يجـدْ مُصطبرا
ما حنينُ المرءِ لَــو أحرقَهُ بعدَ جذعٍ حَنَّ أمراً منكرا

ويلاحظ أن الشاعر قد أسبغ على هذه المعجزات السابقة (تسبيح الحصى ، وحنين الجذع ، ومشي الأشجار) صفة الأحياء إذ حرّك سكونها ، وأنطـــق صمتها ، « فتحولنا من منظر طبيعي مألوف إلى منظر ملحمي » (٤).

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦
٢- المصدر السابق : ٢٨
٣- المصدر السابق : ١٢١
٤- ياسين الأيوبي ، آفاق الشّعر العربي في العصر المملوكـــي ، (جرّوس برس ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٥ م) : ٤٤٤-٤٤٥

ويعرض الشاعر نوعاً آخر من الكرامات الإلهية التي تميّز بها الرسول الكريم – عليه السلام – فيتحدث في إحدى مدائحه عن قصّة الصحابي قتادة بن النّعمان [١] الذي أصيبت عينه في غزوة أحد ، فيأتي إلى الرسول (ﷺ) وهي في يده ، فيردها الرسول الكريم بيده ، لتعود أحسن مما كانت ، وذلك كما في قوله : [٢]

وكذا قد ردّ عيناً سَقَطَت　　　فزكتْ عَيناً وَطَابتْ أثرا

وَغَدتْ أَحســنَ عينيه إذا　　　نظرت مِنهُ وزادَتْ نظرا

ويصوّر الشاعر الرسول (ﷺ) وهو يتفقد جنده بخيبر ، ويسأل عن علي ، فيقال إنه يشتكي رمداً في عينيه ، فيرسل إليه ، ويتفل في عينيه ، ويدعو له ، فيبرىء من وقته كأن لم يكن به وجع ، وذلك في قوله : [٣]

وكذا عليٌّ إذ دعاهُ بخيبرٍ　　　فأتى إليه وعينهُ رَمَــداءُ

فأجالَ فيها ريقهُ فَغدا لها　　　برءٌ بهِ في وقتِها وَشِفَاءُ

ويتحدث الشاعر عن جندي آخر من جنود الرسول (ﷺ) وهو عكاشة بن محصن [٤] ، الذي قاتل يوم بدر بسيفه حتى انقطع فلجأ إلى رسول الله (ﷺ) فأعطاه سيفـاً من أقوى السيوف وأحدها ، أعطاهُ عوداً من خشب ! وأخذه الصحابي واثقاً مصدقاً ، فتحول في يده سيفاً قاطعاً ، قاتل به حتى فتح الله على المسلمين : [٥]

وأعطى ببدر محجناً [٦] لعكاشة　　　فألفاه من أمضى السيوف مضاربا

١- قتادة بن النعمان الظفري شهد المشاهد كلّها مع رسول الله (ﷺ) وأصيبت عينه يوم احد فسالت حدقته ، فردها الرّسول بيده الكريمة فعادت أفضل مما كانت ت (٢٣ أو ٢٤) هـ . ابن عبدالبّر ، الاستيعاب ٣: ١٢٧٤-١٢٧٥

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٢٠-١٢١

٣- المصدر السابق : ٧٨ - ٧٩

٤- عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي (قُتل في حروب الردة) من سادات الصحابة وفضلائهم ، شهد بدراً ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وانكسر في يده سيف ، فأعطاه رسول الله (ﷺ) عرجونا أو عوداً فعاد في يده سيفاً شديد المتن ، وكان ذلك السيف يُسمي العون . انظر ابن الأثير ، أبو الحســن علي بن محمد الجزري ، أسد الغابه في معرفة الصحابه ، تحقيق محمد ابراهيم البنا وآخرون ، (دار الشعب ، لبنان ، د.ت) : ٦٧-٦٨

٥- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٦

٦- المحجن : عصا في طرفها عُقّافة .

ويفسر الشاعر كنه هذا السّيف ومادته ، وكيف أنه لم تتم صياغته على يد قين صانع للسيوف ، وإنما هو رسول الله الذي يُقلّب بقدرة ربه الأشياء كيفما أراد ، وفي ذلك يقول : (١)

وحبا عكاشةَ يومَ بدرٍ محجناً فغدا له فـــي الدَّارعينَ مَضاءُ
سَيفٌ ولم يضربهُ قينٌ صَاغَـهُ مَنْ يَصْنَعُ الأشياءَ كَيْفَ يَشاءُ

ومن الكرامات التي تحدث عنها الشاعر ، إخبار الرسول عليه السلام ببعض الأحداث قبل علم الناس بها ، مثل نعيه لصحابته الذين استشهدوا في مؤتة ، وهو في المدينة ، وذلك في قوله : (٢)

ونعى جعفراً وزيداً وعبداللـــــــــه لمَّا غدا وكـــلّ قتيــلُ

ولا يفوت الشاعر ، أن يتحدث عن شهادة الحيوانات بصدق رسالته – عليه السلام – لتضيف معجزة أخرى إلى معجزاته الكثيرة ، وذلك في قوله : (٣)

شهدَ الضَّبُ باسمِهِ وكذا الذّئـ ـبُ فبرَّت تلك الشُّهودُ العدولُ
وكذا العِيـــــرُ والبَعيرُ الذي وا فاهُ يشكو صَحَّت بِذَاكَ النقولُ

وهنا يصرّح الشاعر ، أنه يلجأ في رصده لهذه المعجزات ، إلى الكتب التي ألفت في ذلك الموضوع ، وتحدثت عن هذه المعجزات .

ويتخذ الشاعر من هذه المعجزات ، حجة لاقناع الناس بصدق دعوة الرسول (ﷺ) فإذا كانت وحوش البرّ تقرُّ بهذا الهدى الرباني ، فهل يخفى ذلك الهدى على الناس ، أصحاب العقول المفكرة ، وذلك كما يبدو في قوله : (٤)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٩
٢- المصدر السابق : ١٠٩
٣- المصدر السابق نفسه
٤- المصدر السابق : ١١٥

نطق الذئب فيه والضّبيُ والضّبْـ ـبُ وَعَـوْدٌ مـن الجمال الطّلاحِ
أفيخفى الهدى على ذي عقولٍ وهي في الوحشِ ظاهرِ الإيضاحِ

ويلاحظ مما سبق أن شهاب الدين محمود ، قد تتبع في مدائحه ، السيرة النبوية بمراحلها المختلفة ، إذ عرض لنا صوراً حية للرسول (ﷺ) منذ أن كان وحيداً يتيماً ، إلى أن بُعث للناس هادياً ونذيراً .

وكان الشاعر يستقي هذه الأحداث من ثقافته الدينية ، مضيفاً على الحادثة التاريخية الجافة عصارة عاطفته ، وذوب شاعريته ، لينقلنا من واقع تاريخي مجرد إلى عالم شعريٍّ فضائي ، تحلق فيه العناصر التاريخية بكل خفةٍ وشاعريّة .

وقد تدرَّج في مديحه النّبوي ، بعرض سيرة الرسول (ﷺ) منذ ولادته ، إذ رأى في ولادته ، نوراً اشرقت به روابي الأرض ، بل أضاء الوجود كله ، كما تعرض الشاعر للتغيرات الكونية التي حدثت لحظة الولادة ، مشيراً إلى التغير الذي سيحدث في الأرض بعد ذلك .

ورافق الشاعرُ الرسولَ في أثناء طفولته ، ومعيشته في البادية ، مصوراً مظاهر البركة التي حلّت فيما حوله من إنسان ونبات وحيوان .

وعرّج أثناء عرضه لمراحل السيرة النبوية على غار حراء ، واصفاً مراحل التبليغ الأول ، وبداية الإلهام ، وسار الشاعر مع الرسول (ﷺ) في دعوته عارضاً ذلك في قالب تصويري فني جميل .

وقد توقف الشاعر عند مظاهر الإعجاز الإلهي ، التي رافقت الرسول (ﷺ) تأييداً له وتصديقاً لدعوته ، فعرض كل ما ذكرته كُتب السيرة حول معجزاته – عليه السلام – مفصلاً ومدققاً ، ومتوقفاً عند معجزتين نبويتين خاصتين بالرسول هما : الأسراء والمعراج ، والقرآن الكريم ، وقد أكد الشاعر على خصوصية القرآن الكريم ، والحَّ على جانب الإعجاز البلاغي فيه ، أما معجزة الاسراء ، فكانت وسيلة مناسبة للشاعر ليحلِّق فيها بخياله ، ويسري فيها بروحه وجسده ، ليجعلها رحلة تكريم وتعظيم للرسول (ﷺ) من قبل رب العزة ، ولم يُغفل الشاعر المعجزات الأخرى ، التي اتخذ منها وسيلة لتحكيم العقل والمنطق ، للرجوع إلى حمى الدين .

ثالثاً : المثالية الخلقية للرّسول (ﷺ)

أكثر شعراء المديح النبوي في العصر المملوكي ، من تقويم شخصية الرسول (ﷺ) في صورة القائد المجاهد لتحقيق الإصلاح ، سلاحهُ في ذلك إيمانه العميق بالله ، وثقته بنصره وصبره ، وقوة تحمله للشدائد ، إلى جانب ما تحلّى به من فروسيه وشجاعة .

وقد ألح الشاعر شهاب الدين محمود ، كغيره من شعراء المدائح النبوية الذين سبقوه كالصرصري والبوصيري ، على تقديم الرسول (ﷺ) بصورة البطل المحارب الذي دعا قومه إلى الهداية ، متحملاً شتى صنوف الأذى والاستهزاء ، مقابلاً ذلك بالحلم والعفو ، وإذا ما اعيته الحيلة ، وأبوا إلا المضيّ في كفرهم وغيهم ، حاربهم لردعهم عن الضّلال ، وفي ذلك يقول : (٢)

فَقامَ يدعو بأمرِ اللهِ مُنفَرِداً ... وللضَّلالِ جُيوشٌ كُلُّها تَجَبُ
تضافروا وغدا الشّيطانُ يجمَعَهمْ ... فغالبوا دينَهُ لكنهم غُلِبُوا
وَقاطَعوه وآذوه بجهدهمُ ... في اللهِ وهوَ عليهمْ مُشفِقٌ حَدِبُ
يرودهم ويداريهم وَيحْلُمُ عَنْ ... جهالتهم ويراضيهم إذا غضبوا
حتى إذا ما عتوا في كفرهم وعتوا ... في الغي وارتكبوا في البغي ما ارتكبوا
رماهمو بجهادٍ فلَّ حدّهمو ... فكان حظهم من حَرْبِهِ الحربُ

وينفذ الشاعر في وصفه جهاد الرسول الكريم ، إلى تصوير المزايا القتالية التي يتصف بها ، ولا سيما الصّبر والثبات في ميادين الحرب ، وهنا يلتفت الشاعر إلى أحداث غزوة حُنَين ، ويصور ثبات الرسول فيها ، بعد أن تفرق عنه جمع المسلمين ، إذ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٢

يرمي الكفار بحفنة من حصى وتراب ، تبدد جمعهم ، فيولون مدبرين ، مفضلين العَوَر على فقدان البّصر تماماً ، وقد عرض الشاعر ذلك في قالب تصويري جميل ، فالكفر قد أقبل بجحافل يتبع بعضها بعضاً ، وهم أشداء شجعان أقوياء كالأسود ، يفر الناس من أمامهم ، ويثبت لهم رسول الله ثبات الواثق بنصر ربه ، مع قلة من الصحابة يقاتلون على حذر وترقب ، وهنا تتجلى المعجزة الإلهية ، في هذا السّلاح الذي يستخدمه الرسول لصدّ هذه الليوث الكاسرة ، التي تفر من أمامه ، بعد أن أصيبت في أعينها ، وذلك كما يبدو في قوله : [١]

وحُنَيـنٌ إذ أتى الكفـــرُ بها	زُمَــراً تتبـــعُ مِنهم زُمرا
كـلُّ ليثٍ أنشبَ البـــأسَ لَهُ	نابَ فتكٍ في الورى أو ظفرا
فتولى الناسُ عنهمْ مـــا عدا	نفراً قاموا لديـــه حَــــذَرا
ورمى الكلَّ بجمعٍ مِنْ حَصَى	وتـــرابٍ فتــولَّى مُدْبِــرا
مَــلأ الأعيـنَ منهم فاشتَهى	كلُّهُــم خَــوْفَ عماه العورا

ويعرض الشاعر صورة صراع الرسول في حنين مع أعداء الإسلام ، بعد تفرق المسلمين عنه في أكثر من قالب لفظي ، ففي مدحة نبوية أخرى ، يُصوّر جيوش الكفر في حُنين كالمطر الغزير المنهمر ، فيرميهم رسول الله (ﷺ) بقبضة من تراب ، فيتفرقون كالنعام مجفلين تاركين وراءهم حريمهم وأموالهم ، وذلك في قوله : [٢]

وكذا في حُنَين وافت جُيوشُ الـ	كـفــرِ تَترى كالعَارِض الهطَّالِ
وبروقُ السُّيــوفِ فيه كومضِ الـ	برقِ يبـــدُو في صَيِّب من نِبالِ
فرماهــم بقبضــةٍ مـــن تـــرابٍ	فغـــدوا كالنّعـــام في الإجفالِ
وتولَّـــوا مـــــن وقعها وتخلوا	عـــن حِفاظِ الحريـــمِ والأموالِ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٢٠

٢- المصدر السابق : ١٢٣

ويستغل الشّاعر فرصة حديثه عن معركة حُنين ، ليقرر أن نصر الله تحقق بثبات القائد ، حتى وإن فرّ عنه الجيش ، وذلك في قوله : [١]

كذا في حُنين جَــاءَهُ نصــــــرُ ربِّه   وقـــد فرَّ عنه الجيشُ إذ ذاكَ هاربا
رماهم بكفٍ من حصى الأرضِ أُرسَلتْ   على جَمْعهــمْ من نقمة الله حاصبا
فولوا وعاد الجيـــشُ فـي حـالِ فورِهم   يلبُّــون مِنْـــهُ ظاهـــرَ الدِّين غالبا

ويضرب الشاعر أمثلة أخرى على شجاعة الرسول (ﷺ) فهو أول المتقدمين في صفوف الجيش المسلم ، إذا دعا المنادي للجهاد : [٢]

فإذا دعــــا داعي النفيـ   ـرِ فَأَنْـتَ في أُولى الرَّعيلْ

ويقرر الشاعر أن الرسول (ﷺ) يقاتل للدين ومن أجل الدين ، ويواجه الأعداء دون رهبة أو خوف ، وذلك في قوله : [٣]

قــامَ بالدِّيـــن مُفْرَداً لايحابي   لــــو رآه حيّـــا أباهُ وأُمَّه
لَمْ يهبْ فـي الإنــذار أُمةَ كفرٍ   لا ولــم يخشَ مَنْ يسوءِ أمه

ويصوّر الشّاعر الرسول (ﷺ) بعد أن وقع عليه عبء الرّسالة ، وأتته أيات الله الدالة على وحدانيته وعظمته ، وقد تهيأ للمواجهة ، فواجه الناس في بداية أمره فرداً ، متحملاً أذاهم ، مبيّناً لهم علامات وحدانية الخالق ، الواضحة كالشّمس ، الغائبة عن عيونهم التي عُميت بصيرتها ، ويظل يُصارِعُ حتى يبين لهم الأَدلة القاطعة بصدق رسالته ، فيردهم إلى حظيرة الدّين والتّوحيد ، وذلك في قوله : [٤]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٦
٢- المصدر السابق : ٩٤
٣- المصدر السابق : ٦٧
٤- المصدر السابق : ٥٥

وأتاهُ آياتُ الكتـــابِ منيـــرةً   تضـــيءُ لتاليهـــا وَسَبْعَـــاً مَثانيا
فأظهرَ فـي التَّوحيدِ بُرهانَ ربِّـــهِ   وَقـامَ بـــه فَـرْداً وَلَمْ يَكُ وَانيــا
وجاءَ بآيـــاتٍ رَأى نُورَها الوَرى   كما لاحَ قرنُ الشَّمسِ في الأفقِ ضَاحيا
سوى مَن أَضل اللهُ عَنْ سنن الهُدى   فقابـــل جدَّ الحـــقِّ بالكفـــر هاديا
فادحضَ بالبرهـانِ مَنْ كَانَ جَامِحاً   وأصبـــحَ مَـــنْ أَمْسَى عَدواً مصافيا

ويرى الشّاعر في هذا الانفراد دليلاً على التميّز ، فمجابهة قوى الشّرك والطغيان بصورة انفرادية دلالة على القوة ، والثقة بحتمية تحقيق النّصر ، وذلك في قوله : [١]

وجاهد فيـــه الخلقَ حق جهادِهِ   وباعـــدَ فـــي قُربى رِضاهُ الأقاربا
وقامَ بأمـــرِ اللهِ في النّاسِ وَحْدَهُ   وَمِن قبل أن يَلقى على ذاكَ صَاحِبًا
وواجههـــمْ فيه بما يكرهونَـــهُ   وعـادا هُمو فَـرَداً ولـمْ يَكُ هَائِبا

ويؤكـــد الشاعر على تحلي الرّسول (ﷺ) بعدد من الصفات فهو : أشرف الخلق ، ومبدأ الفضل ، وخير مخلوق ، وأرأف مرسل ، وذلك في قوله : [٢]
أشـــرفُ العالمينَ طُراً وخيـرُ الـ   ـخلقِ جَمعاً مَـا بينَ دَانٍ وَقاصِ
خيرُ مَـــنْ نَحـوه ذميلُ المطايــا   مُستطـابُ السُّرى ووخدِ القلاصِ
أينَ أنتم عن أشرفِ الخلقِ مِنْ أعـ   ـلــى البَرايـــا وأظهـرِ الأعياصِ

ويضيف الشاعر في قصيدة أخرى قوله : [٣]
وحبي أزكى العالمينَ وخيرهـــم   وأرأفَهـــمْ بالمذنبيــــنَ وَأرفقا
وأشرفُ أهلِ الأرضِ أصلاً ومحتِداً   وَفرعَاً واسمَاهُم مقامـــا وأسمَقا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٥
٢- المصدر السابق : ١٠٣-١٠٤
٣- المصدر السابق : ٥١

ويقرر الشاعر هذه الخيرية على البشر جميعهم ، من بدو وحضر ، ومن حُفاة ومنتعلين ، بمعنى الشمولية البشرية ، وجميع من في الكون : [(١)]

خيرُ البرية من حافٍ ومنتعلٍ　　　وأشرفُ الخلقِ مِنْ بَدوٍ وَمِنْ حَضر

وَيُفَصِّل الشاعر بهذا المعنى بشكل قاطع ، في مدحة نبوية أخرى ، فيقرر خيرة الرسول على جميع الخلائق : [(٢)]

تخيَّرهـــــا داراً [بأمر من الله][(٣)]　　　رَسولٌ على كلّ الخلائق مُخْتار

ويقدّم الشاعر شهابُ الدين محمود الرسول (ﷺ) مثلاً أعلى في الأخلاق ، فهـو معدن الفضائل كلها ، المعلم الناصح ، والمربي الفاضل ، والداعي إلى الله على بصيرة : [(٤)]

ويا مَنْ إذا ما أمَّهُ الوفْــدُ بالحيا　　　بأخلاقِـــهِ فـــي جُودِهِ يتخلَّقُ

لبعض الذي أوتيتَ يا سَيّدَ الورى　　　من الفَضْلِ في كلّ الأنامِ مُفرّقُ

ويتحدث الشاعـر عن زُهد النّبي (ﷺ) ، الذي كان بإمكانه أن يعيش عيشة الملوك ، لكنه عاش عيشه الفقراء ، زهداً في هذه العاجلة الفانية ، ورغبة فيما عند الله تعالى ، وفي ذلك يقول : [(٥)]

ومن عُرضت كنوزُ الأرضِ طُراً　　　عليه فلم يُسوّ بها قُلامــــةْ [(٦)]

ومن أعطاه مرسلـــهُ اعتنـــاءً　　　خصائص رتبةٍ أعلت مقامــهْ

فقد آثار – عليه السلام – أن يلقى الله مبرأً ، خالياً من كل مَتاع الدنيا : [(٧)]

أبان كنوزَ الأرض مرسلة لهُ　　　فآثر أن يلقاهُ مِنهنّ سَاغبا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٢
٢- المصدر السابق : ٢١
٣- في الديوان : بأمر الإله ، والصواب ما أثبتناه
٤- المصدر السابق : ٣٥
٥- المصدر السابق : ٤٠
٦- قُلامة : طرف ظفره .
٧- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٥

وتتجلى المثالية الخُلقية عند الرسول (ﷺ) كما يراها الشّاعر ، في كونه – عليه السلام – أوفى الخلق بالعهود والمواثيق ، بُعث بالرحمة الإلهية إلى سائر البشر ، فأزال الحزن والغمة عن القلوب ، وأصبح محط الرجاء للمستضعفين المقهورين ، وذلك في قوله : [١]

أشرفُ العالمينَ طُراً وأوفـا   هُـم بعهدٍ وأوثقُ الخَلقِ ذمةْ

خاتَـمُ المرسلينَ أرسَلَهُ اللـ   ـهُ إلـــى سَائِرِ البَريةِ رَحمةْ

كَمْ جَلا شَرعَهُ ونورُ هُداه   عَـنْ قُلوبِ الأَنامِ غَمّاً وَغُمّةْ

وَتولَّـتْ بنورِ أيامهِ الغُـــرِ   رُ ليالـــي الضّلالةِ المدلهمةْ

هـو للمرتجينَ غيثٌ ولـلا   جينَ غَوثٌ وللأراملِ عِصمةْ

وتتوجه انظار الشاعر إلى الرسول (ﷺ) في الكرم والسماح : [٢]

وأنادي يا رحمةَ اللهِ في الخلـ   ـقِ وَيـــا كَعبة النَّدا والسَّماحِ

ويعود الشاعر إلى هذا المعنى في قصيدة أخرى بقوله : [٣]

خَصَّهُ اللهُ بالكمالِ فاندى الـ   خَلـــقَ طُراً يداً وأقصى نديّا

ويلح الشاعر على جانب الرأفة والرفق ، اللذين تميز بهما الرسول – عليه السلام – وذلك في قوله : [٤]

حريصٌ على رشدِ الورى شَاهِدٌ لَهم   رؤوفٌ رحيمٌ ليسَ ينطقُ عَنْ هَوى

شفيقٌ بأهلِ الرّشْـدِ يأخذُ رشـــدَه   بحجـرةِ مَن في نَـارِ بَاطِله هَوى

رفيقٌ رقيقُ القلـبِ إن خائفٌ لجـا   إلـى ظلِّـــهِ آوى وإن سَائِلٌ أَوى

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٦

٢- المصدر السابق : ١١٤

٣- المصدر السابق : ٥٨

٤- المصدر السابق : ٦٥

رابعاً : مدح الصَّحابة

من العناصر التي تقوم عليها بعض المدح النّبوية التي قالها شهاب الدين محمود ، مدح صحابة رسول الله – رضي الله عنهم – باعتبارهم غراس دعوته ، وثمرة جهوده ، وحاملي راية الإسلام من بعده – عليه السلام – وقد عرض الشاعر لهم صوراً عدّة تضفي عليهم المثالية الدينية والخُلُقِيَّة والنّفسية ، وقد تفاعلت هذه المُثُل في نفوسهم على نحو مُدهش ، فصاروا مثالاً للرحمة والبأس ، والزُهد والشجاعة ، والتقوى والإقدام ، وهو لا يعرض هذه القيم والفضائل مجرّدة ، وإنما يقدمها في سياق من الأحداث التاريخية والوقائع المشهورة ، كما في الأبيات التالية التي يصور فيها شجاعة صحابة الرســـول الكريم ، وتفرغهم للجهاد في سبيل الله ، وانصرافهم عن ملاذ الدّنيا وشهواتها ، مُشيداً بيلائهم في غزوة الأحزاب : (١)

فَحَــوُوا بهِ فَخْــرَ الجها　　　دِ وَخَــابَ ضِدَهُم الفخــورْ
ســلْ عنهـم الأحزابَ ما　　　لقيت قُريظــةُ والنَّضيــرْ
وإذا احتــوت منهــم عقا　　　ئِلهُـــم سيوفُهم الذُكـــوُرْ
فكأنهـــم كانـــوا بُغـــا　　　ثَ الطَّيـر والصَّحب الصُّقورْ
ولكم لَهــمْ مِــنْ مَوقِف　　　في الحــربِ زَادَ بهِ الظُّهورْ
وعلا بـه الدِّيــنُ الحنيـ　　　فُ كأنَّه الشّعرى العبــورْ

ويلح الشاعر في القصيدة نفسها ، على تصوير موقف الصحابة من الدعوة المحمدية ، وبذلهم أنفسهم في سبيلها ، وإيثارهم سبل التقى والرشاد ، غير آبهين بما يواجهونه من أذى الكفر ، وذلك في قوله : (٢)

نصروهُ واتَّبعـــوا هــدا　　　هُ والعـــدا عَنـه نفورْ
هم أهلُ ذَاكَ وكُلهُـــم　　　بعلــوّ رتبتـــهِ جَديرْ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨١-٨٢
٢- المصدر السابق : ٨٠-٨١

قومٌ إذا حضرتهم الأعمـ ـالُ سرَّهـم الحضُورْ
عادوا عداهُ بأسرهـم فيه وهـم عَددٌ يسيـرْ
بذلوا الوجوهَ فكرَّمَـتْ وَتبلَّجَـت مِنها الثغـورْ
ونحورِهـم هَـدفُ السّها م فحبَّـذا تلِكَ النُّحورْ

وتحدث الشاعر في مدائحه النبوية عما ينتظر الصحابة من ثواب ومغفرة فهم – كما أخبر عنهم الرَّسـول – يقطعون السراط بسرعة البرق ، واثقي الخطا ، هادئي النّفس ، مُطمئني البال ، كما في قوله : [١]

يأتي مـع الأصحابِ إذْ بُعِثُـوا وَبُعثِرَت القُبورْ
لا فِيهُـمُ وانٍ يُـرى وَقتَ العُبـورِ وَلا عُثـورْ
بل كالبـرُوقِ إذا انثنـى عن وَمْضِها الطَّرفُ الحسيرْ

ويضرب الشَّاعر لشجاعة الصحابة وجهادهم مثلاً من غزوة بدر ، ويعرض صورتهم وقد واجهوا أعداء الله ، دون أن تأخذهم رهبة أو خوف ، فأيدهم الله بملائكته ، ورزقهم النَّصر ، وذلك في قوله : [٢]

سَلْ يَـوْمَ بدرٍ عَنْهـم وَعَـن العِدَا فَهوَ الخَبيرْ
إذ اقبلـتْ عليا قريشٍ وذلِـكَ الجَـمُّ الغَفيرْ
دَلفوا إليـهِ يَغرُّهـم للجهـلِ باللهِ الغَرورْ
ويرونَهم نَـزْراً يصو لُ عليه جمعُهـم الكَبيرْ
فاستقبلوهـم بالسعو فِ وَلَم يَكُنْ فِيهم فتورْ
خطبوا الجِنانَ فاذعَنت إذ مِنْ نفوسِهم المهـورْ
وتزخرفَـتْ للقائِهـم منهـا الأُسـرةُ والقُصورْ
فأمدَهَم فـي يومهـم بالنَّصـر ربُّهَم القديـرْ
وملائِـكَ تمت بهـا في الحربِ بينهم الأمورْ

١- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٠
٢- المصدر السابق : ٨١

ويقدِّم الشاعر صورة أُخرى لصحابة رسول الله ، وهي صورة أهل التقوى والصّلاح ، وتميزهم على غيرهم بقوة العقيدة ، وذلك كما في قوله مصلياً على الرسول وصحابته : [١]

صَلّى عليـــه اللهُ ما أرثَـــى بموضعه ثبير
وعلى صحابته الألى ما في التُّقى لهم نظير
ما ناحَ قُمري وحنّـــ نَت ناقةٌ ورغـا بعيـــر

وهذا السمّو في التقوى ، عطَّل الروابط الدنيوية في نفوسهم ، إذا تعارضت مع العقيدة ، حتى لو كانت بين الابن وأبيه ، كما في قوله : [٢]

وحوى السَّبق رجالٌ أصبحوا للأُلــى جاءوا حُجولا غُررا
قاطعوا الآباء ديناً فاستـــوى فيــه من واصلهم أو هجرا

وأصحاب رسول الله (ﷺ) قد نسجوا من خيوط الدِّين ، سكينة ووقاراً ، والبسوهـــا قلوبهم ، مما أعطاهم تواضعاً يجعل الناظر إليهم لا يفرق بين عبدهم وسيدهم ، وغنيهم وفقيرهم ، ويستعير الشاعر في رسم هذه الصّورة ، مشهداً من مشاهد الحجيج أثناء طوافهم حول الكعبة ، بلباس واحد ، وهدف واحد ، ومقياس تفاضلهم هو اخلاصهم النّيه لله ، وفي ذلك يقول : [٣]

وَحجَّتُـهُ أقوامٌ أقاموا بشرعـــــه ونـــــور هُداه مالَهُ مِنْ مَناسك
يلبون شُعْثَـا مُحرميـــــنَ كأنما اتوا من قُبورٍ باللوى فالدَّكادِكِ [٤]
عليهمْ شعارٌ مِـنْ سَكينةِ دينهمْ تعمهـــمُ مـا بين لاهٍ وناسـك
كأنّهـم في البعثِ لا فرق فيهم يُرى بين مملـــوكٍ هُناك ومالـك
ولا بين بادٍ جاء يسعى وعاكف ولا بين أرباب الغنى والصّعالك
تساووا به في قصدهم وتفاضلوا بإخلاصهم لا بالغنـى والممالك

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٢
٢- المصدر السابق : ١١٩
٣- المصدر السابق : ٧٣
٤- الدّكداك من الرّملِ ، ما تكبّس واستوى .

ويصوّر الشاعر قوة العامل الإيماني في نفوس هؤلاء الصحابة ، وعظمة الشعور المشترك بينهم وبين النبي (ﷺ) ، في نُبل الغاية التي يسعون إليها :[١]

نصروا النّبي وآزروه وقاطعوا   فيــه العِدا وتمسكوا بجنابهِ
لبّوهُ طوعاً إذ دَعاهم للهُدى   وهموُ لدى ظُفْرِ العدو ونابهِ

ويتحدث الشّاعر عن غفران الله ذنوبهم ، مشيراً إلى حديث رسول الله (ﷺ) عندمـــا قـــال : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [٢]. تلك هي الرواية التاريخية ، لكن الشّاعر أضاف عليها من سلاسة التعبير ما جعلها تفيض بالشّاعرية ، وذلك في قوله : [٣]

وقيلَ فيهم وَهُم أهلٌ لكل ثَنـــا   يُقالُ إذ صَبروا في اللهِ واحتَسَبوا
ما شئتموا أهلَ بَدْرٍ فاصنَعوا فلكم   منّا الرِّضَى ولمن عَادَاكُم الغَضَبُ

والشاعر معنيّ بعرض الصور المتقابلة ، فهو يوضح أن من أطاع الرسول (ﷺ) من صحابته ، فقد استحق شهادة الرضوان من الله - عز وجل - ، ومن عصاه فهو يهوي في النّار ، لذا فقد شملت عناية الله سبحانه وتعالى صحابة رسوله ، كصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ، وبلال الحبشي ، واستحق أبو لهب قريب رسول الله (ﷺ) عقاب الله ، جزاء تكذيبه وعناده ، وفي ذلك يقول الشاعر : [٤]

فغـــدا مَـــنْ أطاعَهُ وَأَتـــاهُ   رَاضِيَـــاً عِنْدَ ربّه مَرْضِيّـــا
وهوَى من عَصَاهُ في دَرَكِ النّا   رِ وكانوا بهَـــا أحقّ صِليّـــا
ما أفادت قُربى أبي لهبٍ شيـ   ـئـاً وتبت يداه عَبْداً عَصيّـــا
وأفادت عنايـةُ الخالـــقِ الرو   ميّ والفارســـيّ والحبشِيـــا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٢
٢- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، السيرة النبوية ، تحقيق جمال بدران ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٤م) : ٢٨٨
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٣
٤- المصدر السابق : ٥٨

ويقرن الشاعر صلاته على الرسول (ﷺ) في عدد من خواتيم مدائحه النبوية بالصلاة على صحابته - رضوان الله عليهم - ويخص بالذكر أحياناً عدداً منهم ممن كـــان لهم السّبق في تصديق الرسول (ﷺ) ، وابلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن دين الله ، وذلك في قوله : [1]

صَلَّى عليــكَ اللهُ مــا هبّت صَبا	وارفـــضَّ سِلــكُ غمامــةٍ مَحلولا
وعلى أبي بكــرٍ خليفتُـــكَ الـذي	كـــانَ الخليـــلَ إن اتخذتَ خَليلا
وكذا على عمــرٍ الذي في نُطقــه	قــال الصــوابَ ووافــقَ التنزيلا
وعلى ابن عفّـــان الشهيد مُرتّل الـ	قــرآن فـــــي خلواتِــه ترتيلا
وعلى ابن عمك هازمُ الأحزاب ليـ	ـثُ الغـــابِ أقربهم لدَيــكَ قبيلا
وكذا على عميك وابنى من غدت	فـــي نُسكها مثل البتـــولِ بَتولا
وبقية الصَّحـــبِ الكرامِ ومن حوى	هـــذا المقام ومنْ أجـــدَّ رحيلا

كما تصدى الشّاعر شهاب الدين محمود في مدائحه النّبوية ، لأولئك الغلاة الذين يسبون صحابة رسول الله ، إذ شاعت في العصر المملوكي ، ظاهرة الطعن على الصحابة وسبهم ، من قبل بعض المتشيعين ، فتصدى لهم أصحاب السنة من علماء الدين والشعراء ، فهذا تاج الدين السُّبكي يحضُّ أهل عصره على ترك التعصب ، والتّصدي لمن يتعرض لصحابه رسول الله (ﷺ) فيقول : « ويحكم ذروا التعصب ودعوا عنكم هذه الأهوية ، ودافعوا عن دين الإسلام ، وشمروا عن ساق الاجتهاد في حسم مادة من يسبّ الشيخين أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - ويقذف أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - التي تنزل القرآن ببراءتها ، وغضب الربّ تعالى لها ، حتى كادت السماءُ تقع على الأرض ، ومن يطعن في القرآن وصفات الرحمن ؛ فالجهاد في هؤلاء واجب ، فهلا شغلتهم انفسكم به » [2] .

١- المصدر السابق : ١٥

٢- السُّبكي ، مُعيد النعم : ٧٥

ويتحدث الشاعر شهاب الدين محمود عن هؤلاء الغُلاة مقيماً عليهم الحجة والدليل ، ومعدداً مآثر الصحابة وفضائلهم ، فهـم أول من آمن بالرسول (ﷺ) وصدَّقه ، وحارب معـه اعداء الله ، ويتخذ من الاستفهام الاستنكاري ، وسيلة لتفريع أولئك الغلاة ، وفي ذلك يقول : [١]

يا مُظهراً حُـبَّ الرسول وجهلـه	يغريه مـن سفهٍ ببعـض صحابه
رُمْتَ الهُـدى فضللت فيـه لأنَّه	ما جئـت حُبَّ محمدٍ من بابه
اتحبهُ وتعيـــب قومـــــاً آمنوا	بسنا هُداهُ حال كشف حجابهِ
كذبتكَ نفسك ليس فضلٌ كاملٌ	فـــي دينه إلا وهم أولى بهِ
أتذم أول مؤمـــنٍ ومصــــدقٍ	مِـــنْ قومــــهِ بإلهــهِ وكتابه
مهلاً فما بَدرُ الوجــود وقد سما	في الأفــقِ منتقصاً بنبح كلابهِ
أيكون أولَ مؤمنٍ سمــع الهُدى	فأجابــهُ مُستوجبــاً لعقابـــهِ
أفما يردّك عن ضلالـــكَ والهوى	عقــلٌ فـإنَّ الدّين ما يعنى بـــهِ

ويستمر الشاعر في إقامة الحجة على من يتعرض لسبّ صحابة رسول الله ، مُقرراً أن الله أثنـى عليهم من فوق سبعِ سماوات ، فكيف تسمع ثناء الله عليهم وتسبهم ، وذلك في قوله : [٢]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠١-١٠٢
٢- المصدر السابق : ١٠٢

أثنى الإلهُ عليهـم في قولِهِ ــــ والسّابقون فلم تُصخْ لخطابِهِ
تباً لمن سَمِعَ الثّناءَ عليهمو ــــ من ربّهـم ورماهُمو بسبابِهِ

وصحابة رسول الله (ﷺ) قد أقاموا الدّين تحت رماحهم ، حتى استحكمت قوى الإسلام ، وترسخت جذوره في الأرض ، وفي ذلك يقول الشاعر : [١]

ورسا عمودُ الدينِ تحـت رماحهـم ــــ واستحكمـت بهمو قُوى أسبابِهِ
أصبحت تلبسُ هجر قولك كلّ من ــــ رفل الهُـدى والدّين في جلبابِهِ

ويحذر الشاعر في النّهاية من يتعرض لصحابة رسول الله من عقاب الله وشديد سطوته ، وذلك في يقوله : [٢]

فدع الضـلالَ وطرقـه وارجع إلى ــــ سُنن الهدى وتوخّ صَوْبَ صوابِهِ
واحذر عقـاب اللهِ واترُك مرتقى ــــ كَم ذل مثلك في صعودِ عقابِهِ

١- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٢
٢- المصدر السابق نفسه

* الفصل الثالث

الدِّراسة الفنيَّة

- البناءُ الهيكليّ لقصيدة المديح النَّبويّ
- الأُسلوب
- الصُّورة الشِّعريَّة

* البناء الهيكلي لقصيدة المديح النَّبويّ .

أولاً : الشَّكل التقليديّ

ثانياً : الشَّكل غير التقليدي

ثالثاً : المقطوعات

* البناء الهيكلي لقصيدة المديح النبويّ :

أولاً : الشكل التقليدي

يرى أحد الباحثين أن القصيدة العربية « بناء يتركب من العناصر والقوى التي تتظاهر على نحو يتم فيه تكامل المعاني الشعرية المتبلورة في حقائق لغوية ، فَالعالَمُ الذي تتألف منه القصيدة عالم متجانس تتلاقى أفكاره وتتعاقب في حركة مطردة » (١)

وتقوم القصيدة العربيــة ، على مقدمة يدخل فيها حُسن المطلع وبراعة الاستهلال ، حتى الوصول إلى التخلص إلى الموضوع الرئيس ، ثم خاتمة القصبدة ، والعنصر الأساسي في مقدمة القصيدة العربية ، هو الوقوف على الأطلال ، فقد ذكر ابن قتيبة « وسمعتُ بعض أهل الأدب يذكر أن مُقصّد القصيد ، إنما ابتدأ بذكر الديار ، والدّمن والآثار ، فبكى وشكى ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... » .(٢)

والتفت النقاد المسلمون إلى القيمة النّفسيّة لاستهلال القصائد بالغزل لما في ذلك « من عطف القلوب ، واستدعاء القبول ، بحسب ما في الطباع من حبّ الغزل ، والميل إلى اللّهو والنّساء ، وأن ذلك استدراج لما بعده » (٣).

واهتم النّقاد العربُ بمطلع القصيدة ، وانصبت آراؤهم في المطالع على أن تكون العبارات فيها جزلة واضحة الدلالة على المعنى ، فقد ذهب ابن حجّة الحموي إلى أنّ براعة المطلع : « طلوع أهلة المعاني واضحة في استهلالها ، وأن لا يتجافى بجنوب

١- يوسف بكار ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، (شركة الفجر العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٢م) : ٢٣ .

٢- ابن قتيبة ، عبدالله بن مُسلم ، الشّعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، (دار المعارف ، القاهرة د.ت) : ٧٤

٣- ابن رشيق ، الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ، تحقيق د. محمد قرقزان ، (دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م) ١:٣٩٨

الألفاظ عن مضاجع الرقة ، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصاً عند السّماع ، وطرق السهولة متكلفة لها بالسّلامة من تجشم الحزن ، ومطلعها مع اجتناب الحشو ليس له تعلق بما بعده ، وشرطوا أن يجتهد النّاظم في تناسب قسميه بحيث لا يكون شطره الأول أجنبياً من شطره الثاني » [١] ؛ ذلك أن « تحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة ، إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها ، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة ، تزيد النفس بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً لتلقي ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك ، وربما غطت بحسنها على كثير من التخون الواقع بعدها ، إذا لم يتنافر الحُسن فيما وليها » [٢] .

وركّز النقادُ العرب على براعة الاستهلال ، وهو كما عرّفه الشّاعِر شهاب الدين محمود « أن يأتي النّاظم أو النّاثر في ابتداء كلامه ببيّنة أو قرينة ، تدل على مراده في القصيدة أو الرّسالة أو معظم مراده » [٣] .

كما ربط أحد الباحثين المحدثين مطلع القصيدة بنفسية الشّاعِر ، فهو إن اختار مطلعاً معيناً – وإن كان تقليدياً – فإنه يُعبر بطريقة ما على ما يدور بنفسه من مشاعر وانفعالات ، إذ لا يعقل أن ينفصل المطلع عن مشاعِره كل الانفِصال ، وإنما نجد مشاعره منبثة عادة من خلال هذا التمهيد ، قصد أو لم يقصد [٤] . وإن كان ابن الأثير قد أشار إلى هذا الأمر بصورة موجزة عندما قرّر أن من براعة الاستهلال « أن يبتدىء الشّاعِر بما يدل على غرضه » [٥] .

١- ابن حجة ، ابو بكر محمود بن علي الحمـوي ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، شرح عصام شعيتو ، (دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩١م) ١٩:١

٢- القرطاجني ، ابو الحسن حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، (دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١م) : ٣٠٩

٣- الحلبي ، شهاب الدين محمود الحلبي ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، (دار الرّشيد للنّشر ، العراق ، ١٩٨٠م) : ٢٥٠-٢٥١

٤- عبدالحليم حفنـي ، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م) : ٧٣

٥- ابن الأثير ، ابو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد ، كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب ، تحقيق نوري حمودي القيسي وآخرون ، (جامعة الموصل ، بغداد ، ١٩٨٠م) : ٥٣

وبعد أن ينتهي الشّاعِر من مقدمته فلا بُد له من طريقة حسنة يتخلص فيها إلى الموضوع الرئيس ، إذ يذهب الحاتمي إلى أن « من حُكم النّسيب الذي يفتتح به الشّاعِر كلامه ؛ أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم متصلاً به غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها كمثل خلق الإنسان في اتصال بعض اعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحدٌ عن الآخر ، وباينهُ في صحة التركيب ، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفي معالم جماله » [١] .

فهو ينبه إلى ضرورة أن تكون المقدمة الغزلية مرتبطة بموضوع القصيدة ، بل ممزوجة بما بعدها من كلام ، وهو بذلك يؤكد على حسن الربط بين المقدمة وموضوع القصيدة ، كما أشار ابن الأثير إلى أن حُسن التخلص هو : « أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض ، من غير أن يقطع كلامه ؛ ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامة كأنما أفرغ افراغاً ، وذلك مما يدل على حذق الشاعِر ، وقوة تصرفه » [٢] .

ويؤكد ابن حجّة أن يتم الانتقال من المقدمة إلى الموضوع الرئيس « بتخلّص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً ، دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني ، لشـــدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما ، حتى كأنما أفرغا في قالب واحد » [٣] . كمـــا فضّل ابن حجة أن يتم التخلص في بيت واحد ، « يثب الشّاعِر من شطره الأول إلى الثّاني ، وثبة تدل على رشاقتهِ ، وتمكنه في هذا الفن » [٤] .

١- ابن رشيق ، العمدة ٢ : ٧٥٣-٧٥٤

٢- ابن الأثير ، ضياء الدين نصرالله بن محمد ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق د. أحمد الحوفي ، و د. بدوي طبانه ، (دار الرياض ، الرياض ، ط٢ ، ١٩٨٣م) ٣:١٢١

٣- ابن حجة ، خزانة الأدب ١:٣٢٩

٤- المصدر السّابق ١:٣٣٠

كما اهتم النقاد العرب بخاتمة القصيدة ، فذهب ابن رشيق إلى أن الانتهـــاء هو « قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الاسماع ، وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشّعر مفتاحاً له ، وجب أن يكون آخره قفلاً عليه » .[١]

وأكد حازم القرطاجني على أن يكون الاختتام « بمعان سارة فيما قُصد به التهاني والمديح ، وبمعانٍ مواسية فيما قُصد به التعازي والرثاء ، وكذلك يكون الاختتام في كل غرض بما يناسبه ، وينبغي أن يكون اللفظ مستعذباً ، والتأليف جزلاً متناسباً ، فإن النفس عند منقطع الكـــلام تكون متفرغة لتفقد ما وقع فيه ، غير مشغولة باستئناف شيء آخر » [٢] .

وإلى هذا المعنى أشار ابن الأثير بقوله : « من المستحب أن تكون خاتمة القصيدة حلوة تؤذن النفس بانقضائها لا أن تكون كالبتراء » [٣] .

هذا هو رأي النقاد العرب في هيكل القصيدة العربية ، ولكن ما هو موقف الشّاعر شهاب الدّين محمود الحلبي من ذلك ؟ لقد سلك الحلبيّ في هذا الشّكل منهجاً لا يكاد يحيد عنه في بناء قصائده ، ويقوم هذا الشّكل على العناصر التي قرّرها النقاد العرب القدماء ، إذ تتكون قصيدة المديح النّبوي عنده في الأعم الأغلب من مُقدّمة في النّسيب ، ووصف الرحلة والراحلة ، واستيقاف الرفاق الراحلين ومخاطبتهم ، ثم التّخلص إلى الموضوع الرئيس بشكل حسن لطيف ، ثم الوصول إلى خاتمة القصيدة ، وقد رأيتُ من المناسب أن أمثل على هذا الأمر عند الشّاعِر بنماذج كاملة من مدائحه النّبوية ، لنرى مدى التزام الشّاعِر بتلك العناصر ، من ذلك قصيدته التي أنشأها على

١- ابن رشيق ، العمدة ١:٤١٥
٢- حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء : ٢٨٥
٣- ابن الأثير ، كفاية الطالب : ٥٣

البحر الطويل وقافية القاف ، وبلغت أبياتها (٧١) بيتاً ، قالها عند توجه الرّكب الشامي نحو الحمى النّبوي سنة سبعين وستمائة هجرية ، وهي من أول مدائحه النّبوية ؛ فقد بدأها بمقدمة تقليدية ، وقف فيها واستوقف ، وخاطب الرّفاق الراحلين نحو ديار المحبوب ، وحمّلهم سلامه واشواقه ، وذلك في أول خمسة عشر بيتاً من أبياتها ، كما في قوله : (١)

لَعلّ حُداةَ العِيسِ أنْ يترَفّقُوا ... بَقلْب دَعَاه فاستَجاب التّشوقُ

فَقَدْ سارَ لا يلوي على الدّار بُعدهُ ... لئَلاَ يَراها وَهيَ بالوَجْدِ تُحرَقُ

أَأَحبّابَنا النّائيِن دَعْوةَ مُبْعَدٍ ... يَرَى الباب عنْهُ دُونكم وَهو مُغلقُ

غداً تَلْتقِي أحشَاؤه وَزَفِيرُه ... إذا ضمّه منكُم وَمْنهُ التّفرّقُ

وَيُصلى هجيرُ الهجرِ إنْ غَابَ عنْكمْ ... وَغُصْنُ أمانِيهِ بكُم لَيْسَ يُوْرِقُ

ويخْلوُ وقدْ فُزْتُم وخاب بوجْده ... كئيباً سميراهُ الأسا والتّحرقُ

وكمْ خطّ سطر العزم فرْط حنينهُ ... فظلت يدُ الحرمان تمحُو وتمحقُ

وكمْ حام حوْل الورد شوقاً ونالهُ ... سواه فأمسى وهوُ بالدّمعِ يُشرقُ

وكمْ ظن أنْ يسعى رفيقاً إلى الحمى ... ليحْظى فأضْحى سعْيَه وهوُ مُخْفِقُ

خَليليّ مِيلاَ بي إلى الرّكْب إنّني ... إليْهِم وَما غَابُوا عن العَينِ شيّقُ

لعَلهُم إنْ يُسعدُوني بوقْفةٍ ... أبثُهُم مَابي من الشّوقِ لاشقُوا

وأوُدعُهم شكْوى تَرقُّ لشجْوها ... وَرِقّتها صُمُّ الجبّالِ وتُفلقُ

ثم يتحدث الشّاعر عن رحيل الرفاق ، وخوضهم الصحراء على النّوق ، عارضاً إياهم في صورة جميلة ، فقد كانوا على ظهور إبلهم التي أنحلها طول الطريق ، فبدت رقابها كوتر القوس ، وَرُكّابها سِهامُ تُرمى نحو هدفٍ واحد هو الوصول للحمى النّبوي : (٢)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٣

٢- المصدر السابق نفسه

عساهُم إذا خاضُوا مـــن البرجُةَ سفائنُهـــا شُـــمّ المناكب أينُقُ
وأَضْحُوا على مثْـــل الحنايا كأنّهمُ سِهـــامٌ بها الأغْراض تُرْمى وتُرشَقُ
وأسْفَـــر عـــنْ ليْلِ المفازة بالمُنى لهـــم مَوهناً صُبـــحُ المفازة يُشرقُ
وأوْمَضَ بَرْقُ النّجح مْنِ أبْرق الحِمى فلاقـا هُموُ مِنْهُ بشيـــرٌ مُخلّقُ
يَلُوحُ لَهمُ وَهْناً فتهفـــوُ قُلُوبُهـــم إليـــهِ ويخْفى بالهضـــاب فتخفقُ

والشّاعر في مقدمته هذه يجري على عادة الشّعراء القدماء الذين وصفوا طريق الرّحلة ، وذكروا ما تجشموه من مصاعب للوصول إلى الممدوح ، حتى يُجزل لهم العطاء ، وشاعرنا في وصفه للرّحلة والراحلة ، كان يغرفُ من الواقع الشخصي المعيش ففريضة الحجّ ، هي رحلة إلى الأماكن المقدسة التي يقيم فيها الممدوح ، وهو رسول الله (ﷺ) ويذكر الشّاعر التعب والمشاق التي واجهها ، حتى يجزل له الممدوح العطاء ، وهو طلب الثواب والمغفرة من الله سبحانه وتعالى .

وبعد هذه المقدمة يُخَيّل لنا أنّ الشّاعر تخلص إلى الموضوع الرئيس بقوله :[١]

إلى أنْ بدا مَعْنى النّبوة واغْتدى لأبْصَارِهِمُ نُورُ الهُدى يتألّـــقُ

ولكننا نفاجأ في البيت الذي يليه ، أن الشّاعر استأنف الحديث عن ركب الحجيج الذين هان عليهم التّعب لمّا التقوا بأماكن الفيض النّبوي ، وذلك في قوله : [٢]

فأحمـــد صُبحُ الفوز ليل سُراهم وهـــانَ عليهم ما لقُوهُ بمن لقُوا
وأفحمهـــمُ ذاك المقامُ فما لهـــمُ سوى الدّمعُ في تلك المشاهدِ منْطقُ
هنالك أعباء الذنوبِ عن الورى تُحـــطُ ومأســـورُ الجَرائم يُطلق

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٣
٢- المصدر السابق : ٣٣-٣٤

ثم يُكلف الشّاعر رفاقه تبليغ تحياته وأشواقه إلى الرّسول (ﷺ) مبيناً الأسباب التي تمنعه من الزيارة ، وذلك في اثني عشر بيتاً ، ومن ذلك قوله :[١]

فيا حاملاً نجواي بالله قِفْ به ... إلى أن تُؤديها وأنت موفقُ

ففي طيّها نشرُ التحية كامن ... متى نُشرتْ أضحى به الكون يعبقُ

وقل يا رسول الله خلّفت مُفْرداً ... بِحُبّك يطْفُو في الدمُوع ويغْرق

يحاول أن ينْحُو إليك وبينهُ ... وبينك سُورٌ منْ خطاياهُ مُحيقُ

وأهدي على بعدٍ ضراعة بائسٍ ... يلُوذُ بذيْلِ الجود مْنكَ ويعلقُ

وبعد هذه المقدمة الطويلة التي استغرقت (٣٨) بيتاً ، أي أكثر من نصف القصيدة ، يدخل الشّاعر في مدح الرّسول (ﷺ) ويتجرأ ويخاطبه مباشرة ، وليس من وراء حجاب (عن طريق مخاطبة الرفاق) ، ومن ذلك قوله متخلصاً :[٢]

فأنت شفيعُ المُذْنبين وقد عدتْ ... جهنّمُ تَرْمي المُعْتَدين وترْمقُ

ولا أحدٌ حاشاك يا سيد الورى ... هنالك إلا وَهوُ حيرانُ مُطْرِقُ

ولا جاهَ في ذاك المقامُ لشافعٍ ... سواك به للخلْق طُراً تعلّقُ

ويمضي الشّاعر في هذا المديح الذي استغرق (٣١) بيتاً متدرجاً نحو الخاتمة التقليدية للقصيدة ، وهي ذكر حاجته من الممدوح ، وهي في هذه القصيدة ، طلب النّوال النّفسي ، بشفاعة النبي له من الذنوب ، مقفلاً قصيدته بما تعارف عليه مُداح الرّسول وهو الصّلاة والسّلام عليه ومن ذلك قوله :[٣]

١- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٤

٢- المصدر السابق نفسه

٣- المصدر السابق : ٣٥-٣٦

إليكَ رسولَ الله دعوة مَـنْ غدا ... عليه نطاقُ النطقِ وهـو مَضيقُ

وأنت بمن أقصتهُ عنك ذنوبــه ... وأشفَـق أحنى العالمين وأشفقُ

وإن أخلفت أفعاله وجـه عذْره ... فإنك بالإحسـان أولى وأخلقُ

عليك سلامُ اللهِ ما حـن نازحُ ... وما ناح محزونٌ ومـا أَنَّ شيِّقُ

وما غنتِ الورْقاءُ أو أورق الفضا ... وغربَ رُكبانُ الفـلاة وشرقوا

والملاحظ أن هذه الخاتمة تتواءم مع مقدمة القصيدة وموضوعها ، فقد بدأها ببث لواعج الصدر ، والشوق العظيم للقاء بالحمى النبوي ، وختمها بالصلاة الدائمة على الرّسول (ﷺ) ملمحاً فيها إلى عنصر الشّوق ، فالصلاة على الرّسول دائمة (ما ناح محزون وما أنّ شيق) .

ومـن القصائد التي نحا الشّاعر فيها هذا الشكل التقليدي ، قصيدته التي مطلعها : [١]

دع الصَّبَّ يدمي الدَّمع منه المآقيا ... فقد ظنَّ كل الظنّ أن لا تلاقيا

وهي من البحر الطويل ، ونقع في ثمانين بيتاً ، وقد بدأها بمقدمة غزلية ، وصف فيها أشواقه ومواجده ، وجرّد من نفسه شخصاً يخاطبه ، ويطلب منه تعليل هذا العاشق بالوصل بعد الفراق ، والدنو من الأحباب بعد البعد ، ومن ذلك قوله :[٢]

دع الصَّبَّ يدمي الدمع منْهُ المآقيا ... فقد ظـنّ كلّ الظّن أنْ لا تلاقيا

وعُدْت تـرى داء الغرام بحالــه ... وإن لـم يكُنْ أبْقى به الوجْدُ باقيا

وعده بجمع الشَّمل يُجنى بوعده ... بقيّـة أرماقٍ بلغـنَ التراقيـا

لديغُ فـراقٍ كيف يُرجَى شفاؤه ... وليس لَـهُ شَيءٌ سِوَى القربِ راقيا

ترامـت به أيدي الغَرام ولم يجدْ ... على الوجدِ عَوناً أو من الصَّدِ واقيا

ويبكـي عقيــقَ الحرتين بمثلِهِ ... إذا مـا هُمو أموا العَقيقَ اليمانيا

فإن رمـتَ أجراً أو سناءً معجلاً ... فعلله وابسـط فـي هَواه الأمانيا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح ، ٥٣
٢- المصدر السابق نفسه

ويمضي الشّاعر في هذه المقدمة حتى البيت التاسع عشر ، وهنا يشرف على حمى المحبوب ، وهو (حمى به خير خلق الله) ، وذلك في إشارة إلى التخلص من المقدمة ، والدخول في الموضوع الرئيس ، وذلك في قوله :[١]

ويقبلُ مِنْ نَحوِ المُصلَّى إلى حِمىً　　　بهِ خَيرِ خَلْقِ اللهِ أَصْبَحَ ثَاوِيَــا

وكان المتوقع أن يتبع هذا البيت قول الشاعر :[٢]

محمدُ المبعوثُ مِنْ خَالِقِ الــورى　　　إلـــى خَلْقِه طُراً نَذيراً وهَادياً

ويبدأ في مدح الرّسول ، ولكنه سرعان ما يعود إلى ذكر الحمى النّبوي ، وكيف يسترخص النّاس بذل أرواحهم ونفوسهم في السير إليه ، ويذكر مقدار غرام الرّكب ، حتى أصبحت إبلهم تشاركهم الحنين ، وأصبح حنين العيس حادياً للركب ، بدل أن يحدو الركبُ للعيس حتى تسرع ، فكأنه بذلك يسقط مشاعره من حنين واشتياق على الإبل ، « فإذا كانت هذه البهائم تشعر بالشوق إلى الأماكن المقدسة ، وتتجاوز الصعاب للوصول إليها فكيف يكون حال من يركبها » [٣] ، ومن ذلك قوله :[٤]

ويقبلُ مِن نحو المصلَّــى إلى حمــىً　　　بهِ خَيْــرِ خَلْــقِ اللهِ أَصْبَح ثاوياً
إلى حرمٍ إن يَحْــدُ حادي السُّرى بهِ　　　مطايــاه مَدَّت في سُراها الهَواديا
إلى حــرمٍ يُدنيــه مِنْهُــم غرامُهم　　　فسيّــان دانيه وَمَــن كَانَ قَاصِيا
ترى الفلكَ تجري في رياحِ ارتياحِهِم　　　وَيُلْفَى حنينُ العِيسِ للركبِ حَاديا

ولكن لماذا قطع الشاعر مدح الرسول (ﷺ) وأخره عشرة أبيات أخرى ، بعد أن تخلص من المقدمة ؛ لعل ذلك يعود إلى جلال الموقف ، فالشّاعر متردد أو متهيب من

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٤
٢- المصدر السّابق نفسه
٣- محمود سالم ، المدائح النّبوية حتى العصر المملوكي : ٣٢٥
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٤

الدخول إلى الموضوع المباشر فأجل الدخول فيه ، فإذا ما أطمأنت نفسه إلى لقاء الحبيب ، وأذن له بدخول الحمى ، انطلق في مدحه عليه السلام في ثلاثة وثلاثين بيتاً كما في قوله :[١]

محمدٌ المبعوثُ مِن خَالِقِ الـوَرى	إلى خَلْقِـهِ طُـراً نَذيراً وهاديا
دَنا فأدناه إلى حضرةِ الرِّضـى	فبورِكَ مَدْعُواً وَقُـدِّسَ دَاعيـا
وآتاه آيـات الكتـابِ منيـرةً	تُضـيء لتاليها وَسَبْعـاً مثانيـا
فأظهـرَ فـي التَّوحِيدِ برهانَ ربهِ	وقامَ بِـهِ فَـرْدَاً وَلَـمْ يَكُ وَانيا
له معجزاتٌ كالنُّجـومِ إضـاءةً	وَعدّاً ومَن يُحصى النُّجومَ السَّواريا

ويستمـر الشّاعر في التغني بسيرة الرسول الكريم ، حتى يصل إلى خاتمة القصيدة ، ويجعلها في سبعة عشر بيتاً ، يُبين فيها حاجته من الممدوح ، وهي طلب الشهرة وعلو المنزلة ، والحصول على العطاء الرباني الغفراني ، ولا ينسى الشّاعر إقفال مدحته بالصلاة والتسليم على رسول الله (ﷺ) ، وذلك في قوله :[٢]

وما ذِكرهـا ممـا تزيـدُ بـهِ سَنا	كَفى الشَّمـسَ نورٌ طَبَّق الأفقَ بَاديا
وَلكِن ليعـلُوَ قَدْرُ نَاظِمُها بها	ويبدو به مَنْ كَانَ في النَّاسِ خَافِيـا
ويجعلـهُ فيمـا لديـهِ وَسيلـة	إليه إذا وَافاهُ فـي الحشْـرِ صَاديـا
إلهي بجاه المُصطفـى كن لعثرتي	مُقيلاً فَقَـدْ أَوهَـى خَطايَ خَطائيـا
رجائي فَسيـحٌ والشفاعةَ ظلُّهـا	ظَليـلٌ وعفـوُ اللهِ ذُخْـرُ مآليا
عليه سلامُ اللهِ ما هـام شيـقٌ	وما بات جِفنُ المزنِ في الرَّوض هاميا
وما شدت الورقاءُ أو أورقَ الغضا	وما سارَ نجمٌ أو هَدى النَّجمُ سارِيَـا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٤-٥٦

٢- المصدر السابق :٥٦-٥٧

وقد يبدأ الشّاعر بعض مدائحه النبوية بوصف مواكب المسافرين إلى الديار الحجازية ، وغالباً ما كان هذا النوع من المقدمات في القصائد التي يعبر فيها عن حنينه إلى تلك الديار ، ولعلها كانت تقال في موسم الحج ، حيث يرى الشاعر مواكب الحجيج تيمّم نحو الحجاز دون أن يتمكن من مرافقتها ، فتستثير مشاعره ؛ لذلك غلب على هذه المقدمات معاني الشوق والحنين ، وسؤال المسافرين أن يحملوا تحياته إلى الحمى النّبوي الشريف ، من ذلك قول الشاعر في مقدمة قصيدة من سبعين بيتاً على مُرفل الكامل :[١]

آن التأهــبُ للرحيـــــلِ	فَقِفــوا على الرّسم المحيلِ
وابكوا على العزمِ الصَّحيـ	ـحِ ينــوءُ بالجسدِ العليلِ
يا راكبَ الوجنـــاءِ تجـ	ـذبُ فـي البُرى ذيلَ الذَّميلِ
يَفْــري الفــلاةَ ومالَهُ	غير التشــوقِ مِــنْ دَليلِ
ويزيـــدُ رَيَّ جفونــه	ما بالأضالع مِــنْ مُحولِ
وإذا شكَــى حَرَّ الرُّبــا	وصفتَ لَهُ ظِــلَ النَّخيلِ
فتكــادُ من شَــوْقٍ تَطيـ	ـرُ لَهُ الرَّكائِبُ بالحُمُــولِ
باللــهِ إلا مــا حمَلـ	ـت رِسالتي نحــوَ الرّسُولِ
وإذا وصلــت إلــى العقيـ	ـقِ وفزتَ فيـه بكـلِ سولِ
فالثم ثَراهُ وحل عـــن	شَوقي عُرا العــبءِ الثَّقيلِ
واكتب رسالـةَ لوعَتـــي	في التُّـربِ بالدَّمـع الهمولِ

ويجعل الشّاعر التخلص إلى المدح في البيت (٢٧) من القصيدة ، حيث يطلب من حادي الرّكب أن يبلغ سلامه للرسول (ﷺ) ليدلف بعد ذلك إلى موضوعه الرئيس ، وهو مدح الرّسول (ﷺ) ويجعله في ثلاثة وثلاثين بيتاً . كما في قوله :[٢]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٣-٩٤

٢- المصدر السابق : ٩٤-٩٥

وقل السّلامُ عليـــكَ يا   خيرَ الورى مِــنْ كُلِّ جيلِ
يا خيرَ مَنْ نَســري إليـ   ـهِ بكلِ صَعْـــبٍ أَوْ ذلولِ
يا صَاحِبَ الحوضِ الذي   يروي الظمـــاءَ مِنَ الغَليلِ
أَنْـتَ المبوأُ فِـــي المفا   خِر ذِرَوَة الشَّـرفِ الأَصيلِ
القـى إليكَ اللهُ مـــا   ألقى مِنَ القـــولِ الثقيلِ
فأقمــتَ تدعـــو اللّه لا   تزوي النَّصيحَـة عَـنْ قَبيلِ
وتَغـضُّ عَـنْ غَـاوٍ إلى   جانٍ وتصفَحُ عَـنْ جَهولِ
مــاذا به أثنـــي وَلَـو   أَضْحَى الحيا فيـهِ رَسيلي

ويستمر الشّاعر في هذا المدح حتى يصل إلى الخاتمة ، التي ضَمَّنها التحسر على ما فات من تفريط ، طالباً من الله أن يجعل حبه للرسول (ﷺ) ، عدته وزاده لنيل الشّفاعة ، مقفلاً القصيدة بالصلاة والسّلام على الرّسول الكريم :[١]

ضاعَ الزمانُ وضاقَ عَـنْ   إدراكِ مَـأ مولي وَسُولي
هي سَفْرةُ العُمـرِ انتَهـتْ   وَدَنَـا إلى الأُخْرَى قُفولي
يا رَبِّ فاجعـــلْ حُبـه   زادي إلـــى دار الحلولِ
فلقد عقــدتُ بجاهِهِ الـ   أهدابَ مِـنْ ظَنِّي الجَميلِ
ورجـــوتُ منه شفاعـــةً   إذ خانني عَمَلي تفي لـي
صلَّى عليــــه اللهُ مـــا   نشتِ الفُروعُ عَن الأُصُولِ
وسرى إليهِ الرّكْبَ يجـــ   ـتابُ الحزونَ مَع السُّهـولِ
وَوَشّى بأســـرارِ الرّبـــا   ضِ إلى الرّبا نَفَسِ القَبولِ

وثمّة قصيدة فريدة استهلها الشّاعر بنسيب رقيق ، غير أنه لم يكن نسيباً بامرأة ، وإنما هو تغنٍ بجمـــال الكعبة المشرفة ، التي تمثلت في صورة حسناء ، تجمعت فيها

١- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٥-٩٦

صفات الجمال كلها ، ويضاعف الشّاعر من هذا الجو الأنثوي في وصفه للكعبة المشرفة ، فيجعلها فتاة محجبة ، عليها من الحليّ ما زادها جمالاً وبهاءً ، مصوراً افتتان النّاس بها ، وحبهم لها ، وتحمّلهم وعثاء السّفر في سبيل الوصول إليها :[١]

تبـدَّت وقد مدَّت عليها ستُورها ... ولو سَفَرت أغنى عن الحُجْب نُورها
مُحجَّبـة لا عـزَّ إلا لجارها ... وليـسَ الغنـيُّ المحضُ إلا فَقيرها
تجلَّتْ فَأخفى ما عليهـا من الحلَى ... سَناهـا كما تُخفـي الليالي بدورهـا
تطوفُ بها الأملاكُ في كلِ لَحَظةٍ ... وإن لَـمْ يبن بيـنَ الأنام مُرورهـا
ويسجدُ مِنْ كلٍّ الجهاتِ لِوجْهِها ... سَـواءٌ توارتْ أو تَـراءتَ قُصُورهـا
قطعنا إليها البيدَ ليـسَ يروعنـا ... سَهـولُ الفيافي دونَهـا وَوُعورهـا
وهل تَرهَبُ الأخطارُ نَفْسٌ مشوقةٌ ... تبيـتُ وليلـى بالحِمى تَستَزيرُهـا

وتُشيع هذه المعاني الغزلية الجميلة جوّاً من الطلاقة والبشر في القصيدة ، فيخاطب الشّاعر رفاقه السّائرين نحو هذه الحبيبة ، ويبشرهم بقرب الوصول ، فإذا ما وصلوا إلى ديارهـا وتجلت لهم ، أخذوا بجمالها الفتّان ، فسجدوا في رحاب ديارها :[٢]

أقـولُ لصحبـي والقفـارُ كأنها ... صحائـفُ خُطَّت بالمطايا سُطورها
دعوا طي عـرض البيدِ بالسَّير والسَّرى ... فهذا حِمـى ليلـى وهاتيكَ دُورها
أتينـا إليهـا حاسِريـنَ لأنهـا ... غِنانا فبالفقـرِ الشَّديـدِ نَزورها
ولمـا بـدت أعلامهـا وتَأرجـت ... أباطِحُها مِنْهـا وَآنَ سُفُورهـا
وضعنا جِباهاً فـي الثرى قد تهللـت ... أساريرهـا منهـا وزاد سرورهـا
فطوبى لعيـن شُرِّفـت بترابهـا ... وتمت بـوطءِ الأرضِ فيهـا نُذُورها
فإن تعط نفسـي بالسُّرى دونها المنى ... فليس وإن شَـفَّ النفـوس يُضيرها
وكيف تَخافُ النَّفسَ من دونها الرَّدى ... وذاك النَّبيَّ الهاشِمـيُّ خفيرهـا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٦
٢- المصدر السّابق : ١٦-١٧

وفي هذا البيت الأخير ، يتخلص الشّاعر إلى مدح الرسول (ﷺ) وهو تخلّص حسن ، لا يُشعر السامع بالانقطاع ، فهو يبدي استعداده لزيارة الحمى النّبوي ، حتى وإن كان في ذلك هلاكه ، وعلام يتسرب الخوف إلى نفسه ؛ إذا كان (النّبي الهاشمي خفيرها) ، وبعد هذا البيت يسترسل الشّاعر في الموضوع الرئيس وهو مدح الرسول الكريم عليه السلام ، ومن ذلك قوله :[١]

محمـدُ المعبوثُ للخلقِ رَحمةً   نبيُّ الهُدى هَادي الوَرى ونذيرُها
وشافِعها في الحشرِ عِندَ إلاهها   ومنقذُهـــا مِنْ نَارِه وَمُجيرهـــا
وأولُ مَــنْ يَنْشَقُ عَنْه ضريحه   إذا بعثِــــرَتْ بالعالميــنَ قُبورُها
أتينـا حِماه فالتقانا برفــــده   نجائِـــبُ وافــى بالنَّجَاة بَشيرها
وإنــا لنرجــو عودةً نحو دارهِ   إذا ما فروض الحــجِّ تَمّتْ أُمورها
فليــــسَ تمامُ الحجّ إلا وقوفنا   عليــهِ نـــرى آثـــارَهُ وَنزوُرُها

ويختم الشّاعر قصيدته في بيت واحد يجعله صلاة وسلاماً على رسول الله (ﷺ) وذلك في قوله :[٢]

عليه صلاة اللهِ ما هبت الصَّبا   وما عاقبت ريحُ الجَنوب دبورها

وبعد عرض هذه النماذج الكاملة من المدائح النّبوية التي قالها الشَّاعر ، نجد أنه قد تمثل عناصر قصيدة المديح العربية مع محافظته على خصوصيّة المدح النّبوي ، فهو يتغزل ببعض مقدمات قصائده ، ولكنه غزل بأوصاف عامةٍ في غاية الحشمة والأدب ، لأن هذا الغزل يتقدم مديحاً نبوياً ، وهذا ينسجم مع ما قرّره بعض النقاد في طبيعة الغزل الذي يتصدّر المدائح النّبوية ، إذ « يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ، ويتضاءل ويتشبب ، مطرباً بذكر سلّع ورامةٍ وسفح العقيق ، والعذيب ، والغوير ولعلع ، وأكناف هاجر ، ويطرح محاسن المرد ، والتغزل في ثقل الردف ، ورقة الخصر وبياض السّاق ، وحمرة الخدّ ، وخضرة العذار ، وما أشبه ذلك » [٣].

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٧-١٨
٢- المصدر السابق : ١٨
٣- ابن حجة ، خزانة الأدب ١ : ٣٦-٣٧

كما نجد أن النّسيب الوارد في المدحة النّبوية للشّاعر يزخر بذكر أماكن النّبوة ومعاهدها ، وهذا التخصيص في المكان لا يقصد لذاته ، وإنما هو ذو صلة وثيقة بالمديح النّبوي ، بل يجوز القول أنه تهيئة نفسية للدخول في المديح ، وهذا الغزل « في الأعم الأغلب قريب المأخذ ، سهل المعنى ، قليل التلاعب اللفظي ، تكلّله هالةٌ من العفة والطّهر والرّزانة » [1] .

أما مطالع القصائد لدى الشّاعر شهاب الدين محمود فقد جاءت متطابقة مع رأي النقاد من حيث جزالة العبارات وشرف المعنى ، ووضوح الدلالة ، ومعبرة عمّا يجيش في نفسه من مشاعر وانفعالات .

وكان الشّاعر بارعاً في حسن التّخلص ، والانتقال من مقدمة القصيدة إلى موضوعها الأساسي ، بحيث لا يشعر السامع أنه انتقل من المعنى الأول ، إلى معنى آخر ؛ وذلك لارتباط المقدمة عنده بالموضوع الرئيس للقصيدة ، وهو مدح الرّسول (ﷺ) فالشاعر في مقدماته الغزلية أو الطللية ، إن تحدث عن الأماكن فهي أماكن النّبوة ومعاهدها ، وإن تحدث عن رحيل الصحاب إلى ديار المحبوب ، فهي أماكن الفيض النّبوي ، ومنها ينتقل إلى المديح النبوي دون أن يشعر السامع بالانقطاع .

وجاءت خواتيم المدائح النّبوية للشّاعر شهاب الدين محمود متوائمة مع مقدمة القصيدة وموضوعها ، فهو يختم مدحته النّبوية عادة بالصّلاة والسّلام على رسول الله (ﷺ) وأحياناً بالصلاة عليه وعلى آله وأصحابه ، وقد تكون الخاتمة صلاة على الرّسول مقترنة بالدعاء أو السّلام على الحمى النبويّ .

وهكذا نرى أن الأجزاء الثلاثة للمدحة النّبوية عند الشّاعر ، جاءت متناسبة ومترابطة لتشكل في مجموعها غرضاً واحداً ، فالمقدمة في ذكر أماكن النبوة

١- ناظم رشيد ، في أدب العصور المتأخرة ، (مكتبة بسام ، الموصل ، ١٩٨٥م) : ٢٦

ومعاهدها ، والعرض حديث عن الرّسول ومعجزاته وصفاته ، والخاتمة صلاة على الرّسول وتسليماً .

ويلاحـظ كذلك طول النّفس الشعري في قصائد المديح النّبوي التي قالها الشاعر ، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع ، وهو موضوع جليل تناسبه القصائد الطويلة لأن « المُطيل من الشعراء أهيب في النفوس من الموجز » (١) . كما أن هذه القصائد مزيج من الخصائص الشعرية والتاريخية ، فقد اتخذ الشاعر المصادر التاريخية أساساً لمادته ، فأتاحت له مادةً غزيرة استدعت هذا التطويل ، وقد يكون هناك سبب آخر يتعلق بالمتلقين الذين يتعلقون بسماع أحداث السيرة النّبوية ، وصفات الرّسول – عليه السلام – فاستجاب الشّاعر لهم ، ليشبع هذه الحاجة لديهم . وتبقى الحقيقة القائلة : « ليس مهماً أن تطـول القصيدة ويكثر عدد أبياتها ، بل المهم أن تكون جيدة ، وإن لم تطل » (٢) .

ثانياً : الشكل غير التقليديّ

لم يبنِ الشّاعر جُلّ مدائحة النّبوية على شكل القصيدة التقليدي ، وإنما اتجه في مدائح أخرى إلى شكل فني آخر ، ضاع فيه الشكل التقليدي ، وحلّ مكانه بناءٌ يقوم على استهلال المدائح بمقدمات وعظيّة وزهدية ، أو مقدمات دعائية ، فقد استهل الشّاعر بعض مدائحه النّبوية بأبياتٍ يذكر فيها الموت والحساب ، ويلوم فيها النّفس على التقصير والغفلة والتفريط ، وتتواءم هذه المقدمة وموضوع القصيدة ، وهو مدح الرسول (ﷺ) وطلب عطائه وهو الشفاعة ، والتي تتطلب الاعتراف بالذنب والتقصير أولاً ، ومن ذلك قصيدته التي يقول في مقدمتها :(٣)

١- ابن رشيق ، العمدة ١:٣٤٩
٢- يوسف بكار ، بناء القصيدة العربية : ٢٢٦
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٣-٨٤

حتّـامَ ابطائـي بيـومِ مَتابـي . أأروم بعد الشّيب ردّ شبابـي
وعـلامَ أوقِنُ بالمعادِ ولا أرى روحي تعـدُّ ذخيرتـي لمآبي
فإذا سُلبتُ عن الـذي في كَسْبهِ أنفقتُ عُمْـري ما يكون جَوابي
أأقولُ مدَّ لي الغـرورُ عِنانَـه فركضْتُ في شوطي صباً وتصابي
أو ما يُقـالُ فهبـك أيامَ الصبا كُنتَ اعتقلـت بهذه الأسبابِ
أو ما انقضى عَصرُ الشَّباب وآذنت أيـامُ لهـوكَ والصّبا بذهابِ

ويذكر الشّاعر في مقدمة قصيدة أخرى الموت والحساب ، ولذا يدعو إلى الاكثار من الطاعات ، وصالح الأعمال ، لأن الإنسان مفزع في حياته الدنيا بين من اغتالته صروف الرّدى ، وآخر متوقع للموت في كل لحظة ، ومن ذلك قول الشاعر :[١]

اعملْ حِسَاب النَّفسِ عن هَفواتها واستـدرك الطاعاتِ قَبْلَ فواتها
واجهد لنفسِك في الخلاصِ بكِفها عَنْ غيِّهـا والصدِّ عَنْ شَهواتِها
واعلم بأنَّ الحتـفَ منْ رُقبائِهـا فاسبَـق بتوبَتِهـا هُجومَ وفاتها
لا شيءَ ينفعهـا سوى ما قدَّمـت من صالـحِ الأعمال قبل مماتها
فاطلب لهـا زاداً وبـادر فرصة الـ امكانِ منْـهُ فـي زَمانِ حَياتها
عجباً لها تَهـوى الـذي تَهوي به دُون الـذي تَعلو بهِ في ذَاتها
ويغُرُها ابطاؤهـا وَقـدْ اغتـدت ما بيـنَ مُرهفِ نَابها وَلهاتها
والنّاسُ إما غائِـبٌ ذَهَبـتْ بـهِ أو حاضِـرٌ متوقِـعٌ فتكاتها

ويجعل الشاعر حسن الخلاص إلى مدح الرّسول في حسن الرجاء بالله ، وشفاعة الهادي (ﷺ) وذلك في قوله :[٢]

لكنّ حُسن رجائها أرجى لهـا في الحشر عِندَ اللهِ مِنْ حسناتها
وشفاعةُ الهادي إذا جَثتِ الورى من هـولِ موقفِها على رُكباتها

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤١
٢- المصدر السابق : ٤٢

وافتتح الشّاعِرُ عدداً من مدائحه النّبوية بالدعاء إلى الله تعالى أن يغفر له ذنوبه ، ويكشف عنه الكرَب والمصائب ، ومن ذلك مدحته النّبوية التي يقول في مقدمتها :[١]

يا مَــنْ إليــهِ بعزهِ اتشفّـــعُ ... وبذلتـــي أَعنُـــو إليهِ وأَخضع

يا منقذَ الغَرقـــى ويـــا مَنْ عبْدهُ ... يدعُوهُ في ظُلم الخطوبِ فيسمعُ

يا كاشِفَ الكُربِ التي إن أَعجزت ... ضراؤُها فإليه فيهـــا يَرجِـــعُ

يا فـــارجَ الكُـــربِ العِظامِ ورافع النُّـــوبِ التي بسواهُ ليست تُدفـــعُ

أدعوكَ دعـــوةَ مستجيرٍ مالَـــهُ ... إلا إليكَ مدى الزّمانِ تَطلُـــعُ

وتقع هذه المقدمة في أربعة وعشرين بيتاً من أصل واحد وخمسين بيتاً هي مجموع أبيات القصيدة ، ويجعل الشاعِرُ تخلصه في البيت الخامس والعشرين وهو التشفع بالرّسول للحصول على عفو الله سبحانه وذلك في قوله :[٢]

مُستَشفعاً بالمُصطَفى الهادي الذي ... هُوَ في القِيامة في العُصاةِ مُشفَّعُ

وأحياناً يلج الشّاعر في المدح النّبوي دون مقدمات كما في قصيدته التي جعلها على البحر الخفيف وعدتها اثنان وخمسون بيتاً يقول في مطلعها :[٣]

بمديح الرّســـولِ أرفع قدري ... وأُرَجّـــي بنظمـــه حَطَّ وزري

إن مَـــنْ قَدْ اسنى الالهُ عليه ... لغنيٌّ عَـــنْ كُلِ نظـــمٍ ونثـــرِ

وكفاهُ مـــا أنزلَ اللهُ فيه ... مِنْ ثنـــاءٍ مِنَ الأنامِ وشُكـــرِ

أكرمُ الخلـــقِ أملوه وراموا ... منه عِزَّ الغنـــى بِـــذُلِّ الفقـــرِ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٨-٢٩

٢- المصدر السابق : ٣٠

٣- المصدر السابق : ٦٢-٦٣

ثالثاً : المقطوعات

أضاف الشّاعر شهاب الدين محمود إلى جانب مدحه للرّسول (ﷺ) بقصائد طويلة عدداً من المقطوعات بث فيها بشكل مكثف مركز ، ما يعتمل في نفسه من مشاعر تجاه الرّسول الكريم ، ومن ذلك مقطوعة يستغيث بها الله متوسلاً بجاه النبي الكريم (ﷺ) وذلك في قوله :[١]

إلهي بحقّ النّبي الكريـــمِ ... أجرْنـــي مـــن شرِ هذي العبادِ
أأخشى وأنتَ غيّاث الورى ... وأرهبهمُ وعليـــكَ اعتمـادي
فأنت ملاذُ الوحيدِ الشّريـدِ ... وأنتَ أنيسُ الغَريـبِ البِـــلادِ
أجرني أجرني فما لي سواكَ ... وحسبي غنيّ بكَ طولَ انِفرادي

وينادي الشّاعرُ الرّسول (ﷺ) في مقطوعة أخرى مبدياً ضيقه وقلة حيلته ، طالباً من الرّسول أن يرحمه بجاهه ، ويكشف ضره ، وذلك في قوله :[٢]

يا رسولَ الالهِ ضـــاقَ بأمـــري ... حيلتـــي واعتَرت وَساوسُ فكْري
لا تَكلني إلى سوى جاهِكِ الضّـــا ... في فما لي سِـوَاه يَكْشِفُ ضُري
فأزل راحِمـــاً بجاهك هَمـــي ... وأغثنـــي واغـنِ بالبـــر فقري
بان كسري لـــدى الأنامِ وإني ... لأرجّي بـــه مِنَ اللهِ جبـــري

وفي مقطوعةٍ أُخرى من بيتين يشكو ويرجو من الرّسول (ﷺ) أن يحقق له بعض المطالب ، ويبدو فيها متأثراً بالصيغة الكتابية الانشائية التي كان يمارسها وذلك في قوله :[٣]

إليكَ رسولَ اللهِ أرسلتُ حاجةً ... جَذبتُ عَناني عنْ سواكِ لنيلها
وها قِصتي مرفوعةً وَمَطالبـــي ... بما أُرتجيه مِـــنْ نَداك بذيلهـا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٢
٢- المصدر السابق نفسه
٣- المصدر السابق : ٣١

ويعرضُ الشّاعــر في مقطوعةٍ أُخرى نفسه بصورة المذنب المثقل بالآثام والذنوب ، جاعلاً نفسه ضيفاً على الرّسول (ﷺ) طالباً قراه وهو العتق من النّار وذلك في قوله :[١]

يا ربّ ذا البيتِ قَدْ وَافيتُ ساحَته   خَجْلانَ أحمِلُ بين النّاسِ أَوزاري
فاجعل قرايَ وَإنْ لم استَحِقّ قِرى   بما تحمّلتُــه عِتقِـــي مِنَ النّار

ويبث الشّاعر في مقطوعةٍ أُخرى شكْواه من الوحدة والوحشة والهم في صورة دعائية توسليّة بقوله :[٢]

نبيُ الوَرَى ضاقت بي الحالُ في الورى
وأنـــــت بما أرجوه مِنْكَ جديرُ
فَسلْ خَالقي تَفْريـــجَ هَمْـــي فإنّه
علــــى فَرَجي دونَ الأنامِ قَديرُ

ويبدو أن هذه المقطوعات كانت تأتي وليدة لحظات انفعالية تتقد في نفس الشاعر ، فيعبر عنها بشكل عفوي مركّز ، إذا أحسّ بالوحدة ، أو انتابه شعور بالهم والضّيق ، وذلك عند لقائه بالأماكن المقدسة .

كما نظم الشّاعر في هذا المعنى ما يسمى بالدوبيت ، وهو وزن فارسي نظم على منواله الشعراء العرب ، وهو مكون من بيتين مصرّعين إذا كان تاماً ، وإذا اختلفت قافيةُ الشطر الأول من البيت الثاني ، اطلق عليه الدوبيت الأعرج ، ومن الدوبيت الأعرج قول الشاعر :[٣]

يا مُجيبَ المضطرّ يا كاشفَ الضُّر   روَيـا جابِـــرَ المهيضِ الكَسير
لا تكلني إلـــى سِواكَ فإنـــّي   لَسْتُ أخشَى شيئاً وَأنْتَ نَصيري

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٦
٢- المصدر السّابق : ٣١
٣- المصدر السّابق نفسه

* الأسلوب

أولاً : التواؤم بين الأُسلوب والمعنى

ثانياً : التكرار

ثالثاً : القصَصِّيَّة

رابعاً : التأثر بالقرآن الكريم والحديث الشَّريف

خامساً : الاستدعاء

سادساً : البديع

أثنى كثير من القدماء على موهبة الشّاعِر الفنية : نثراً وشعراً ، فقد وصف الصّفدي أدب شيخه شهاب الدين محمود بقوله : « إنّ نظمهُ أعذبُ في الأسماع ، وأقرب إلى انعقاد الإجماع ، لأنه انسجم تركيباً ، وازدحم تهذيباً ، فسحر الألباب ، ودخل بالعجب من كل باب ، وإن كان نثره قد جَوَّده ، وأجراه على قواعد البلاغة وَعَوَّده ، فإن شعره أرفع من ذلك طبقة ، وأبعد شأواً على من رام أن يلحقه ، وهو يحذو فيه حذو سبط التعاويذي [١] ، وقصائده مطولـة فائقة ليس يرتفع فيها ولا ينحط ، بل هي أنموذج واحد ، ليس فيها ما يُرمى ، ولم يكن بغوّاص على المعاني ، ولا يقصد التّورية ، فإنها جاءت في كلامه قليلة ، ومقاطيعه قليلة ، ولكنّ قصائدة طويلة طايلة هايلة ، لعلّها تجيء في ثلاثة مجلدات أو أربعة ، ولم يجمعها أحد » [٢] .

ويصف الصّفدي مدائح الشّاعر النّبوية بقوله : « ولشهاب الدّين محمود قصائد طنانة في مدح النبي (ﷺ) » .[٣]

ويذكر ابن حجر عن الصّفدي قوله : « هـو أحد الكملة الذين عاصرتهم وأخذت عنهم ، ولم أرَ من يصدق عليه اسم الكاتب غيره ، لأنه كان ناظماً ناثراً ، عارفاً بأيام النّاس وتراجمهم ، ومعرفة خطوط الكتاب مع الأدب الكثير والديانة ، والعلم والرواية » [٤] .

وَوَصف العُمري في مسالك الأبصار فَنّ الشهاب محمود بفقرات مسجوعة ، شبهه فيها بمشاهير الشعراء ، كامرىء القيس ، وزهير بن أبي سُلمى ، وعبيد بـــن

١- هو أبو الفتح محمد بن عُبيد الله بن عبدالله الكاتب المعروف بابن التعاويذي (٥١٩-٥٨٣) هـ ؛ جمع شعـره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقة المعاني ودقتها ، كان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد . ينظر فـي أخباره ، ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، (دار صادر ، بيروت ، د.ت) ٤:٤٦٦-٤٧٣

٢- الصّفدي ، أعيان العصر ٣:٢٥٠

٣- الصّفدي ، الغيث المُسجم ١:٢٧٦

٤- ابن حجر ، الدُّرر الكامنة ٥:٩٢

الأبرص ، وابن هانيء ، وعبدالله بن المعتز ، وألحقه بالمجيدين من الكتاب أمثال أبي هلال العسكري والجاحظ ، وأشـاد ببراعته في الفنين فقال : « وكان في كلٍ منهما إماماً » [١] .

ويقول عنه ابن كثير : « هو الصّدر الكبير الشّيخ الإمام العالم العلاّمة ، شيخ صناعة الإنشاء الذي لم يكن بعد القاضي الفاضل [٢] مثله في صنعة الإنشاء ، وله خصائص ليست للفاضل من كثرة النظم والقصائد المطولة الحسنة البليغة » [٣] .

ويصفهُ ابن إياس بأنه « كان عالماً فاضلاً ، ناظماً ناثراً ، وله شِعْرٌ جيد » .[٤]

وأورد يوسف النّبهاني في كتابه المجموعة النبهانيّة في المدائح النّبوية ؛ الشّاعر شهاب الدِّين محمود ضمن عدّة من شعراء المديح النّبوي الذين التزموا « جزالة المعاني وسهولتها ، ورقة الألفاظ ورشاقتها ، ولم يراعوا إلا مقتضيات الفصاحة والبلاغة كعادة العرب المتقدمين قبل الإسلام وبعده في أشعارهم »[٥] . وسأتناول هنا بعض الظواهر الأسلوبيّة البارزة في مدائح شهاب الدّين النّبوية .

١- العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحيى ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، (معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت ، ١٩٨٨م) ١٢:٣٠٢

٢- هو أبو علي مجير الدين عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين علي اللخمي العسقلاني (٥٢٩-٥٩٦) هـ ، كان وزيراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وبرز في صناعة الإنشاء . ينظر في اخباره ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١٥٨:٣-١٦٣

٣- ابن كثير ، البداية والنهاية ١٤٠:١٤ ، ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٧٨:٤

٤- ابن إياس ، بدائع الزهور ١/١ : ٤٥١

٥- النبهاني ، يُوسف بن اسماعيل ، المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ، (دار الفكر ، بيروت ، د.ت) ١ : ١٦

أولاً : التواؤم بين الأسلوب والمعنى

أشار النّقاد العرب القدماء إلى قضية التناسب بين اللفظ والمعنى ، وهو أن تكون الألفاظ مناسبة ، ومعبرة عن المعنى الذي يقصد إليه الشاعر ، فيستخدم ألفاظاً جزلة رقيقة إذا تغزل ، وألفاظاً قوية ذات وقع وحركة إذا وصف معركة ، « وقد قالت الحكماء أن للكلام جسداً وروحاً ، فجسدُه النّطق ، وروحه معناهُ ، فواجب على صانع الشّعر أن يصنعه صَنْعةً مُتقنة لطيفة مقبولة مستحسنة ، مجتلبة لمحبّة السّامع له ، والنّاظر بعقله إليه ، مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه ، والمتفرّس في بدائعه ، فيحسنه جسماً ، ويحققه روحاً ، أي يتقنهُ لفظاً ، ويبدعه معنى » [١] .

كما أشار قدامة إلى « أن يكون اللفظ سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة » [٢] .

وقدْ استخدم الشّاعر شهاب الدّين محمود اللغة ، وطوّعها لحمل معانيه بشكل متجانس متآلف ، دون أن يطغى أي جانب على الآخر ، فلُغةُ القصيدة جزلة قوية ذات وقع وجلبة ، عندما يتحدث الشّاعر عن حروب الرّسول وجهاده ضد الأعداء ، وانتصاره عليهم ، وهي رقيقة ذات جرس موسيقى خافت فيها رنه الاستعطاف والاسترحـــام ، عندما يذكر الشّاعر ذنوبه ، ويطلب الشفاعة ، وتشيع في الفاظه رنة الثّقة والاعتداد بالنفس ، عندما يتحدث عن الرّسول ومعجزاته .

١- ابن طباطبا ، ابو الحســـن محمد بن أحمد العلوي ، عيار الشّعر ، تحقيق عبدالعزيز بن ناصر المانع ، (مطبعة المدني ، مصر ، د٠ت) : ٢٣

٢- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٠م) : ٢٨

والشاعر في ذلك كلّه يحافظ على اللفظ الرائق السّهل واللغة البسيطة ، كما في قوله يصف مشاعر الراحلين إلى الحمى النّبوي ، في ألفاظٍ رقيقة عذبة ، وصور جميلة مستملحة : [١]

وَسابقتمُ أَقدامَكُم بوجوهِكِـــــم ليشْرُفَ خدٌّ ظل بالتُّربِ مُلْصَقا
وقد عبَّرت عن وجدكمْ عبراتِكِم إذ الدَّمع منكم ثَمَّ أفصَحُ مَنطقا

وتشيع في الألفـــاظ قوة الإيحاء ، من مثل قوله يصف رحلة الحجيج ومشاعرهم :[٢]

إذا هبطّوا أرضاً وأومضَ بـارقٌ تَرَوَّضُ مِنْ سَـــحِّ الدُّموعِ ثراها
ويعتسفـون البيدَّ يُرشدُهم بهـا إلى الدَّار إن ضلوا الطَّريق شَذاها
وتهديهم أنوارُهـــا لا كواكـــبُ السَّمـــاء إذا حـاروا ولا قمراها
إذا عاينوا أعلامها وضعوا لهـا خُدوداً على وجـه الثّرى وجباها
ولاحت لهم أنوارُها فتأملــوا سناهـــا وجاثوا بالعيـون رُباها
وزال عناهم واستلذت نُفوسُهم وُرود المنايــا في بلُوغ مُناهـا

فالأبيات تخلو من الألفاظ الحوشية ، والمعاني المستكرهة ، وهي تجري في تناسق دقيق ، وتناسب محكم بين الألفاظ والمعاني ، وقد استعان الشاعر فيها بمهارات متعددة للتعبير ، لعل أبرزها هذه المزاوجة بين ذكر الأماكن ومتعلقاتها ، وما تستثيره في نفوس الجميع من مشاعر وانفعالات ، مما أضفى على الأبيات تناظراً لطيفاً ، وإيقاعاً مُتموّجاً .

ومن أبيات الشّاعر المتميزة بالجزالة والفخامة في الألفاظ والدقة في المعنى ، مع وضوح العبارة وسلاستها ، قوله متحدثاً عن صراع الرّسول (ﷺ) مع كفار قريش :[٣]

١- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٠
٢- المصدر السّابق : ٥٩-٦٠
٣- المصدر السّابق : ١١٢-١١٣

رمـــا همـو بجهادٍ فلّ حدّهمو فكـان حظّهـــم منْ حرْبه الحـرْبُ
وفرّ شيطانُهـــم عنْهم واسْلمهـم إلـى الـرّدى وثَنــاهُ عَنْهُم الهَـربُ
ولم يُفدْهمْ ونصـــرُ الله مُنجـدهُ سُمــر لُدانُ ولا هنْديّـــةُ قُضُـبُ
وأنـــزل اللهُ أملاكـاً تُثبتُـــه بهـــم ولا غُلُب يخشى ولا لغْبُ [١]
وما ثنى صحبه عن حُسن موقفهم في طاعة الله لا أسرٌ ولا سلـــبُ
حتـى إذا أنـزل الرّحمن نصرته للمؤمنيـن وغصّت بالعدا القُلـــبُ
عادوا وأشـــرى العـدا تقْتادهم برةُ[٢] الصّغار والفيْء مقسومٌ كما يجبُ

وقد أدرك الشّاعر أهمية الأُساليب الإنشائية في التعبير عن المشاعر ، ونقل خلجات النّفس ، فاستكثر منها في مدائحه النّبوية على نحو ملحوظ ، ولا سيّما أسلوب الاستفهام الذي استثمرهُ للتعبير عن معانٍ عدةٍ ، مثل تأنيب النّفس وتقريعها وردها عن غيها ، كما في قوله :[٣]

ألم يأنِ لي أنْ أتْرك اللّهـــو جانباً وأُقلعَ عَـنْ دَارِ الغُرور مجُانبـــا
أما في نذير الشّيب ناهٍ عن الهوى وقد جَـاءَ قُدام المنيَّـــة حَاجِبـا
أما واجبٌ أن يُبْصر القلـبُ رُشْدهُ ويُصّبح مـن خوف الغواية واجبا
ألم يكفني فقْدُ الأخـلاء واعظـاً ألــم يُغننـــي مرُّ السّنين تجاربا
ألم أدْر أني كُلّ ما فاه منْطقـــي بشيءٍ فقدْ أمْليـــتُ ذلك كاتبا
آآمن ما قدّمْــــت مما أرى غــداً جزاه وأخْشى من زماني العواقبا
أيهمل من أضْحى لهُ الحتفُ مُهْملاً ويعْجزُ مـنْ أمْسى لهُ الموتُ طالبا
أما بَصرٌ يهْــــدي به أو بَصيرةٌ تردُّ امْرأً أضحى عن الرُّشْدِ ناكبا

١- لَغبٌ : فاسد .
٢- البْرة : حلقة تُجعل في أنف البعير .
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٤

فالمثير الاستفهامي ينهض بدورٍ واضح في صياغة هذه الأبيات ، وقد قام هنا بـــدور المنبه الأسلوبي ليستحوذ على اهتمام القارىء من ناحية ، وينشّط حركة القصيدة ، وهي طويلة من ناحية أخرى ، وقد عبّرت هذه الأسئلة المتتالية عن الحالة النفسية للشّاعر ، وهو يحاول أن يتحرر من ثقل القيود والآثام ، ويتطلع إلى حياة جديدة صافية .

وقد يأتي الاستفهامُ لتأكيد الشّوق واللّهفة لرؤية الأماكن الحجازية ، ومن ذلك قول الشاعر :[١]

فهلْ تَرى أَسمَعُ الحادينَ عَنْ كَثَبٍ   وَهُم يقولونَ لي قِفْ هذه الكُثُبُ
وهل صَباحُ أرى فيه قباب قُبـــا   كأنّهـــا بينْ ساجي نخلهِ شُهُبُ
وهل تُماطُ وقدْ جئتُ الثّنيةَ مـــا   بيْني وبينْ المُصلّى والنّقا الحُجُبُ

ويأتي الاستفهام المقترن بالنداء وسيلة للتقرب من الله سبحانه وتعالى لطلب الغفران وكشف الكُرب ، ومن ذلك قول الشاعر :[٢]

أيضيقُ عنْ ذنْبي وإن ضَاقَ الفضا   عَنْهُ حِمَـى هذا النّوال الواسعِ
يا سيّدي وَوَسيلتي أنـــا خائِفٌ   مْن هَـول يومٍ ما لهُ منْ دافعِ
مـــوْلاي زوّدْنـــي فإني راحلٌ   لضَـــرورة قامت مقامَ موانعِ

ويُلحُّ الشّاعر على استخدام أسلوب النداء في أبيات طويلةٍ متتالية ، وكأنه يُعبر بهذه النداءات المتكررة عن المسافات التي تفصل بيْنه وبين الرّسول (ﷺ) في مكانته وعلوّه ، وسعيه الدائب وراء غاية لا قيمه لوجوده من دونها ، مشيراً بذلك إلى معاناته الوجدانية ، وهو يحاول اجتياز المسافات ، كما في قوله :[٣]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١١
٢- المصدر السابق : ٢٠
٣- المصدر السابق : ٩٤

يا خيرَ مــنْ نشري إليـ ـه بكُلِّ صعْـب أو ذلولْ
يا منْ لــهُ الجاهُ العريـ ـضُ يُعدّ لليــوم الطّويلْ
يا صَاحِبَ الحوضِ الذي يَرْوي الظمــاء من الغليلْ
يا مُنْقــذَ العاصي غداً مِنْ ذَلكَ الكـرْب المهوُلْ
يا رَحْمَة نُشِرَتْ على الـ ـكْـوانِ مِنْ مَليك جليلْ
أنــتَ المبوأُ في المفَــا خِرِ ذِروة الشّرفِ الأصيلْ

وقد يأتي النداء لتقرير حقيقة أفضلية الرّسول (ﷺ) على الرّسل الآخرين بصفته خاتمهم ، والشفيع يوم القيامة ، ومن ذلك قوله :[١]

يا مَنْ به الرُّسلُ الكِرامُ توسّلوا فغــدَا توسلُّهــم به مقْبُولا
يا خاتمِ الرُّسل الكــرامِ وأوّلٌ فيهــم وآدمَ طينةٌ مجْبُــولا
يا شافعاً في الأمة الوسطِ الذي أضْحَوا شُهوداً في المعاد عُدولا
يا سيّدَ الكرماء دعْــوةَ مُجتدٍ جَــادَ الزّمان لهُ وكان بخيلا

وقد يستخدم الشّاعر أسلوب الأمر عندما يريد حث النفس إلى المسارعة في التوبة ، ومخالفة الهوى ، ومن ذلك قوله :[٢]

اعملْ حساب النّفسِ عَنْ هفواتها واستــدْرك الطّاعاتِ قبْل وفاتها
واجْهد لنفْسك في الخلاص بكفّها عنْ غيّهــا والصّدِّ عَنْ شهواتها
واعْلم بأنّ الحتــف منْ رُقبائهــا فاسبُــق بتوبتِهــا هُجُوم وفاتها
فاطلبْ لها زاداً وبــادِر فرْصة الـ إمكــانِ مِنْهُ فــي زَمان حياتها

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٤
٢- المصدر السّابق : ٤١

ثانياً : التكرار

يُقرّر ابن رشيق أن « للتكرار مواضع يحْسُنُ فيها ، ومواضع يقْبح فيها ، فأكثرما يقعُ التكرار في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقلُّ ، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه ، ولا يُحبُّ للشّاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التّشوق والاستعذاب إن كان في تغزل أو نسيب ... أو على سبيل التنويه به والإشارة إليه بذكر إن كان في مدح » [1] .

وَيُبنى على هذا القول أن الشّاعر إذا استخدم التكرار في موضعه المناسب من القصيدة ، ووظفه لتحقيق الغاية التي يريدها منه ، فهذا مما يزيد القصيدة جمالاً ، لأن الشّاعر بواسطة التكرار « يُسلّط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها » [2] .

ولكن ما هو موقف الشّاعر شهاب الدين محمود من التكرار ؟ هل جاء به لتحقيق غاية أرادها ، أو قضية تلح عليه ، أي أنه كان يقصد إلى التكرار ، أم ضاقت به طرق التّعبير فلجأ إلى التكرار ؟ وهل للتكرار علاقة بظرف الشّاعر النفسي ؟ هذه عدة من التساؤلات نطرحها على بساط البحث .

الواقع أن الشّاعر شهاب الدّين محمود استخدم التكرار في ثنايا مدائحه النّبوية ، ولم يأتِ به عفو الخاطر ، دون أن تضيق قريحته الشّعرية ، وينضب معينة اللغوي .

ومن ألوان التكرار التي لجأ إليها الشّاعر تكرار الكلمة ، ومن ذلك قوله في مدحةٍ نبوية ، مركزاً على لفظة الشفاعة في البيت الواحد ، وعددٍ من الأبيات التي تليه :[3]

١- ابن رشيق ، العمدة ٢:٦٨٣-٦٨٤

٢- نازك الملائكة ، قضايا الشّعر المعاصر ، (دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨١م) : ٢٧٦

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٠

مُستَشفِعاً بالمُصطَفى الهادي الذي هُوَ في القِيامَة في العُصَاة مُشفَّعُ
ظــلُّ الالهِ وسرُّ رحمتِهِ التـي هـي للشفاعة في البرية تودعُ
فهو الشّفيع المرتجـى إذ ليسَ مِنْ أحـدٍ هناك بغير إذن يشفعُ

والتكرار في الأبيات تكرار بياني ، يقوم على ترداد كلمة مُعينة والإلحاح عليها تأكيداً لمعناها ، وهو ذو دلالة نفسية ، وهي معرفة الشّاعر إنه لا ملجأ ولا مفر يوم القيامة من الله إلا بشفاعة الرّسول الكريم (ﷺ) وهو يسعى إليها ويطلبها ، ولذا يركز عليها في أبياته الشّعرية ويرددها مراراً . وهو تكرار نفسي واعٍ يخرج من دائرة اللفظية الضيقة ، ويضفي على القصيدة نوعاً من التوازن الهندسي ، بحيث لم يثقل التكرار على العبارة ، ولا حال بوزن الأبيات عن جهتها .[1]

ومن تلوينات الشّاعر في التكرار تكرار العبارة ، وأكثر ما يكون ذلك عند ذكر الشّاعر لمعجزات الرّسول (ﷺ) ، إذ كرر الشّاعر الحديث عن معجزات الرّسول في جميع مدائحه النّبوية ، وبتحوير بسيط في الألفاظ أحياناً ، ومن ذلك قوله مشيراً إلى منح الرّسول (ﷺ) لعكاشة بن محصن قضيباً من خشب يوم بدر ، وتحوله في يده سيفاً ماضياً ، مكرراً نفس العبارة في أكثر من تسع قصائد مع تحوير بسيط في الفاظها أحياناً :[2]

وَأعطى ببدرٍ محجناً[3] لعكاشة فألفاهُ منْ أمْضى السّيوفِ مضاربا
وَأعطى ببدرٍ عُودَ نخلٍ عُكاشةً فألفاهُ منْ أمضـى المهندَةِ القُضُب
وَأعطى ببدرٍ عودَ نخلٍ عكاشةً فألفاهُ سيْفاً مُرْهـفَ الحدِّ ماضيا
وَببِدرٍ اعطـى عُكاشَةَ عُوداً فَـرآهُ أمْضـى السُّيـوفَ غرارا

١- نازك الملائكة : قضايا الشّعر المعاصر : ٢٧٨
٢- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح: ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ٧٩ ، ٩٥ .
٣- المِحْجَن : عَصا في طرفها عُقّافَة .

وببدرٍ أعطـــى عُكاشَةَ عُودَاً فغدا وهو صَــارِمٌ مسْلـــوُلُ

قد عُودَاً يوم بـــدْرٍ فأضحى في يدي مُنْتضيه أمْضى السّلاح

قدْ عُوداً يوم بـــدرٍ لامرىء فغدا في الحال عَضْباً[1] ابتـــرا

وحبى عُكاشة يوم بدرٍ محجناً فَغدا له في الدارعينَ مَضـــاءُ

وأعـــدْتَ عُـــودَ عُكاشَـــةَ سَيْفـــاً تنـــزّه عـــنْ فُلُول

والحاح الشّاعر على تكرار ذكر المعجزات من أبواب التكرار البياني فالشاعر يريد التأكيد على العبارة المكررة ، وتلبية حاجة في نفسه وهي إثبات معجزات الرّسول (ﷺ) واشهارها وتأكيد حدوثها ، وترسيخها في أذهان المتلقين .

ومن ألوان التكرار الأخرى عند الشّاعر تكرار بيت كامل أو مجموعة أبيات في آخر المدحة النّبوية ، تأتي جلها في تأكيد الصلاة والسلام على الرّسول (ﷺ) ومن ذلك قوله في خاتمة عددٍ من المدائح النّبوية : [2]

صلّى عليه اللهُ مـــا هُبّت الصّبا وهـــزّت على أعطاف بانٍ ذوائبا

صلّى عليه اللهُ مـــا هبّت صبـــا فاختالـــت الأغصانُ في عذباتها

عليه سلامُ اللهِ مـــا هبّت الصّبا وما افترّ ثغرُ النّور منْ أدْمع السُّحُبِ

فعليه السّلامُ مـــا خطرت ريـــحُ الصّبا فـــي أرجاء روْض نضير

وهذا ما يدعى تكرار التقسيم ، وهو تكرار كلمة أو عبارة في ختام كل مقطوعة من القصيدة .[3]

١- عضباً : قاطعاً .

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٦ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٧٠

٣- نازك الملائكة ، قضايا الشّعر المعاصر : ٢٨٤

وأفضل ما في هذا النّوع من التكرار « أن يُدخل الشّاعر تغيراً طفيفاً على العبارة المكررة في كل مرة يُستعمل فيها ، وبذلك يُعطى القارىء هزة ومفاجأة »[١]، وقد سار الشاعر شهاب الدين محمود ضمن هذا الاتجاه ، إذ أدخل تعديلاً على العبارة المكررة في كل مرة يؤديها .

كما كرّر الشّاعر الحرف في سياق البيت الشّعري الواحد ، أو في عددٍ من الأبيـات المتتالية ، وذلك كنوع من التّلوين الموسيقي ، مما يعطي البيت أو المقطع الشعري موسيقية رائعة ومن ذلك تكراره ، لحرف الشين في قوله :[٢]

مُحمّدٌ أشْرفُ خَلْقٍ نشـــا   وَمنَ مشى بينْ الصّفا والحُجُون

وتكراره لحرف الدال في تقطيع موسيقى عذب ، وذلك في قوله :[٣]

دع الصَّبَّ يُدْمي الدّمْع منْهُ المآقيا   فقد ظنَّ كلّ الظّن أنْ لا تلاقيا

ومنْ ذلك أيضاً تكرارُ الشّاعر لحرف النّفي (لا) أكثر من مرة في عددٍ منْ أبيات القصيدة الواحدة ، وذلك في قوله :[٤]

فعـــادُوا بفخْـــرٍ لا يزُولُ جَمالهُ   وآبُــوا بذُخْـــرٍ لا يبيدُ ولا يفْنى
وآذنهم بِشْرُ الرّضـا بشفاعــــةٍ   بها فيْهِــمُ إعطـــاءُ مُرسلة الإذنا
مُحمدُ المبعوثُ للخلــــق رحْمةً   وَمنَّاً مـــن البَــر الرؤوف تلامنّا
وهادي الورى والغيُّ قد طَبّق الربا   فلا علمٌ للرّشـــد يبْدُو ولا يفنى

١- نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر : ٢٨٥
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧١
٣- المصدر السابق : ٥٣
٤- المصدر السابق : ٨٧

وفي قصيدة أخرى يُكررُ الشّاعر حرف النّفي (لا) في ثلاثة أبيات متتالية وذلك في قوله :[١]

أنْتَ الذي لا بـــابُ إلا بابهُ ... إنْ ضاقت الحيلُ الفسيحةُ يُقْرعُ
أنْتَ الذي لا حصْنُ إلا حفظهُ ... وسواهُ موهُون القوى مُتضعْضعُ
أنْتَ الذي لا ناصرٌ لــي غيْرهُ ... إنْ أجْمعَ الأعداءُ بي وتجمّعـوا

وتكرار الشاعر لحرف النفي (لا) مع حرف الاستثناء إلا وإلحاحه على الضمير ، يحقق فائدة لا غنى عنها في الكلام ، فالشاعر من جهة يقرر حقيقة تفرد الله سبحانه بالعظمة والاستعلاء ، ومن جهة ثانية يؤكد على ظرف الشاعر النفســي وشعوره بالضّيق ، ويقينه الراسخ بأنه لا ملجأ ولا ملاذ للخلاص من هذا الضيق ؛ إلا بالله عزّ وجل .

ومن تلوينات الشّاعر في التكرار ، تكرار المعنى ، ومن ذلك جعله دليل الركب نحو الحمى النّبوي ، هو ذلك الأريج الذي يهب من تلقاء الحمى المقدس ، ومن ذلك قوله :[٢]

ويعتسفُونَ البيدَ يرشدهم بها ... إلى الدّار إن ضَلوُّا الطّريقَ شَذاها

وقوله في قصيدة أخرى :[٣]

واسْترْشدَ الرّكْبُ إذْ حارَ الدَّليلُ بهم ... بما تلقَـــوهُ دُونَ الحيّ مِنْ أَرَجِ

وإلحاح الشّاعر على هذا المعنى في معظم قصائده جاءِ ليبين الشّوق الشّديد الذي كان يعانيه ركبُ الحجيج للوصول إلى الحمى .

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٩
٢- المصدر السابق : ٥٩
٣- المصدر السابق : ٨٢

كما كرر الشّاعر في الصورة الشّعرية ، ومن أمثلة ذلك جعله الصّبر ثوباً يُرقع بكف الوصل تارةً ، وبيد الغرام تارة أخرى ومن ذلك قوله :[١]

وترفأُ كفَّ الوصْلِ ثَوبَ تصبّرٍ يجاذبُه الشُّوقُ الذي ليْسَ يرْفُقُ

وقوله :[٢]

غَدا رَاقِعاً ثَوْب التَّصبُّرِ بعْدما غدا وهوُ في أيْدي الغرام مُمَزّقُ

وفي صُورة أخرى يجعل هوى النّفس والذّنب ثياباً ينتزعُها وذلك في قوله :[٣]

ولعلي أنْضُو[٤] ثياب هوى النّفـ ـس وألقـــــى الإله منْها عَرِيًّا

وقوله في بيت آخر :[٥]

واكتسوا بالرّضى وَقَـــــدْ فارقُوهُ حُلَّـــةً عنْ ملابس الذّنب تُعْرىَ

ويجعل التّوبة في صورة ثوبٍ يُلبس ، يقول في بيتين متتابعين :[٦]

وكساني ثـوْب القَبُـــــول لديْه فهْـو عنْدي أغْلى وأشْرفُ خلعهْ

ثوبَ توب يضْفُو عليّ ولا أحْـ ذرُ حتىّ ألقـــاهُ في الحشر خلعهْ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٥
٢- المصدر السابق : ٣٤
٣- المصدر السابق : ٥٨
٤- أنضو : أبلي
٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٦٣
٦- المصدر السابق : ١١٧

ثالثاً : القَصَصيَّة

« القصة في الأدب شكل من أشكال التعبير ، تتبلور فيه أذكى نفحات المشاعر ، وتتجلى فيه شتى النوازع والعواطف ، من إنسانية وقومية وتاريخية واجتماعية ووجدانية ، من خلال سرد حادثة معينة بإسلوب يستحوذ على القارىء ، ويثير انتباهه فيتابعها بشغف ولذة » [١].

والأسلوب القصصي معرض لفنون الكتّاب ، ومجال واسع لإظهار قدراتهم الأدبيّة والفنية وأساليب التفكير لديهم ، لهذا كانت القصص من أعظم الأنواع الأدبية في آداب الأمم ونتاج قرائحهم قديماً وحديثاً ، بل أبقى تلك الأنواع جميعاً وأشدها جذباً للنفوس ، وأعمها فائدة ونفعاً في تغذية العقول ونشر الفنون الكتابية .[٢]

وكل قصيدة تُقصُّ ، قصة ، يكون الغرض الظاهر منها حكاية هذه القصة ، تسمى شعراً قصصياً .[٣]

وقد زخر الشّعر العربيّ القديم بالملامح العامة للقصة ، فعنترة بن شداد في معلقته « يقص على ابنة عمه عبله أخباره في الحروب وما أبلاه فيها » [٤] ، وامرؤ القيس يعرض في معلقته أخباره مع النّساء وحديثه معهن ، والمنخل اليشكري يعرض قصيدته بشكل حوار مع فتاته يخاطبها وتخاطبه ، كما اتخذت القصة الشعرية عند الأعشى أشكالاً مختلفة[٥] .

١- عزيزة مريدن ، القصة الشّعرية في العصر الحديث ، (دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٤م) : ١٣

٢- أحمد ضيف ، القصص في الأدب العربي ، (مجلة المقتطف ، فبراير ، ١٩٣٥م) : ١٤٥

٣- أحمد أمين ، النقد الأدبي ، (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢م) ١:٨٠

٤- عزيزة مريدن ، القصة الشّعرية في العصر الحديث : ٣١

٥- عباس بيومي عجلان ، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى ، (مؤسسة شباب الجامعة ، مصر ، ١٩٨٥م) : ٣٧١

ويمكن القول إنّ الشعراء العرب القدماء قد أدخلوا القصّ في ثنايا قصائدهم الشعرية ، أثناء سردهم لوقائع أو حوادث معينة ، ولكن دون أن تكتمل لديهم عناصر القصة بالمفهوم الحديث، وإنما تقوم في الأعم الأغلب على السّرد والتقرير والحوار أحياناً.

والقصة الشّعرية ، أكثر جمالاً من القصة النّثرية ، لأن « القصة الشعرية تجمع بين شكلين لكل منهما أهمية كبرى في الأدب ، وإذا كان الشّعر يصور جانب الحياة كما تنعكس على نفس الشّاعر ، فيوحي بها ، ويلقي إلينا بأشعتها وظلالها ، وإذا كانت القصة تصور الحياة نفسها في جميع دقائقها ولحظاتها ، فإن القصة الشعرية تجمع بين هاتين الصورتين ، وتجعلنا نحيا التجربة النّفسية الواحدة في نطاق أوسع ، وأفق أرحب ، إذ تطرق أبواب تفكيرنا ومشاعرنا وتسمو بخيالنا وتأملاتنا فنحيا التجربة مرتين »[١] .

وسنحاول عبر الصفحات القادمة تلمس مظاهر القصصية في مدائح الشّاعر شهاب الدين محمود ، ومدى مراعاته لعناصر القصة .

لقد أدخل الشهاب عنصر القص التاريخي في عدد من مدائحه النّبوية ، معتمداً في أغلب الأحيان على عنصر السّـــــرد التاريخي ، وعلى عرض صــور قصصية تُعنى « بتصوير شخصية واحدة أو جانب منها ، أو ترّسم لنا لمحه من لمحات الحياة ، فيها ملامح القصة العامة وفيها الروح القصصية ، ولكنها موجزة مركزة ، ضمن موقف واحد معين » [٢] .

يبدو السّرد القصصي في معظم قصائد الشّاعر واضحاً إذ تحس أثناء قراءة القصيدة ، وكأن الشّاعر يقرأ من كتاب في السيرة ، ويصوغ ما يقرؤه في كلام شعري منظــــوم ، وبخاصة في الجزء المختص بحياة الرّسول (ﷺ) وشخصيته ؛ فهو يصورُ

١- عزيزة مريدن ، القصة الشّعرية في العصر الحديث : ٢٣

٢- المرجع السّابق : ٢٥

الرّسول (ﷺ) وشجاعته وصفاته ، ويتحدث عن معاركة ، وجهاده الذي ينتهي بانتصاره ، مغلفاً ذلك بإطار مكاني وزماني ، وواضعاً الحقائق التاريخية الثابتة في قالب فني جميل . ومثل ذلك قوله في إحدى مدائحه النّبوية مظهراً الكثير من عناصر القصة من حدث ، وشخوص ، وحوار ، ومكان .... [1] .

وفي الغمامـةِ إذْ كَانَـت تُظلّلـهُ أنّـى توجّـهَ مـرْأى كُلـهُ عجبُ
وقـدْ رآه بُحيْـرا ثُـمّ وَهْوَبِهـا مِنْ حرّ شَمْس الضُّحى في البّر مُحْتجبُ
فضيّـف الرّكب كي يبْلو خصائِصَه عِلمـاً وتذْهـب فِيْـه عِنْدهُ الرّيَـبُ
وقـال للعمّ : مَنْ هـذا فقال لهُ ابني قال لا ما لهذا فـي الحيـاةِ أبُ
هـذا النّبيُ الذي قَدْ كانَ بَشّرنـا عيسى به وأَتَتْ مِنْ بَعْـدِهِ الحِقَـبُ
فارجـع به واحذَر القَومَ اليهودَ على عِرْفَانه فهـوَ عِنْدَ الكُلّ مُرْتقـبُ

ويضيف الشّاعر :

وجاءهُ الوحيُ بَعْد الأربعينَ فما ثنـاهُ عن بثّه خوْفٌ ولا رَهَبُ
فقام يدْعوُ بأمْـر الله مُنْفـرداً وللضـلالِ جُيْوشٌ كُلّها تجبُ
وقاطعـوُه وآذوه بجهدهـم في الله وهو عليهم مُشْفقُ حَدِبُ
يروُدُهم ويُداريهُـم ويحْلمُ عنْ جُهّالهـم ويُراضيهـم إذا غضبُوا

ويأتي حسن النّسق وتوالي أبيات القصيدة مساعداً على عملية السّرد القصصي التاريخي ، ومن ذلك قوله في مدحة نبوية :[2]

فبنى عليه العنْكبُوتُ خديعـةً بهمُو وصاح به الحمامُ هديلا
وأتى سُراقة يبْتغي بك عنْدهم مـالاً غدا لغُواتهم مبْذولا

١- الشهاب محمود ، اهنى المنائح : ١١٢
٢- المصدر السّابق : ١٢-١٣

فَوهــتْ عَزيمَتهُ وساخ[1] جواده		فــي الأرضِ مُرتطماً بها مشكوُلا
وأتيــتَ خيمةَ أمّ معْبدَ قاصداً		فيهــا وقَــدْ حميَ الهَجيرُ مقيلا
فرأيــتَ في كسْر الخِباء شُويهةً		عَجْفاء يابسَــةُ الضُّــروعِ هَزيـلا
فمسحتَ ضِرْعيها فَدرّت حالباً		رَسلاً يظنُ لَهُ المعيــنُ رسيــلا
فشربْــتَ والرّهطَ الذينَ بدارِها		وَترَكْتها شَكْرى[2] الضُّروع حَفُولا

ويشير ابن رشيق إلى أن مراعاة الشّاعر لحسن النسق دليل على ثقافته ، وقوة تمكنه [3] ، وهذا ما كان يتمتع به الشاعر وكشفت عنه مدائحة النّبوية .

وعنصر السّرد التّاريخي أدخل الشاعر في دائرة النظم والنثرية ، فجمع الشاعر لكل ما يتعلق بالرّسول (ﷺ) من مدح وسيرة ووضعه في قصيدته ، يجعل القصيدة سرداً تاريخياً خالياً من الشّاعرية أحياناً ، وقد يرجع ذلك إلى صنعة الشاعر الرئيسة التي اشتهر بها أكثر من الشّعر ، ومارسها زمناً طويلاً وهي الكتابة ، ومن القصائد التي يغلب عليها النظم قول الشّاعر :[4]

كُلّ يَوْمٍ تنوي الرّحيــلِ مِــراراً		ثُــمّ تغْــدُو تُلَفّــقُ الأعْـذارا
وتُديم الأسى وأنْت الذي فــرْ		رطت حَتّى صـار اللقاءُ ادكارا
وتُوالي البُكاءَ والدّمعُ لا يُــدْ		ني إذا ما قعــدْت منك المزارا
وتُحيل الأبْطــاء مِنْهُمْ على عجـ		زِك والصّـــبُّ يأنفُ الاعتذارا
ثُمّ لا ضَعْف إذا حثّــك الشّو		ق إلى القُـرب شامكَ الأقْطارا

وقد تستبدُّ بالشّاعر أحياناً صنْعتُه في مجال الكتابة فيستمر التّدفق الشعري عنده مُتصل الأبيات وكأنه سطر نثري ، ومن ذلك قول الشاعر :[5]

١- ساخ : غرز في الرمل .
٢- شكرى : ملأى من اللبن .
٣- ابن رشيق ، العمدة ١:٢٦١
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٦
٥- المصدر السابق : ١٠١

حالَ بيْني وبينْ أوصَافهُ العجْزُ فَمهمَــا أطلْـــتُ كان اخْتصارا

ليس مثْلـي منْ خِيَــل حلبة ذاك المدْحِ هيهات تلك أنأى مغـارا

غير أني شجعت نفسي على الجر ي لعلي أشقُّ ذاك الغُبـارا

ولعلّي أمْحـــو بمدْح رسُول اللهِ مِنْ منْطقـــي ذُنوبــاً كبــارا

أنا أرْجُـو أنْور الشّفاعةَ يهْديني إليـه إن زاغ طرْفـي وحــارا

ولعــلّ أمـرأ أراهُ فيدْعـــو الله لـــي أو يَجدّ لـي استغْفـارا

فعليه صلاةُ مَـــنْ أنزَل الذّكر عليه مــا حَــثّ ليــلٌ نهارا

وعليه السّلامُ مــا قَطَعَ الرّكبُ إليــــهِ الآصَــالَ والأسحَــارا

ويلاحظ على هذا الأسلوب عند الشاعر من حيث الشكل أن أكثر القصص الشعرية عنده لم ترد في قصائد منفصله ، وإنما أتت في ثنايا مدح الرّسول (ﷺ) عند حديثه عن قصة الراهب بحيرا مع أبي طالب ، أو حديثه عن هجرة الرّسول وما جرى معه من أحوال في الطريق إلى المدينة . . . لذا فهي قصٌ لحوادث أو وقائــع محدودة ، « كما جرت بأسلوب لا يجعلها قصاً بالمعنى الصحيح ، وإنما يصح أن نعدها صوراً قصصية ، إذ تنقصها المعالجة الصحيحة للموضوع ، والتحليل الدقيــق للبواعث والتعبير الفني عن الصراع النّفسي ، والتصوير العميق الذي يدل على تحسس الحقائق النّفسية » [١].

وتميزت هذه الصّور القصصية الشّعرية بالاعتماد على الحوار السّردي أكثر من العناصر الأخرى للقصـــة ، إذ اهتم الشّاعر بالحدث ، وتسجيل حوادث الواقع التاريخية ، لتأصيل هذا الواقع في نفس المتلقي ، فاعتمد عل السّرد التقريري أكثر من اعتماده على العناصر الأخرى للقصة .

١- عزيزة مريدن ، القصة الشعرية في العصر الحديث : ٤٩

رابعاً : التأثر بالقُرآن الكريم والحديث الشريف

زَيَّنَ الشّهاب محمود مدائحه النّبوية ببلاغة القرآن الكريم ، والحديث النّبوي الشّريف ، فاستمد كثيراً من ألفاظهما ومعانيهما ، ومن ذلك قوله :[1]

وأويت كي يخفـى شراك عليهمو — غـاراً وصاحبـك اتخذت زميلا

فتقولُ حين ترى خُطاهم لا تخف — وكفــى بثانِ اثنين فيه وكيــلا

فهو ينظر إلى قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره اللهُ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هُما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »[2] .

وعندما أراد الشّاعر أن يُصور الرّسول (ﷺ) نبع الرّحمة الإلهية ، ونذيرَ اللهِ لعباده ، اقتبس من معاني القرآن الكريم وألفاظه ، ومما زاد الأمر جمالاً ، حُسْن توفيقه بين عدد من الآيات القرآنية الكريمة ، وإظهارهــا في بيتٍ شعري واحد ، وذلك في قوله :[3]

مُحمَدُ المبْعــوثُ للخَلقِ رَحْمَةً — نَبيُّ الهُدَى هَادي الوَرَى ونَذيرُها

فقد قبس الشّاعر من قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين »[4] ، ومن قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافــةً للنّاس بشيراً ونذيراً ، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون » ،[5] وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا مُبَشّراً ونذيرا » .[6]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١
٢- التوبة ، آية : ٤٠
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٧
٤- الأنبياء ، آية : ١٠٧
٥- سبأ ، آية : ٢٨
٦- الفرقان : آية : ٥٦

ولمّا أراد الشّاعر أن يشكو ما مَسّهُ من ضرٍ إلى الله ، اتكأ على قوله تعالى : « وإذا مَس الإنسان الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » [١]، وذلك بقوله :[٢]

يا مَـــــنْ أُناجيه لضرٍ مسّني   جَزِعاً فيكْشفُ ماَ شكَوْتُ ويرفعُ

وقوله في قصيدة أخرى : [٣]

فإلى اللهِ اشتكـــــى وأُرَجّـــى   مِنْ مُجيب المُضْطرِّ كشْفَ الضُّرِ

وهـــــو ينظر أيضاً إلى قوله تعالى : « أمّن يُجيبُ المضطرّ إذا دعاه ويكشف السُّوء »[٤] .

وعندما يصف الشّاعر القرآن الكريم ، فإنُه يستعين له وصف الله - عزّ وجل - مما جاء فــي آياته الكريمات ، إذ قال جلّ وعلا : « قرءاناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون » [٥] .

ويقول الشّاعر في ذلك :[٦]

يتلوُن فيها كتاباً جاءهُ سُوراً   منْ ربّه عَربياً غْير ذي عوجِ

ويرسم الشّاعر صورة رائعة لعتاب النّفس ، وتأنيبها على الغرور والتقاعس ، والانصراف عن التّوبة ، مقتبساً ذلك من معاني القرآن ، وذلك في قوله :[٧]

١- يونس ، آية : ١٢
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٩
٣- المصدر السابق : ٦٤
٤- النمل ، آية : ٦٢
٥- الزمر ، أية : ٢٨
٦- الشهاب محمود : أهنى المنائح : ٨٣
٧- المصدر السابق : ٨٣-٨٤

وعلامَ أوقنُ بالمعـــادِ ولا أرى — رُوحـــي تَعـــدُّ ذَخيرتي لمآبي
أأَقولُ مدّلـــي الغُـرُوْر عنانـــهُ — فركَضْتَ في شَوْطي صِباً وَتَصابي
أو ما يُقالُ فهبْـــكَ أيامَ الصّبا — كنُتَ اعتقلْتَ بهـــذِهِ الأسْبَابِ
أو ما انْقَضى عَصرُ الشبابِ وآذنت — أيّامُ لهـــوِكَ والصّبا بذِهـــابِ
وأقمْتَ أنْتَ على الغُرور وَقدْ نَرى — فتْكَ الرّدى ومصـــارِعَ الأترابِ
هذا إذا قدّرْت جهْـــلاً أنّهُ — يقـعُ العتابُ ولاتَ حيـــنَ عِتابِ

فقد شكّل الشّاعر أبياته من وحي الآية الكريمة ، في قوله تعالى : « ص والقرءانِ ذي الذّكرِ ، بل الذينَ كفروا في عِزة وشقاق ، كم أهلكنا مِن قبلهم من قرنٍ فنادوا ، ولات حين مَناص » (١).

واستوحى الشّاعر قصة يوسف وإخوته عندما دخلوا عليه يشكون القحط ، ويطلبون منه الصدقة ، ومقايضة البضائع ، كما في قوله تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرُّ وجئنا ببضاعةٍ مزجاة(٢) ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين » (٣) . فاستعار هذه الصورة لوفود الحج القادمة لطلب عطايا الرّحمة والمغفرة ، كما في قوله :(٤)

حَيثُ الوفودُ تُجِلُّ عَاطِرَ تربهـــا — عَـنْ وَطئِهِ إلا عَلـــى وجناتها
وإذا الجلالة أفحمـت فُصَحاءَهــا — وَكَلَـــتْ عبارتها إلـى عَبَراتها
وتباشرت فَرَحَـاً بكفِّ عنائهـــا — وزوال عِلَّتِهـــا وَفَـكّ عناتها
وَرأَتْ بِضَاعَة قَصْدِها قد عُوِضَت — بنفائِـس الحسناتِ من مَزْجَاتها

١- ص ، آية : ١-٣
٢- بضاعة مُزجاة : يسيرة قليلة .
٣- يوسف ، آية : ٨٨
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٣

ومن سورة النور حيث يضرب الله مثلاً لنوره كمكشاة فيها مصباح في قوله تعالى : « اللهُ نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » ،[١] يقتبس الشّاعر هذا التشبيه الرباني القرآني ليصور الهدى الذي أفاضه الله على الحجيج ؛ مصباحاً أضاء متألقاً ، من زجاجة مملوءة بزيت الإيمان ، حيث يقول :[٢]

فأضاءَ مصباحُ الهُدى متألقاً   بزجاجةِ الإيمانِ مِنْ مَشْكَاتها[٣]

ويصـــدر الشّاعرُ عن شعور إيمانيّ عميق ، واعتقاد تام بالمراقبة الإلهية ، وذلك في قوله :[٤]

أَلم أدْر أني كُلَّ مَا فَاهَ منْطِقَى   بشيءٍ فَقَدْ أمْلَيـــتُ ذَلِكَ كَاتِبا

فهو ينظر إلى قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيدٌ »[٥] .

ومن مشاهد يوم القيامة حيث لا ينفع مال ولا ولد يقتبس الشاعر في قوله :[٦]

وَالكَرْبُ قدْ عَمّ الأنَام وَلا يُرى   مَـــال وَلا وَلدٌ هُنالك يَنْفـــعُ

قوله تعالى : « يوم لا ينفعُ مال ولا بنون » [٧] .

وعندما يضيء البرق من تلقاء الحمى النّبوي يكاد يخطف أبصار ركب الحجيج لولا رحمة الله ، وذلك في قول الشاعر :[٨]

وَيكادُ الإشْراقُ يَخْطِفَ لوْلا   رحْمَـــةُ اللهِ مِنْهُم الأبْصَارا

١- النّور ، آية : ٣٥
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٣
٣- المشكاة : كل كوة ليست بنافذة .
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٤
٥- ق ، آية : ١٨
٦- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٣٠
٧- الشعراء ، آية : ٨٨
٨- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٧

فإن الشاعر في ذلك ينظر إلى قوله تعالى : « يكادُ البرق يخطف أبصارهم ، كُلما أضاء لهم مشوا فيه » [١].

ويلاحظ مما سبق وضوح الأثر القرآني في مدائح الشّاعر النّبوية ، إذ لا تكاد تخلو مدحةٌ نَبوية من أنماط التأثر القرآني ، لفظاً أو معنى أو أسلوباً ، إذ اعتمد الشّاعر على ثقافته الدينية ، وقوة إيمانه ، فانكب على القرآن الكريم ليوظف آياته في شعره .

واقتبـــاسُ الشّاعر من القرآن الكريم ، « يعنى محاولة التقرب من تلك الذروة العالية ، وكلما ازداد الشّاعر في اقتباسه كان أقرب إلى تلك الذروة »[٢] .

كما تأثر الشّاعر بالحديث النّبوي الشّريف ، ومن ذلك قوله :[٣]

وَشَفاعَةُ الهادي إذا جَثَـــتِ الورى   مِنْ هَـــوْل موْقفِها عَلى رُكباتها
يأتــــــي فيحْمــــــدُ ربّهُ بمحامدٍ   لا تُـــدركُ الأفْهـامُ كُنْه صِفاتها
فيقال سَلْ واشْفَع فَقَدْ أُعطيتَ منْ   رُتَـــبِ الشّفاعــة مُنْتَهى غاياتها

والشّاعر يُشير إلى حديث طويل عن شفاعة الرّسول (ﷺ) لأمته ، بعد أن يحيد عنها الرّسل السّابقون ، ويقتبس بالتحديد قولـــــه – عليه السّلام – « فأنطلقُ فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح اللهُ علي من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد أرفع رأسك سل تُعطه ، واشفع تشفّع ... »[٤] .

١- البقرة ، آية : ٢٠
٢- سامي مكي العاني ، إقتباس شعراء صدر الإسلام من القرآن الكريم ، (مجلة آداب الجامعة المستنصرية ، العراق ، العددان ٢٠ -٢١ ، ١٩٩١م) : ١٧
٣- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٢
٤- النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف ، رياض الصالحين ، تحقيق حسان عبدالمنان ، (مكتبة برهومة والمكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٣ ، ١٤١٣هـ) : ٤٨٤

ويبدو الشّاعر متأثراً بحديث رسول الله (ﷺ) : « أعطيتُ خمساً لم يُعطهن أحد قبلي ؛ نُصرت بالرُّعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النّبي يبْعث إلى قومه خاصة ، وبعثتُ إلى النّاس عامة »[١] . وذلك في قول الشّاعرِ :[٢]

واللهُ خصّكَ في الأنــامِ بخمْسَةٍ	لَـمْ يُعْطها بَشَرٌ سِـوَاك رسُولا
حِلُّ الغَنائم في الجهـات ولم تَزلْ	للنّـار يـوْمَ تَقَـــرُّبٍ مأْكُولا
والأرضُ أجْمَـــعُ مسْجدٍ وتُرابُها	طُهْــرُ يبيحُ الفــرضَ والتّنْفيلا
وشفاعَـــةً عَمّتْ وارسالٌ إلــى	كـل الورى طـراً وجيلا جيلا
ونصرت بالرعب الشديد فمن ترد	تغـــزوه بـــات بذعره مخبولا

ويستوحي الشّاعر حديث رسول الله (ﷺ) : « ما بين بيتي ومنبري روضةٌ مِنْ رياض الجنّة »[٣] ، في حديثه عن وصول ركب الحجيج إلى الحمى النّبوي ، ويستخرج من ذلك أبياتاً تفيض بالشّاعرية ، كما في قوله :[٤]

هُنالِكَ تَلْقَى رَوْضة الجنّة التــي	يُلاقِيهِ مِنْهـــا عرفُها مُتنَسّمــــا
وإن عَايَنت عَيْناهُ خَلْفَ سُتُورُها	سَنَا حُجْرَةِ الهادي فقد أمِن العَمى
يَرَى مَنْبَر الهادي ومؤضِـع قَبْرِهِ	ومُزْدَحمُ الأملاك والوحي فيهمـــا

١- البخاري ، ابو عبدالله محمد بن إسماعيل ، الجامع الصّحيح ، (المكتبة الثقافية ، بيروت ، د.ت) ١ : ١٤٩ - ١٥٠ و ٤ : ١٣٤

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٤

٣- صحيح البخاري ٢ : ١٣٧ و ٢ : ٢٣٨

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٤-٢٥

خامساً : الاستدعاء

يمكن القول إن الشّاعر شهاب الدّين محمود قد أتّبع منهجاً توفيقياً في مدائحة النّبوية ، ونقصد بالمنهج التوفيقي ؛ « أن يحتفظ الشّاعر بخصائص الشّعر العربي القديم العامة في شعره ، دون أن يخلي هذا الشّعر من معطيات عصره وخصائصها الأدبية ، بحيث يكون فيه من مظاهر التجديد ما يتساوق مع مقاييس العصر الأدبية »[١] .

وكان هذا شأنُ الشّاعر شهاب الدّين محمود ، فلم يُتابع القُدماء إلى حد الأغراب والتعقيد ، ولم تصل السهولة في شعره إلى درجة الركاكة والضعف .

وقد تأثر الشّاعر شهاب الدين محمود بعددٍ من الشعراء العرب السابقين ، واستدعى مقاطع من أبياتهم في مدائحة النبوية ، وقد أطلق ابن رشيق على ذلك اسم التضمين بقوله : « فأما التضمين فهو قصدُك إلى البيتِ من الشّعر أو القسيم ، فتأتي به في آخر شعرِك أو في وسطه كالمتمثل ... ، وهذا النوع من التضمين جيد وهو الذي أردنا من قبلُ ، وأجود منه أن يصرف الشاعر المُضَمِّن في وجه البيت المُضمّن عن معنى قائله إلى معناه »[٢] .

ولا يُعابُ على الشّاعر تناول المعاني التي سُبق إليها إذا أبرزها في أحْسَن من الكُسوة التي عليها ، بل له فضل لطف المعنى ، وإحسانه فيه كما يشير إلى ذلك ابن طباطبا .[٣]

ويُقرر أبو هلال العسكري ، أنه لا غنى للشعراء « عن تناول المعاني ممن تقدمهم ، والصّب علـــى قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ،

١- محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر بن القيسراني ، (دار البشير ، عمان ، ط٢ ، ١٩٨٨م) : ١٨٤

٢- ابن رشيق ، العمدة ٢ : ٧٠٣ - ٧٠٤

٣- ابن طباطبا ، عيار الشّعر : ١٢٣

ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوها في حسن تأليفها ، وجودة تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم أحقُّ بها ممن سبقها »[١].

وقد تأثّر الشّاعِرُ شهاب الدّين محمود بعدد من الشُّعراء العرب السّابقين ، واستدعى مقاطع من أبياتهم في شعره ، ومن ذلك قول الشّاعر في إحدى مدائحه النّبوية :[٢]

أغرُّ أبلجُ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بِـــهِ   علا به وَهوَ أعْلَى ما يَرى النَّسبُ

وهذا البيت مُضمَّن من بيت شعرٍ لأبي طالب عمِ الرّسول (ﷺ) مع تحوير بسيط ، إذ جاء بيتُ أبي طالب على النّحو التالي [٣]:

وأبيضُ يُسْتَسْقـــى الغَمام به   ثَمالُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل

كما اعتمد الشّاعر في بعض أبياته المستدعاة على قلب الدلالة الأُصلية للبيت ومن ذلك مطلع مدحته النّبوية الذي يقول فيه :[٤]

ما آذنته ببينها أسْمَـــــاءُ   فنقُولُ ثـــاوٍ ملّ مْنهُ ثواءُ

وهذا البيت مضمن من مطلع معلقة الحارث بن حلزة الذي يقول فيه :[٥]

آذنتنا ببينهـــــا أسْماءُ   رُبَّ ثـــاوٍ يَملُّ مْنهُ الثّواءُ

١- العسكري ، أبو هلال الحســن بن عبدالله ، كتاب الصّناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، (دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٢م) : ١٩٦

٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٢

٣- ديوان أبي طالب عمّ النّبي ، جمع وشرح محمد التونجي ، (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م) : ٦٧

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٦

٥- الزوزني ، ابو عبدالله الحسين بن أحمد ، شرح المعلقات السّبع ، (دار البيان ودار القاموس الحديث ، بيروت ، د.ت) ٢١٦

ويقول الشّاعر في مدحةٍ نبويةٍ أخرى :[١]

مَعَاهِدُ فيها للرّسُول وصحْبه ـــــ بقيّـــةُ آثَارٍ تروُقُ وإيثـــــار

ويستقي الشاعر بيته السابق من بيت حسّان بن ثابت في رثاء الرّسول (ﷺ) قوله :[٢]

بِطيبةَ رَسْمٌ للرّسول وَمعهدٌ ـــــ مُنيرٌ وقد تَعفو الرُّسومُ وتهمدُ

وقول الشّاعر في مدحةٍ نبوية أخرى معتمداً على قلب دلالة البيت المُضمّن إلى الدلالة الجديدة :[٣]

وبان المُصلّى والنّخيل وأقْبلت ـــــ وُجوهٌ زهاها الحسنُ أنْ تَتلثّما

قال الصّفدي : فهو مُضمّنٌ من قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :[٤]

فلما توافينا وسلّمتُ أشرقت ـــــ وُجُوهُ زهاها الحسنُ أن تتقنّعا

ويستدعي الشّاعر قول جرير بن عطية :[٥]

ألستُم خَيرَ مَنْ رَكِبَ المطايا ـــــ وأنـــدى العالمينَ بُطُونَ رَاحِ

فيقول في إحدى مدائحة النّبوية متحدثاً عن الرّسول الكريم :[٦]

وقل يا خَيْرَ مَنْ رَكب المطايا ـــــ وَمَنْ شرُفـــت بمولده تُهامة

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٢

٢- حسان بن ثابت ، ديوانه ، شرح عبدأ مهنا ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م) : ٦٠

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٤

٤- الصفدي ، الغيث المسجم ١ : ١١٤

٥- جرير بن عطية ، ديوانه ، شرح محمد الصاوي مضافاً إليه تفسيرات العالم اللغوي أبي جعفر محمد بن حبيب ، (دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د٠ت) : ٩٨

٦- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٤٠

ويتمثل الشّاعر شهاب الدين محمود قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم بعد فتح عمورية والتي يقول في مطلعها :[١]

السّيْف أَصْدقُ إنْبَاءً مِنَ الكُتُب　　　في حَدّهِ الحدُّ بَيْنَ الجدّ واللّعب

ويقول في بيت آخر :[٢]

فتْحُ الفُتُوح تعالى أنْ يُحيط بِهِ　　　نَظْمٌ مِنَ الشّعرِ أوْ نثْرٌ من الخُطَبِ

فقد وضع الشّاعر شهاب الدّين محمود ، هذه القصيدة أمام ناظريه ، أثناء إنشائه لعدد من مدائحه النّبوية ، ومن ذلك قوله :[٣]

ماذا يَفُوه بِهِ امرؤ لـــو أنّهُ　　　نظم النّجوم من القريض بديلا

الأمرُ أعْظمُ أنْ يُحاط بوصْفه　　　منْ رام عدّ القطْر كَانَ جهوُلا

وقول الشّاعر في مدحة أخرى :[٤]

الأمرُ أعظمُ أنْ يُحاطَ بكُنْهِهِ　　　مَـــا ذاك ممـــا تبْلُغُ البُلَغَاءُ

وقوله في مدحةٍ ثالثة يُبين حصره عن وصف الرّسول مهما قال فيه من الأشعار والخطب :[٥]

مـــاذا أقولُ وقولي فيه ذُو حصرٍ　　　ودوُن أوصافِــه الأشعَـــارُ والخُطَبُ

الأمــرُ أعظمُ قدراً أنْ يُحاط به　　　هلْ يُحْصَرُ القَطْرُ أم هلْ تُحْصَرُ الشُّهُب

١- أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، ديوانه ، ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبدة عزام ، (دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، د.ت) ١:٣٢

٢- المصدر السابق ١:٣٥

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٤

٤- المصدر السابق : ٧٩

٥- المصدر السابق : ١١٣

ويعدّ التفات الشّاعر إلى اشعار الشعراء العرب السابقين ، وتضمينه مقاطع من أشعارهم في مدائحه ، « صورة من صور التعبير عن صلة الشعراء بتراث الأمة الشعري ، ومظهراً من مظاهر الاعتزاز بتلك الأشعار »[١].

كما قام الشّاعر في ثلاثة مدائح نبوية من ديوانه بترسم لمنهج قصيدتين سابقتين احداهما جاهلية والأخرى إسلامية ، إذ حاكى الشّاعر البُنية الموسيقية لهما ، وتابعهما في الفاظهما وتراكيبهما وقافيتهما .

فقد تأثر الشّاعر بقصيدة المنخل بن الحارث اليشكري التي مطلعها :[٢]

إن كُنْتِ عاذلتي فَسَيري　　　نحو العِرَاق ولا تَحُوري [٣]

وهي قصيدة لاهية ماجنة ، جمع فيها صاحبها بين الجزالة في الألفاظ ، والسهولة والإنسياب الموسيقي ، ذي الأثر الغنائي الجميل ، إذ جعلها على مُخلّع الكامل ، ويصف شوقي ضيف هذه القصيدة بأنها قصيدة مُطْرِبة مُرْقصة [٤].

وقد ترسم الشّاعر شهاب الدّين محمود في مدحةٍ نبويةٍ منهْج هذه القصيدة اللّفظي والوزني ، وأخذ قافيتها وبحرها ، بل واستدعى الكثير من ألفاظها ، ولكنه وظّفها في غرضه الجديد ، وهـــو مدح الرّسول (ﷺ) يقول الشّاعر في مطلع قصيدته :[٥]

طَابَ المسيرُ لنا فسيروا　　　نِعْم المَصيرُ غداً نصيرُ

١- سامي مكي العاني ، الحركة الشعرية في الأنبار خلال القرن السادس الهجري ، (مجلة آداب الجامعة المستنصرية ، العراق ، العددان ، ١٨ ، ١٩ ، ١٩٩٠م) : ١١٠

٢- الأعلم الشنتمري ، أبو الحجاج يوسف بن سليمان ، شرح حماسة أبي تمام ، تحقيق علي المفضل حمودان ، (دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م) ١ : ٢١٦

٣- تحوري : تضلي .

٤- شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقدة : ٣٣

٥- الشهاب محمود : أهنى المنائح : ٧٩

ومن الألفاظ التي وردت في قصيدة المنخل ، واستخدمها الشّاعر شهاب الدين محمود في قصيدته قول المُنخّل :[١]

فإذا انتشيتُ فإنّنــــي   ربُّ الخورنقِ والسّدير [٢]

ويقول شهاب الدين محمود :[٣]

وترى الحدائِقَ والنّخيـ   ـلَ فَما الخورْنقُ والسّديرُ

ويلاحظ هنا كيف قلب الشّاعر الدلالة في هذا البيت عن دلالته في بيت المنخل السابق ، فإن كان المنخل عندما أخذته النّشوة ، تخيل نفسه صاحب قصري الخورنق والسّدير ، فإن رؤية الشّاعر لحدائق الحمى النّبوي ، أجل شأناً ، واعظم قدراً من قصري الخورنق والسّدير .

ويقول المنخل :[٤]

أقْرَرْتُ عيْنــــي مِنْ أُولـ   ـئِــــكَ والكواعِبَ بالعَبير

ويقول الشاعر :[٥]

وَتَهِبُّ أَنْفَاسُ القُبـــــو   لِ فَما الرّياضُ ومَا العَبيرُ

وهنا أيضا قلب الشّاعر دلالة البيت فإن كانت عينُ المنخل تقر برؤية النّساء الذكيات الرائحة ، فإن الشاعر يستمتع باستنشاق الأنفاس القادمة من تلقاء الحمى النبوي .

١- الأعلم الشنتمري ، شرح حماسة أبي تمام ١ : ٢٢١

٢- الخورنق والسدير هما : قصران أتخذهما النعمان بن المنذر . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٢ : ٤٠١ و ٣ : ٢٠١

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٠

٤- الأعلم الشنتمري ، شرح حماسة أبي تمام ١ : ٢١٨

٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٠

سادساً : البديع

أسرف شعراء العصر المملوكي وكتابهُ ، في استخدام المحسنات البديعية ؛ بل أن بعضهم جعلها غاية في ذاتها ، وألفت في ذلك الكثير من الكتب مثل : « فض الختام في التّورية والاستخدام » ، و « جنان الجناس » ، و « كشف اللثام عن التورية والاستخدام » ، لصلاح الدين الصفدي ، و « خزانة الأدب وغاية الأرب » لابن حجة الحموي وغيرها .

ولكن ما هو موقف الشّاعر شهاب الدين محمود من هذا الأمر وهل غالى فيه مغالاة أهل عصره ؟ يرى أحد الباحثين أن شهاب الدين محمود من كتاب المماليك الذين « خفّ سجعهم فلذّ وقعه » [1] .

وبعد أن طالع الباحثُ المدائح النّبوية عند الشّاعر ، تبين أن الشّاعر قد استخدم المحسنات البديعية ، ولكن دون إسراف وتكلف ، بل جاءت الزخرفة اللّفظية في مكانها المناسب ، وبشكل جميل مُسْتحسن ، فهو يقف في ذلك موقفاً وسطاً .

ومن المحسنات البديعية التي وردت في مدائح الشّاعر النبوية : التجنيس ، وللشاعر شهاب الدين رأيٌ فيه يقول : « إنما يَحْسُن التجنيس إذا قلّ وأتى في الكلام عفواً من غير كدٍ ولا استكراه ، ولا بعد ، ولا ميل إلى جانب الركة »[2]. وقد جاء الجناس عند الشّاعر بأنواعه المختلفة موافقاً لرأيه فيه ، وقد يحشد الجناس أحياناً في أبيات متلاحقة ، تتوارد فيها الكلمات المجنسة ، بكل دقة وانسجام ، مما يضفي عليها رنة موسيقية رائعة ، ومن ذلك قوله :[3]

١- محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ٦ : ٣٦٩

٢- الشهاب محمود ، حسن التوسل : ١٩٨

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٧

وإنْ بانَ باناتَ المُصلّـــى وأشْرقَت قِبابُ قُبا والنّخلُ والمسجِدُ الأسنـــى
أجلّت تَرى تِلــك الرُّبا وجنائُنا عن اللّمس بالأيدي فَدع أرجل الوجنا
وملنا إلى بــاب السّلام وقد دنا بلثــم ثَــراه ما رجونَـــا وأملنا

وأكثر الشّاعر في مدائحة النّبوية من الطباق ، وهو « جمعك بين الضدين في كلام أو بيت شعر »[١] ، وقد استخدم الشاعرُ الطباق كلون من « التلوين البياني ، وأداة لتجميل الكلام ، ونمط من أنماط الصنعة »[٢] ، كما كان له الأثر الواضح في تنويع التناغم الموسيقي في ايقاع القصيدة .

ومن أمثلة الطباق عند الشّاعر قوله مطابقاً بين الفعلين أضحك وأبكى ، وبين الكلمتين التواصل والفراق في بيت واحد ، وذلك في قوله :[٣]

وَرَجعتُ أضْحكُ للتَواصُلِ مَرّةً أُخْـــرى وأبكى للفراق الثّاني

فقد وضّحت هذه المتضادات حالة الشّاعر النفسية ، وشدة شوقه وخلفت علاقاتٍ متوترة تدفع بحيوية النص إلى التعمق والثراء .

وقول الشّاعر في مدحة أخرى مطابقاً بين كلمة تروي وظمأ واللقاء والبعد ، وتسمع وأصمك :[٤]

وَتَقْنَع أَنْ تَروي المحبونَ باللقـــا وَأَنْــتَ كَمَا شَاءَ البعَادُ عَلى ظَما
وَتَسْمَع داعي مَنْ تُحبُّ وَلَمْ تُجِبْ أَصَمّكَ أمْ أصْمَى وَناداك أمْ رمى

١- ابن رشيق ، العمدة ١ : ٥٧٦
٢- عباس عجلان ، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى : ٢٤٣
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٠
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٣

كما أوْرَدَ الشّاعرُ طباقه في أحيانٍ كثيرة ، مقترناً ببعض المحسنات البديعية الأخرى ، وقد عدّ ابن حجة هذا الطباق في درجةٍ أعلى من الطباق العادي ،[١] ومن ذلك قوله :[٢]

سَقَى اللهُ أيّامَ الحجيـــج على منى **مُناها** ومـن لي لو يعوُدُ نظيرُها
فلو **شُريتْ** لمْ يغَل في السُّوقِ سعْرهُا وَلَو **بيع** بالعُمر **الطّويل قَصيرُها**

فقد جانس الشاعر بين (منى ومناها) في البيت الأول ، ورد العجز على الصدر وطابق بين (شريت وبيع) ، (والطويل والقصير) ، في البيت الثاني ، وحَشْدُ الشّاعر لهذه الألوان من المحسنات البديعية ساهم في إبراز المعنى ، وأضفى نوعاً من التوازن الموسيقي على الأبيات .

ويحشـــد الشاعِرُ أحياناً الكثير من الكلمات المتضادة في أبياتٍ متوالية من القصيدة ، وذلك في قوله:[٣]

مَالى سِوَاك فَأَنْتَ مَوْضعُ رَغْبَتِـــي **وَشكَايَتي** فيمـا **أخَافُ وأطْمَعُ**
أأَخافُ أوْ أرْجوُ سواكَ وليس في الـ أكـــوّان مَخْلوُقٌ **يَضُرُّ وَيَنفَعُ**
أأَخافُ مَنْعَ النّاس فَضْلَ عَطائِهــم عَنّي وَمَـنْ **يُعْطِـي** سِوَاكَ **وَيَمْنَعُ**
أَنْتَ **الغَنيُّ** وَكُل مَنْ في الكون مِنْ مُثْرٍ **فَقَيرٍ** نَحــوَ فَضْلِـكَ مُدْقِعُ

ويرمي الشّاعر من تلاحق الأضداد في هذه الأبيات إلى إقرار حقيقة التفرد الإلهي في الكون ، وليرسخ في نفسه ووجدانه ، أنه لا ملجأ ولا ناصر ولا معين له إلا الله سبحانه ، إضافة إلى أن التضاد المتلاحق أبرز الأبيات الشّعرية بشكل أوضح ، وأضفى على الأبيات ايقاعاً متوازناً زادها جمالاً وتأثيراً في النفس .

١- ابن حجة ، خزانة الأدب ١ : ١٦٠ ، ١٧١
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٧
٣- المصدر السابق : ٢٩

وقد وَلع الشهاب محمود بالتورية كعادة أدباء عصره ، واستخدمها في شعره ومردُّ ذلك إلى طبيعة العصر المملوكي ، فالتورية « تلائم أهل العصور الذي يرهقها الجور والاضطهاد ، وتتعود التقية ، وإظهار غير المضمر ، وهي جميلة إن جاءت عفو الخاطر ولم يُكدُّ الذهن بسببها »[١].

وقد وظف الشّاعر الشهاب محمود التّورية في مدائحة النّبوية لخدمة المعنى وقرنها بالصورة الشّعرية أحياناً ، مما أضفـــى على أبياته صياغة جميلة ، ومن ذلك قوله :[٢]

لَهُ كُلّما اشتَاقَ الحِمى مِنْ دُمُوعِه   وَانفاســـهِ الحرّى عَقيقٌ وَأبْرَقُ

والعقيق هو الخرز الأحمر ، والتورية فيه أن العقيق اسم وادٍ في المدينة المنورة [٣] ، فقد جمع الشّاعر إلى جانب التورية حسن الصياغة ، وجمال الصُّوره ، فدموعه غالية تذرف لشيء غالٍ .

ومن توريات الشّاعر قوله :[٤]

مَغْرَمٌ بالبَرقِ يَبْكَي كُلّمَا   ظَنـــه بَيْنَ الثّنيات ابتسَاما

والثنايا الطرق الملتوية في الجبال ، وتأتي بمعنى الأسنان الامامية ، ومراد الشاعر ، الطرق المؤدية للحمى النّبوي ، وهنا أيضاً صوّر الشاعر حالته النفسية ، وشوقه الشّديد للقاء بالحمى ، مما جعله يتخيل البرق القادم من تلقاء الحمى ، ابتسامة المحبوبة وهذه التورية ساهمت في تعميق الصورة وتكثيفها .

١- جودت الركابي ، الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، (دار الفكر ، دمشق ، تصوير ، ١٩٨٣م عن ط٢ ، ١٩٨٢م) : ١٥١

٢- الشهاب محمود : أهنى المنائح : ٣٤

٣- العقيق : وادٍ بناحية المدينة المنورة ، وفيه عيون ونخل . الحموي ، معجم البلدان ٤ : ١٣٩

٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٦

كما صرَّع الشّاعر في جميع مطالع مدائحه النبوية ، متمشياً مع آراء النقاد القدماء الذيــن يعتبرون الشّاعر الذي لا يُصرّع قصيدته « كالمتسور الداخل من غير باب » [١]، لأن التصريع عندهم يحقق عدداً من الفوائد ، إذ إنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تُعلم قافيتها ، كما أنه يدل على سعة القدرة في أفانين الكلام ، وهو دليل على قوة الطبع وكثرة المادة [٢]، ويعتبر ابن الأثير ما يحسن من التصريع في الكلام « ما قلّ وجرى مجرى الغُرّةِ من الوجه ، أو كان كالطراز من الثوب » [٣].

كما لَوَّن الشّاعر في رد عجز البيت على صدره ، والذي عرّفه بأنه « كل كلام منثور أو منظوم ، يلاقي آخره أوله بوجه من الوجوه »[٤].

ومن ذلك قول الشّاعر يَصِفُ مشاعِر الحجيج عند وصولهم للحمى النّبوي ، وعند عزمهم على الرحيل :[٥]

فَبُكَاؤُهم يَومَ القُدوُمِ سَلاَمُهمُ ... وَسَلامُهــــمُ يَومَ الرَّحيلِ بُكَاءُ

فقد أضاف الشّاعر في البيت السّابق إلى جانب ردّ العجز على الصدر ، المطابقة وحسن التعليل ، مما جعل المعنى أكثر تكثيفاً وإثراءً .

ويقول الشّاعِر في أبيات أخرى :[٦]

فَهوَ الشّفيعُ المُرتَجى إذْ لَيسَ مــنْ ... أَحَـــدٍ هُنَاك بِغَيرِ إذن يَشْفَعُ

والحوضُ يَسْقي مَنْ يشاءُ بِهِ وَقَد ... بَلغ الرّدى مِنْ هَوْلِ مَا يَتجرَّعُ

ولا يخفى ما أضافه رد العجز على الصدر من تلوين موسيقي وترجيع نغمي .

١- ابن رشيق ، العمدة ١ : ٣٣١
٢- المصدر السابق ١:٣٢٦ ، وابن الأثير ، المثل السائر ١:٣٧٥
٣- ابن الأثير ، المثل السائر ١:٣٧٥
٤- الشهاب محمود ، حسن التوسل : ٢١٤
٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٧
٦- المصدر السابق : ٣٠

ويقول المنخل :[١]

يا رُبَّ يَومٍ للمُنَخَّل   قَدْ لَهَا فيه قَصيـــر

ويقول الشاعر :[٢]

لَهَفِي عَلَى زَمَنِ اللقَـــــاءِ فإِنَّهُ أَمَدٌ قَصِيـــرُ

والكثير من أبيات القصيدة مضمن من قصيدة المنخل اليشكري ، وقد أضاف الشهاب محمود إلى حُسن قصيدة المنخل ، حسن الدلالة ، بقلب الموضوع الأصلي للقصيدة إلى مدح الرّسول (ﷺ) إضافة إلى طول النّفس الشعري ، إذ بلغت أبيات قصيدة الشاعر ستة وستين بيتاً ، مقابل خمسةٍ وعشرين بيتاً هي أبيات قصيدة المنخل .

وفي مدحتين نبويتين أخريين ، يتمثـل الشّاعر قصيدة مجنون ليلى (قيس بن الملوح) تلك القصيدة التي بث فيها المجنون لواعج صدره ، وحنين فؤاده لمحبوبته ليلى ، وبين مقدار ما يعانيه من ألم ومشقة بسبب بعدها عنه ، إنها قصيدة تمثل قمة الحب العذري والتفاني فيه والتعلق به بالرغم من البعد والحرمان ، ومما جاء في قصيدة المجنون قوله :[٣]

تَذَكّـــــرتُ لَيْلَى ، والسّنينَ الخَواليا   وَأَيّـــــام لا نخْشَى على اللّهو نَاهَيا
وَيـومٍ كظـــلِّ الرُّمْـــحِ قصّرت ظِلّهُ   بِليلى ، فَلهّانـــــي ، وما كُنْتُ نَاسِيَا
خَليليّ لا واللهِ لا أمْلِـــكُ الّـــذي   قضى اللّه في ليلى ، ولا ما قضى لِيَا
ألا أيها الرّكـــب اليمانيوُن عَرِّجُـــوا   علينا فقْد أمْسَـــــى هَوَانـــا يمَانيـــا
ذكتْ نارُ شوقي في فُؤادي فأصبحت   لها وهَـــــجٌ مُستضرمٌ في فُؤَادِيـــــا
وَدَدتُ على طيـــب الحيـــاةِ لو انّه   يُزادُ لليلـــــى عُمْرُهــــا مَنْ حَيَاتِيَا
تمـرُّ اللّيالـــي والشّهـــورُ ولا أرى   غَرامـــــي لَهـــا يَزْدَادُ إلاّ تمَادِيَـــــا

١- الأعلم الشنتمري ، شرح حماسة أبي تمام ١ : ٢٢١
٢- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٠
٣- قيس بن الملوح ، ديوانه ، شرح وتحقيق رحاب عكاوي ، (دار الفكر العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م) : ٢٣٤

وهذا الحبُّ والحرمَانُ الذي بَثّه المجنونُ في قصيدته ، يتوافق مع حُبِّ الشّاعر الشهّاب محمود للرسول (ﷺ) وشدة شوقة للقاء بالحمى ، لحرمانه من هذا اللقاء بسبب ما اعتراه من ظروف ، فتمثل الشّاعِر هذه القصيدة تمثلاً تاماً وجرد منها وزنها وقافيتها في إحدى مدحتيه ، وغالبية الفاظها وتراكيبها وصورها في مدحيته ، فقد خرجت قصيدة المجنون ومدحتا الشّاعر من رحم واحد ، مع الاختلاف في الموضوع ، إذ وظف الشّاعر شهاب الدين مدحيته في مدح الرّسول (ﷺ) مضيفاً عليهما من شاعريته ، وحسن سبكه ، ما جعلهما تفيضان بالشاعرية والعذوبة .

يقول الشاعر شهاب الدين محمود في إحدى مدحيته النّبويتين :[١]

دعِ الصَّب يُدْمي الدَّمع مِنْه المآقيا   فقد ظَنّ كلَّ الظّنِ أنْ لا تلاقِيا

فالشاعر يُضمنّ عجز بيته السّابق عجز بيت من قصيدة قيس بن الملوح السّابقة بتحوير بسيط ، إذ جاء بيت ابن الملوح على النّحو التالي :[٢]

وَقَدْ يجمعُ اللهُ الشّتيتَين بَعْدَما   يَظُنّانِ كُلّ الظّنَّ أنْ لا تَلاقيا

وفي المدحة النبوية الثانية يأخذ الشّاعِرُ صدر البيت السّابق ويجعله عجزاً في بيته الجديد يقول فيه:[٣]

وَلَسْتُ وإنْ أبْطأتُ عنْهُ بيائس   فَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشتيتين بعدما

والشاعر الشّهاب في قوله :[٤]

ولولا رجائي في شَفاعَتِهِ غدا   رجُوتُ نجاتـــي لا عليّ ولالِيا

ينظر إلى قول المجنون :[٥]

فيا ربِّ سوِّ الحبَّ بيني وبينها   يكـــونُ كفافاً لا عليّ ولا ليا

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٥٣
٢- ديوان قيس بن الملّوح : ٢٣٦
٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٦
٤- المصدر السابق : ٥٧
٥- ديوان قيس بن الملوح : ٢٣٦

الصُّورة الشِّعرية

الصورةُ الشِّعرية هي « جَوْهَر الشّعر وأداته القادرة على الخلق والابتكار ، والتحويـــر والتعديل لأجزاء الواقع ، بل اللغة القادرة على استكناه جوهر التجربة الشّعرية ، وتشكيل موقف الشّاعر من الواقع وفق إدراكه الجمالي الخاص » [١]. ويرى المنهج النّفسي في تفسير الابداع في الصُّورة « تعبيراً لا شعورياً عن ذات الشّاعِر واهتماماته ، ويفتـــرض قيام حالة توازن بين موضوعات صور الشّاعر وطبيعته الشخصية » [٢].

وحتى يضفـــي الشّاعِرُ جمالاً على شعره فإنه يبتعد عن التعبير المباشر « عن تجربته ، ويميل إلى اللغة الإيحائية الحدسية لِتُعبّرَ عن المدى العميق لانفعالاته ومواقفه الذاتية ، ويتفاوت الشعراء في هذا طبقاً لاختلاف مواهبهم وقدراتهم الخاصة »[٣].

وتعتمد قوة الصُّورة « على خصوبة خيال الشّاعر ونضجه ، وهو يستلزم منه القدرة على الإلمام بمحتويات الصورة ، وعرضها في شكلٍ فني متكامل يكشف ما بينها من علاقات » [٤]، وإذا كان الخيالُ هو امتلاك القدرة على تصوير الفكر والشعور ، وجماع نشاط العقل والروح لاستحضار الصور من الواقع ، والتّصرف فيها لإعطائها مِسحة من الجمال والانسجام [٥]، فالخيال إذن هو « الأب الشّرعي للصُّورة ، أو الرحم الذي تتخلق فيه ، والشعر بلا خيال جُثة هامدة لا قيمة لها ، فالخيال قوام الشّعر » [٦].

١- مدحـــت سعد محمد الجبار ، الصُّورة الشعرية عند أبي القاسم الشابي ، (الدار العربية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٤م) : ٦

٢- بشـــارة موسى صالح ، الصّورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، (المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م) : ٥٢

٣- المرجع السابق : ٥٩

٤- عبدالله عبد الفتاح التطاوي ، قضايا الفن في قصيدة المدح العباسية ، دراسة تطبيقية في شعر البحتري وابن المعتز ، (دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١م) : ٣٧٣

٥- غصوب خميس غصوب ، عبدالله بن المعتز شاعراً ، (دار الثقافة ، قطر ، ط١ ، ١٩٨٦م) : ٤٠٨

٦- صـــلاح مُصيلحي علي عبدالله ، التقليد والتجديد في الشعر العباسي ، (دار المعرفة الجامعية ، مصر ، د٠ت) : ٢٠٨

وقد استخدم الشّاعِرُ شهاب الدِّين الحلبي ، التّصوير البياني وغير البياني ، في نقل معانيه والتعبيرُ عن مشاعره ، وتعددت المصادر التي استوحى منها صوره ، وكانت الصُّور الدينية بأنواعها المختلفة من أكثرها دورانا في شعره ، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة الموضوع ، فقد شكلت السيرة النّبوية معيناً لا ينضب ، اغترف منه الشّاعر لتشكيل صوره ، إذ حلّق بخياله إلى الزّمن الماضي ؛ وعرض صوراً حية لوقائعه واحداثه ، مبدياً براعة فائقة في توظيفها ، مما جعلها تُضفي على شعره صفة الحيوية والاشراق .

فقد التفت الشّاعر إلى آيات القرآن الكريم في تشكيل صوره ، ومن ذلك قوله مصوراً وصول ركب الحجيج إلى مدينة رسول الله فرحة مستبشرة ، إذ وصلت إلى مرامها وهو اللقاء بالحمى النبوي ، واستحقت ثواب الله مما زادها إيماناً واشراقاً :[1]

وَرَأت بِضاعة قصْدِهَا قَدْ عُوّضت   بنفائـــس الْحسناتِ عِنْ مُزْجَاتها
فَاضاءَ مِصْبَـــاحُ الهدَى مُتألقاً   بِزُجَاجـــةِ الإيمان مِنْ مَشْكَاتِهـا

يلاحظ ترسم الشّاعر لمنهج عدد من الآيات القرآنية وإدخالها في بنية بيتيه السابقين ، مع بعض التحوير فهو ينظر إلى قوله تعالى : « اللّهُ نُورُ السموات والأرض ، مثلُ نُوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباحُ في زجاجةُ الزجاجة كأنها كَوكَبٌ دريّ يوقَدُ من شجرةٍ مباركة ... » [2] ، وقوله تعالى : « فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضُّرُ وجئنـــا ببضاعةٍ مزجاةٍ ، فاوف لنا الكيل ، وَتَصّدق علينا إنّ الله يجزي المتصدقين » [3].

وتأثر الشّاعر بالحديث الشّريف فصاغ منه بعض صوره ، ومن ذلك جعله العُمر سَفْرة قد انتهت ، ووصلت إلى نهايتها متأثراً بحديث رسول الله (ﷺ) « كن في الدنيا كأنــك غريبٌ أو عابر سبيل »[4]. إذ ترسم الشّاعر الحديث النّبوي السابق في قوله :[5]

١- الشهاب محمود ، اهنى المنائح : ٤٣
٢- النور ، آية : ٣٥
٣- يوسف ، آية : ٨٨
٤- النووي ، رياض الصالحين : ١٧٢
٥- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٥

ضَاعَ الزّمانُ وَضَاقَ عَنْ إدْراكِ مَامُـولِي وَسُولِـي
هيَ سَفْرَةُ العُمرِ انتهت وَدَنا إلى الأُخرى قُفُولِي

واستمد الشّاعر بعض صوره من المفردات الدينية ، ومن ذلك جعله الذنوب ، أغلالاً وقيوداً أوثقته ، لا يفكها إلا مفتاح التقوى ، وذلك في قوله :[١]

أَنَا واللهِ مُوْثَـــقٌ فـــــي أسَارِ مِنْ ذُنُوبٍ قَدْ احكمت أغْلالِي
ضَاقَ وَقْتِي عَنْ ما يفك إساري مِنْ تُقــىً أوْ يَحطُّ مَنْ أثقالي

ويلح الشّاعر على هذه الصورة في بيت آخر بجعله الخطايا سوراً يقف بينه وبين التّوبة ، وذلك في قوله :[٢]

يُحَاوِلُ أنْ يَنْحُو إليكَ وَبينَهُ وَبَيْنَكَ سُورٌ مِنْ خَطَايَاهُ مُحدِقُ

ومن مصادر الصورة وموضوعاتها ؛ الصّور المستمدة من العالم الصوفي وهي على ضربيــن : صور مستمدة من الطبيعة السماوية والأرضية وما فيها من شمسٍ ، ونجومٍ ، وأشجارٍ ، وصخر ... ، وصور التلهف إلى لقاء الديار الحجازية ، ولعل ذلك يرجع إلى تأثر الشّاعر بالنّزعة الصُّوفية التي سادت في عصره ، فقد استوحى الشّاعر كثيراً من صور الطبيعة ، ووظفها في تشكيل صورة ، ومن ذلك قوله مشبهاً القرب من الحمى بثمارٍ تُجنى :[٣]

طُوَبى لها داراً وَطُوبى لامرىءٍ يَجْنى ثِمارَ القُربِ مِنْ شَجَراتها

وهذه أماني الشّاعر في زيارة الدّيار المقدسة عصنٌ غير مُورق :[٤]

وَيصلى هجيرُ الهجرِ إنْ غَاب عَنْكُمَ وَغُصنُ أمانيـــه بِكُمْ لَيْس يُورقُ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٢١
٢- المصدر السابق : ٣٤
٣- المصدر السابق : ٤٣
٤- المصدر السابق : ٣٣

والرّيح عند الشّاعر ركبٌ يختال في الفضاء الواسع [١]:

وعليه الصّلاة ما سار ركب الر ريـــح يختال في الفضاء البراحِ

والزهر عند الشّاعر ثغر يبتسم ، وابتسامُه جاء من شيء مناقض وهو البكاء ، بكاء الغوادي :[٢]

فعليه السّلام ما افترّ ثغـــر الـنورِ في الرّوض من بُكاء الغوادي

ويعرض الشّاعر مقدار ما لديه من شوق ولهفه للقاء بالحمى النّبوي في صورة جميلة ، حتى أنه يريد أن يمطر أرضه بدموع كالسُّحب في الغزارة ، ويلثم ترابه ، ولو استطــاع سعى على وجه حتى يُطفىء نار أشجانه ، وتبرد أجفانه المؤرقة ، وذلك إذ يقول [٣] :

فَأنظرُ الحَرَمَ الشّامي بساكنـــــه وَأُمْطِرُ الأرضَ دَمْعاً دوُنَه السُّحبُ
والثمُ التُّربَ إجلالاً لديه وَهـــلْ لثمُ التُّراب يُؤدي بَعـضَ ما يَجِبُ
وَلَو أطقْتُ على وجهي سعيتُ بِهِ لو كان لمْ يَنْه عنْه الشّرْعُ والأدبُ
هناك تُطفأُ أشْجاني ، وتبردُ أجفا ني وتَذْهبُ عني هـذِهِ الكُـرَبُ

وقد بلغ من شدة شوق الشّاعر ولهفته لزيارة الحمىْ ، أن أصبح لا يُفرّق بين وسيلة الوصول نحو الدّيار الحجازية ؛ فالمطايا عنده تشبه السُّفن ، واليابسة بحر ، وصعوده الجبال وهبوطه منها ، كراكب موج البحر ، يرتفع به ويهبط ، فهو يمشي في البرّ وكأنه يسبح في بحر متلاطم الأمواج ، وما يلبث أن يقذفه الموج بعيداً ريان ظامياً ، صاحياً على الحقيقة المرّة وهي عدم الوصول إلى الحجاز ، تلك صورة غريبة عجيبة تجمع بين المتناقضات في ألفة عجيبة ، وذلك في قوله :[٤]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٥
٢- المصدر السابق : ٧٦
٣- المصدر السابق : ١١١
٤- المصدر السابق : ٥٤

وَتَشـــــرى لَـــهُ بَرّاً وَبَحْراً فتُشبــهُ الجواري المطايا والمطايا الجواريا

فيرقى جبال الموج راكبُ بحْره ويهوي فيغْدو صاعداً فيه هاويا

وَيَسْبحُ ساري البَرّ في بحر آله ويقذفُه التّيار ريَّـــان ظاميــا

وثمة مصدر آخر استمد منه شهاب الدين الحلبي صوره الشعرية وهو التاريخ الإسلامي ، ومن ذلك وقوف الشّاعر أمام غزوة بدر يطلع على مجريات المعركة ، ويستمع لجلبتها ، ويعرض صورةً للكفار تقوم على عنصر السخرية والشماتة ، وهي صورة حية متحركة ، إذ صور الشّاعر جحافل الكفر بالنُّسور الكثيرة التي رُدت على أعقابها ، ووقعت أسيرة في الأُقفاص كالطيور ، ويلح الشّاعر على الصُّورة في البيت التالي مشبهاً الأعداء في القوة والعدد بالكواثر الشهب الذين وقعوا تحت رمي القناصة المسلمين مما أمعن في إذلالهم ، وذلك في قول الشاعر :[1]

كَمْ قُتيلٍ مِنْهُ بعرصـــة بَـــدْرٍ لَـــمْ يَنَلْـــهُ حَــــدُّ القَنا العَرّاص

أقْبَلُوا كالنُّسور كُثـــــراً وَرَدُّوا بأســــارٍ كالطّيـر في الأَقْفــــاصِ

وَأتُوا كالكواثر الشُّهب [2] إذ لا لاَ وَراجُـــوا فــــي قَبْضَه الاقتناصِ

أَشْرِبُوا حُـــبّ كُفرِهم فَلهـــذا أصبحُوا في القَليبِ صَرْعى اغتِصاصِ

ويعرض الشّاعر صورة جميلة لشجاعة الصّحابة وتدينهم ، وَيَجْعَلَهُم أسوداً شُجْعانا ، ويعرض الشّاعر هزيمة الكفار ، ونصر الله المسلمين عليهم بصورة تقوم على عنصر اللّون والشّكل ، فنصر المسلمين هو حلل كساها الله لهم ، وهزيمة الكفار هي حلل نُزعت عنهم فتُركوا عرايا ، وهذا اليوم الذي انتصر فيه المسلمون هو يوم أبيض عليهم ، ذاق فيه الكفر الموت الأحمر ، كناية عن سفك دمائهم ، وذلك في قوله :[3]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٤

٢- الكواثر الشهب : الكواثر العدد الكثير ، والشُّهب : النجوم السبعة المعروفة بالدّراري ، وهي في الأصل الشعلة مِن النار .

٣- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٩

لَا يُبَالُونَ وَقدْ حَازُوا الهُدى قَـــلّ جمْـعٌ لِلعدا أوْ كثُرَا
ثمّ لمّـــا آذَنَ اللهُ لَهـــمُ فِيْهِـــم سَـارُوا كآساد الشّرا
بَايَعوُا الله علـــى انفسهـــم في جهاد الكُفْر واللهُ اشترى
وَكَسَاهُم حُلَلُ النّصرِ التـي نَبذت تلـكَ الأعادي بالعَرى
كَمْ رَأوْا بالنّصر يوْماً أبيضا ذَاقَ فيــه الكُفْـرُ مَوْتاً أَحْمرا

وفي صورة أخرى يعرض الشّاعر الكفار بصورة الوحش الكاسر الذي وقع الصحابة بين أنيابه وأظفاره :[١]

نَصَروا النّبي وآزروُه وقاطعوا فيــه العدا وتمسّكُوا بجنابه
لبُّوه طوْعاً إذْ دَعاهُم لِلهُدى وَهُمو لَدى ظُفْر العدوِ وَنابِهِ

ولم يغفل الشّاعر صورة الحجّ بوفوده ، وركبه ، ونياقه ، وركائبة ، فها هو يطلعنا على منظر ركب الحجيج المتوجهين للحمى ا لنبوي ، مُشخصاً النّوم في صورة انسانية يُنازع جفون الرّكب ، فمنهم من ينتصر عليه النومُ فينام ، ومنهم من يتركه متيقظاً ، وَيُصوِّر الشّاعر مسيرهم المتواصل ليله بنهاره ، بصورة جميلة فقد ادّرعوا ثوب الدجى ، وكانت وسائدهم ظهور إبلهم ، وفي ذلك يقول :[٢]

ولَولاهُ ماَ طَابَ السُّرى نَحو طيبة وَلذّ الكــرىٰ فوْق الذُّرى والحوارك
ولا نَازَعَتْ أيْدي الرُّقاد جُفونهم فَمِــنْ آخــذ مِنْـــهُ وآخرُ تارك
ولا ادّرعوا ثوْب الدّجى وتوسدوا وسائد أيـــدي عيسهـمُ في المُبارك

كما التقط الشّهاب محمود صوراً من تراث النّاس ، وواقعهم المعيش ، وحياتهم من مختلف جوانبها ، فاستعار من واقع النّاس في العصر المملوكي الحرمان ، والعجز ، واليأس ، الذي كان يُعاني منه عامه النّاس ، فجسّمه وصنع منه صورة وظّفها في غرضه الجديد ، يقول :[٣]

١- الشهاب محمود : أهنى المنائح : ١٠٢
٢- المصدر السابق : ٧٣
٣- المصدر السابق : ٦٤

لَيتَ شعْري هلْ بَعْدَ هذا التّنائي مِنْ لقاءٍ يَشْفي لواعج صدْري
ما احتيالي فيه وَخوْف اغْتيالـي دون مـــا ارتجيه حيرٌ فِكْري
ولكم فرّقت يدُ العجْزِ والحـــ مَانِ واليأس مِنْهُ مجمُوعَ أمْري

ومن واقع العصر المجْدب ، وفي ظلّ المجاعات التي كانت تحدث ، يشبه الشّاعر الجدب والقحط بالجيش الكثيف الذي ملأ الأرض بجحافله ، وذلك في معرض ذكره لشكوى صحابة رسول الله من الجدب والقحط ، وذلك في قوله :[١]

وَأتوا يَشعُون والجوُّ مُصْـــحٍ ما يُـــرَى فيـــه من سحاب قَزْعه
وَقَدْ اغْبرّت الفِجَاجُ وَجَيْشُ الـ جّدْبِ قدْ مَدّ في رُبى الأرضِ نَقْعه

ومن عادات النّاس الاجتماعية يستعير الشّاعر صورة العزاء ، فقد مات صبره يوم فراق الركب إلى الحمى ، فيعزي نفسه بنفسه ، وذلك في قوله :[٢]

وَهي جلدي حُوشِيتُمُوْ يَومَ بنْتُمْو وَماتَ اصْطِباري بْعدْكُم لَكُمُ البَقَا

ومن عادات النّاس الاجتماعية في الخطبة والزواج يصوغ الشّاعر صورة لشجاعة المسلمين الذين خطبوا الجنّان ، وقدموا نفوسهم مهراً لها ، وذلك في قوله :[٣]

خَطَبُوا الجنّان فأذْعَنت إذْ مِـــنْ نُفُوسِهِمُ المُهُور

ومن الصداقة يُجسّد الشّاعر من الوجد صديقاً له ومن الدمع حميماً :[٤]

بُثّ وَجْدي فما بقى لي سوى الوجـ ـد صديقـــاً أو الدمـــوع حميمـا

ويرى الشّاعر في الزمان رجلاً بخيلاً مَطُولاً ، إذ لم يمكنه من زيارة الحمى النّبوي ، وذلك في قوله :[٥]

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٠٧
٢- المصدر السابق : ٥٠
٣- المصدر السابق : ٨١
٤- المصدر السابق : ٦٨
٥- المصدر السابق : ٨٩

وَزَمَانٌ إذا رَجَا مِنْه سعـــى ذا على قصْدِه رَآهُ بَخيلا
وَضنى كُلّما تَقَاضى لَهُ البُر ءُ غَدَا بالمُراد مِنْهُ مَطُولاَ

ومن عـادة بعض النّاس في اللهو وشرب الخمر التي انتشرت في المجتمع المملوكي ، يصور الشّاعر لهفته نحو الحمى بالإدمان ، فقد بات في ليل البُعد يعاقر الوجد بكأس الشكوى مع إثنين من الندماء هما أنين الشّاعر وكأس شرابه ، متمنياً أن يتخلص من أسر ليل البعد المظلم ليتواصل مع فجر الحمى النّبوي ، وذلك إذ يقول :[١]

طَاَلَ لَيلُ النّوى فهل مِنْ بَراحِ لدُجَـــى طَالَ عَهْدُهُ بالصّباحِ
ركَـــدتْ أنجمُ البعادِ بِهِ عند دي كـأنِ لَمْ يُؤذن لها بالرّواحِ
بتُ فيه أُعَاقِرُ الوَجْدِ ندْمَـــا ني أنينـــي وَكـأْسُ شَكْوَاى رَاحِ

ومن الصُّور التراثية القائمة على عنصر الشّكل ، تصوير الشاعر الغمامة التي كانت تظلل الرّسول (ﷺ) في حله وترحاله ، بخيمة قائمة في الجو من غير عمد ولا طنب . وذلك في قوله :[٢]

وَفي الغَمامة إذْ كانت تُظَلّلهُ أنّى تَوَجّه مرأى كُلّهُ عَجَبُ
كأنّها خَيْمَةٌ في الجوّ مائلـــة وما لها عُمُد فِيه وَلا طُنُبُ

وقد استمد الشّاعر بعض صوره من التاريخ العربي ، ومن ذلك تشبيهه عينُ الصّحابي قتادة بن النعمان ، بعد أن ردّها رسول الله بيده الكريمة ، بعين زرقاء اليمامة[٣] في قوة الإبصار ، وذلك في قوله :[٤]

وَكَذاك عَينُ قُتَادَة إذْردّهـــــا مِنْ بَعدِما سَقَطَت وأعيا الدّاءُ
فَغَدَت كأحْسن مُقْلتيهِ يرى بها الشّـــيء البعيد كأنها الزّرْقاءُ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١١٣
٢- المصدر السابق : ١١٢
٣- الزرقاء من بني جديس من أهل اليمامة ، مضرب المثل في حدّة النظر ، وجودة البصر ، يقال لها زرقاء اليمامــــة لزرقة عينيها ، وكانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام . الزركلي ، الاعلام ٣: ٤٤
٤- الشهاب محمود ، أهنى المنائح ، ٧٨

ووظف الشّاعر ثقافتهُ الواسعة لتشكيل عددٍ من صورة ، وكانت صنعة الشّاعر في مجال الكتابة ، تُلّحُ عليه في تشكيل صوره ، فقد تحولت الصحارى الواسعة عنده إلى صفحـــات من الأوراق تخط عليها قوافل الإبل السُّطور تلو السّطور ومن ذلك قوله :(١)

أَقُولُ لِصَحْبي والقِفارُ كأنّها صَحَائفٌ خُطّتْ بالمَطَايَا سُطُورُها

وينظر الشّاعِرُ إلى قوافل الإبل المتتابعة وراء بعضها فيراها سطوراً مرقمة ممتدة من الصحراء الواسعة إلى الحمى النّبوي ، وذلك في قوله :(٢)

إذا الحُداةُ حبَسْنَ العيس جاذَبَهمْ فَصْـلُ الأَذِمّة شـوْقٌ نَحْوَها عُنُفا

كأنّها أسْطُـــرٌ مَرْقُومَـــةٌ مَلأتْ مِنَ الفَلاةِ إلى نَحوِ الحمى صُحُفا

وفي مدحةٍ أخرى يعتبر الشّاعر العزم سطر كتاب خطه حنينه الشّديد ، إلا أن يد الحرمان كانت لهذا السّطر بالمرصاد كلما خُط محته وأخفته :(٣)

وَكَمْ خَطّ سَطْرَ العزْمِ فَرْطُ حَنِينَهُ فَصلّتْ يَدُ الحِرْمَانِ تَمْحو وَتَمْحَقُ

ويستقي الشّاعر بعض صوره من علم النحو ، ويستعير من الأُحرف الصحيحة والأحرف المعتلة ، فعزمه حرف صحيح كلما قوّاه يقينه أوهاه حرف اعتلاله :(٤)

كلما صَحّ حَرفُ عَزْمي وَقوّا هُ يَقِيني أوْهَاهُ حَرفُ اعتِلالي

ويستعيرُ الشّاعر مِنْ عِلْم العروض بعض التّسميات ومن ذلك قوله :(٥)

يَارَاكِـــبَ الوجْنَـــاءِ تَجْـ ـذِبُ في البُرى ذَيْلَ الذَمِيل (٦)

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٦
٢- المصدر السابق : ٣٧
٣- المصدر السابق : ٣٣
٤- المصدر السابق : ١٢٢
٥- المصدر السابق : ٩٣
٦- الذميل : ضرب من سير الابل ، والمذال من البسيط والكامل ما زيد على وتده من آخر البيت حرفان .

وعرّج الشّاعر على علم الفلك وشكل منه بعض صوره ، فهو ينظر إلى الشّهب في مداراتها ، فيجدها كخيم الحي التي يحيط بها ساكنوها ، ومن ذلك قوله :[١]

وَيظنُّ الشّهب في ابراجها　　　خَيمَ الحيّ وَمَنْ حَلّ الخِيَاما

أما قباب قبا فيصورها الشّاعر من بين النّخيل شهباً منتشرة :[٢]

وَهَل صَباحٌ أَرى فِيهِ قباب قُبا　　　كَأَنّها بين ساجي نَخْله شُهُبُ

ويرى الشّاعر البعد عن الحمى ليلاً ركدت انجمه ، وثبتت في مكانها ، فطال الليل وبَعُدَ العهدُ بالصّباح ، وذلك في قوله :[٣]

طَال لَيْلُ النّوى فَهل مِنْ بَراح　　　لِدُجـــى طال عَهْدُه بالصّباح

رَكدَتْ أَنْجُمُ البِعـــادِ بِهِ عَنْـ　　　ـدي كأنْ لَــمْ يُؤذن لها بالرواحِ

واستخدم الشّاعر الصّور التي تقوم على التّشبيه بأنواعه المختلفة ، فقد كان الشّاعر يراوح بين استخدام الكاف أو كأن في التشبيه أو يجرد التشبيه من الأداء أحياناً أخرى ، ومن ذلك قوله مستخدماً التشبيه بالكاف مشبهاً نسيم البرق القادم من تلقاء الحمى النّبوي بالسّيف الصقيل :[٤]

وَنَسيــــمُ بَـــرْقِ الأبرَقَيـ　　　ـنِ يَلُوحُ كالسّيْف الصّقيل

وقوله مُستخدماً التّشبيه بكأن مُشبهاً الأشجار التي أتت ساعية نحو الرسول بالإماء :[٥]

وَإجَابَةُ الأَشْجَار حَينَ دَعَابَها　　　تسْعـــى إليه كَأَنّهنّ إمَاءُ

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٦
٢- المصدر السابق : ١١١
٣- المصدر السابق : ١١٣
٤- المصدر السابق : ٩٣
٥- المصدر السابق : ٧٨

وقد يستخدم الشّاعرُ التشبيه مجرداً من الأداة أحياناً أخرى ومن ذلك قوله مشبهاً الصحابه في الثبات بالجبال وفي الكرم بالبحور :[١]

هَمُ في ثباتِهِمُ الجبا　　　لُ وفي نَوالِهِمُ البُحوُر

كما استخدم الشّاعـــر الصُّور الاستعارية التي تعتمد اسلوبي التشخيص والتجسيد ، من ذلك قوله مشخصاً النّاقة المتوجهة نحو الحمى في صورة فتاة جميلة تختال في اثوابها وحليها :[٢]

تَخْتَالُ في حِبـــــرِ الشُّرو　　　قِ ضُحَى وَفي حُلَل الأصيلِ

وفي صورة شكلية يشخص الشاعر السّحاب في صورة إنسان يبكي فتجرى دموعه على الأرض :[٣]

فَعَلَيْهِ السّـــــــــلامُ مَا أوْمَضَ البَر　　　قُ وَأَجْرَى السّحابُ في الأرضِ دَمْعهْ

وَيُجَسّد الشّاعرُ آماله بزيارة الحمى النّبوي بعد وصول الرّكب إليه ، ونيل أمانيهم برؤيته ، أشجاراً تثمر بعد طول امتناع ، وتعطي أطيب الثمر :[٤]

وَأَثْمَرَتِ الآمَالُ بَعْدَ امتِنَاعِهَا　　　بِنَيْلِ أمانيهمُ وطــابَ جَنَاهَا

وهذه النفس البشرية تمعن في غيها وغرورها مع علمها أنّ أُسد المنية تتربص بها ، وذلك في قول الشاعر:[٥]

وَتَمدُّ آمـالَ الغُرور وَقَدْ رأتْ　　　أُسدَ المَنونِ تَجوُلُ في وَثَباتِها

وَيغُرُّها إبطاؤُها وَقد اغتدَتْ　　　مَا بَيـنَ مُرْهَفِ نابها ولَهاتها

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨١
٢- المصدر السابق : ٩٣
٣- المصدر السابق : ١١٧
٤- المصدر السابق : ٦٠
٥- المصدر السابق : ٤١

وليصور الشّاعر طهارة ثرى الحمى النّبوي ، فإنه يجسد من الخدود أرجلاً ليطأ بها الحمى ، وإن كان يُجلُّ ثرى الحمى عن اللمس باليدين فضلاً عن وطئه بالرجلين :[١]

وَإنْ بانَ بانَاتُ المُصلّــى وَاشْرَقَت قِبَابُ قُبا والنّخل والمَسجـــدُ الأسنى
أجلّت ثرى تلك الرُّبـــا وَجَناتِنـا عَنِ اللّمْسِ بالأيدي فدَعْ أرجُل الوَجْناَ

ومن تلوينات الشّاعر في الصُّورة اعتماده على الصّور المشتقة من الحواس ، من خلال حديثه عن مشاعره وأحاسيسه تجاه الرّسول وحماه ، أو الأحاسيس المتقدة في نفوس ركب الحجيج ، فها هو يطلعنا على منظر رائع لركب الحجيج ، وقد اقتربوا من الحمى النّبوي في صورة مرئية مسموعة ، تنبض بالصّوت والحركة ، مُزجت فيها جميع عناصر الصورة ؛ من لون ، وشكل ، وذوق ، وشم ، وذلك في قوله :[٢]

غَنّى بِذِكْرِ الحِمى فَارْتاح كُلّ شَجي وَخَاضَ بالدّمْعِ حَادي الرّكْب في لَجَجِ
واسترْخَصَ السّيرَ أنْ أدْنىَ تَواصُلَـهُ مِنَ الأحِبّـــةِ بالغَالي مِـــن المُهجِ
واسترْشد الرّكْبُ إذ حَارَ الدّليلُ بِهِمُ بِمَـا تَلقَّـــوه دونَ الحـــيّ مِنْ أرجِ
واستعـذب الموتَ إذْ لاحَتْ مواردهُ فـي مَنْهلٍ بِدنُـــو الـــدّار مُمْتَـــزِجِ
وَطَـابَ كأْسُ سُرى دارت بها طرق مَـا بَيْـــن مُنْعَطــفٍ مِنْهُ وَمُنْعَـــرَجِ
حَتـى إذا لاَحَ نَورُ القُرب وابتسمت تلك الثّنياتُ مِـنْ وَجْهِ الحمَـى البَهجِ
وَلاحــت الحُجرةُ الغرّاءُ مُشْرِقَـــةً كَالدُّرِ مـــا بَيْــن أصْدافٍ مِنَ السّبَجِ
تَبْـــدو لَوامِعُها بَيْنَ السُّتور لهـــم كالشّمس تبــدو بما في الغيم مِنْ فَرَجِ
فَـــأيُّ مَاءِ دُمُوعٍ لمْ يُرق فَرحــــاً وأيُّ نـــارِ ضُلُـــوعٍ ثُـــمّ لَمْ تَهِجِ

ويعرض الشّاعر صورة الرّسول (ﷺ) وهو يحارب جيوش الكفر التي تتابع وراء بعضها كالمطر الغزير ، والسُّيوف فيها تلمع كالبرق تتخللها السهام التي تتراشق على

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٨٧
٢- المصدر السابق : ٨٢-٨٣

أرض المعركة كحبات المطر ، وكيف يرميهم الرّسول (ﷺ) بقبضة من التراب فيولون كالنّعام مُجفلين ، وهي صورةٌ تعتمد على عُنصر الحركة والرؤيـــة والشكل ، واللون ، « واقتران الصورة بالحركة ، أو بتحريك الساكن من الوسائل التي ترفع من تأثيرها في النفس »[١]، وذلك في قول الشاعر :[٢]

وَكَذَا في حُنين وافتْ جُيوشُ الْـ ـكُفـر تَترى كَالعَارِضِ الهَطّالِ

وَبُروقُ السُّيوف فيه كومْضِ البَرقِ يَبْـدُو في صَيّب مِـــنْ يَبَالِ

فَرَمَاهُمْ بِقبْضةٍ مِـــنْ تُـــرَابِ فَغَـدُوا كالنّعــام في الأجفالِ

وفي صورة لونية يُشخص الشّاعر دموعه التي تركض على خديه عند رحيل الرّكب إلى الحجاز :[٣]

وتركض في خديه حمر دموعه إذا ما غدت تلك الركائب تعنق

وتميزت صور الشّاعر بظاهرة التّفصيل أو التدوير في التشبيه وهي « أن يلح الشّاعر على تشبيه واحد ، وأن يفصّل القول فيه ، ليقرر معنى معيناً » [٤] ، فالبرق عند الشاعر شخص انفرجت ثنيتاه تبسماً ، بل هو سلمى المحبوبة أرخت لثامها ، فبانت اسنانها الجميلة ، وعندما شاهدها المُحب انسكبت دموعه ، واحترقت احشاؤه . فالشّاعر يتكأ على هذه الظاهرة الطبيعية في رسم صورته في أدق تفصيلاتها ، فَلمْعُ البرقِ يقابل ابتسام سلمى ، واضطرام الرعد يقابل اضطراب أعصاب المحب ، ونزول المطر يقابل انسكاب الدموع ، وهو بهذا يفصّل في الصورة ، ويعرضها في أكثر من قالب لفظي ، وذلك في قوله :[٥]

١- إحسان عباس ، تاريخ النّقد الأدبي عند العرب ، (دار الثّقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨١م) : ٤٣٣

٢- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ١٢٣

٣- المصدر السابق : ٣٣

٤- شفيـق محمد الرقب ، الشّعر العربي في بلاد الشّام في (ق ٦ هـ) ، (دار صفاء ، عمان ، ١٩٩٣م) : ٣١٧

٥- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٢٦

مُغْرَم بالبـــرقِ يبْكـــي كُلّما ‌‌ ظَنّـــهُ بَيـــن الثّنيّـــات ابتِسَامَا

مَادَرَى هَــلْ عنّ بَرْقٌ وانْطَوَى ‌‌ أمْ سُليْمَى في الدُّجَى أرْخَت لِثَامَا

فحكـــى الغَيـث انسِكَاباً دَمْعهُ ‌‌ وَحَكَتْ أحشَاؤه البـــرقَ اضْطراما

لمْ يَكُنْ أوّل صَـبّ في الهَوى ‌‌ شَبّـــهَ البَارق بالثّغـــر فَشَامـــا

قاتـــل اللهُ بريقـــاً بالحمـــى ‌‌ أنْفَـــذَ الأدْمُـــعَ واستْبقى الغماما

غَارَ مَـــنْ بَرق الثّنايــــا فَسَقى ‌‌ وَجْنةَ الصّب وَلَمْ يُسْــقِ البَشاما[١]

إن حَمَــاه رَبّهُ مِنْـــهُ فَقَـــدَ ‌‌ عَوّضَتْهُ الـــرّي رَشْفـــا والتِثَامــا

ويفصّل الشاعر في بعض الصّور، ويُتبعُ بعضها بعضاً بشكل مكثف متواصل، معتمدا أسلوب التّشخيص والتجسيم تارة ، والتشبيه بالأداة تارة أخرى ، مع تراسل عناصر اللون والشم والحركة ، مما أضفى عليها دقة وانسجاماً ، وذلك في قوله :[٢]

والسُّرى قَدْ أرَاقَ كَـــأسَ الكَرَى مِنّا فَمَـــا نُطْعمُ الجفُون غـــرارا

والدّياجي تُسايرُ الرّكب بالشّهـ ‌‌ ـب ليهْدى بها إذا هُـو حارا

فكأنّ السّمـــاء حُلّـــةُ وشـــيٍ ‌‌ تخـــذت مِـنْ نُجُومهـــا أزْرارا

أوْ كَـرَوضٍ أحْـــوى الخمائـــل بَثّ النُورُ مِنْ زَهْرها بِهِ أزْهـــارا

فَـاضَ فيـــه نهرُ المجرّة حَتّى ‌‌ غرّق المَـــوجُ ذلـــك النّوارا

والدُّجـــى مِثْـــلَ غادة مِـــنْ بَنَاتِ الزّنْج صاغت لها الهلالَ سِوُارا

وَنَسيمُ الأسْحَارِ يَنْقُلُ عَنْ نَشْـ ‌‌ ـرِ الخُزَامى إلَيْهِـم الأخْبَـــارا

كُلّمـــا هَزّ في سُراهُ قُدُودَ الـ ‌‌ بَانِ عَجبـــاً بهـــا أغَار الغَارا

كما أكثر الشّاعر من الصّور ذات الطابع المنطقي ، وخاصة حين حديثه عن مصداقية نبوة محمد (ﷺ) أو معجزاته ، ومن ذلك قوله :[٣]

لَهُ مُعْجِزَاتٌ كالنُّجُومِ وَإنّ مَنْ ‌‌ يُحاوِلُ إحِصَاءَ النّجوم لأخْرَقُ

١- البشام : شجر طيّبُ الريح والطّعم يُستاك به ،
٢- الشّهاب محمود ، أهنى المنائح : ٩٧
٣- المصدر السابق : ٣٥

وقول الشّاعر مبيناً مصداقية الرّسول ، وصحة نبوته : [١]

هَل بالنّهار وَقَدْ جَلا ظُلَمُ الدُّجـا للنّاظريـن إذا رأوه خَفَـاءُ

هَل يَسْتَوِي شمْسُ الظّهيرَة إشْرَقَت أنْوَارُهـا واللّيْلـة اللّيْـلاَءُ

لـوْلا الهَوى غَطّى بَصَائِرَ رُشْدِ هُم لَمْ تختَلِـف في مثلِـه الآرَاءُ

وهكذا ، فقد نوع الشاعر في المصادر التي اشتق منها صوره ، ولون في طرق تشكيلها ، مراوحاً بين الاستعارات ، ومضفياً على صُورَة عناصر من الحيوية باعطائها شكلاً وحركة ولوناً ... ومفصلاً ومكثفاً في عرضها أحياناً ؛ دون أن يطغى أي جانب على الآخر ، بل تنساب بشكلٍ مسترسل سلس دون أن يكدُّ الشّاعر ذهنه في تطلبها .

كما تميزت صور الشّاعر بالسّهولة والبساطة ، والبعد عن الوعورة والتكلف ، لأنها موجهة إلى فئة كبيرة من النّاس ، وذلك حتى تكون أكثر تأثيراً في المستعمين ، ولكنّ هذه السّهولة لم تنحرف بلغة الشّاعر عن الجزالة ، والوقع القوي إلى اللغة العامية المحكية .

وتكررت عند الشّاعر الكثير من الصّور المستمدة من النُّور ، فهو يتحدث عن الشّمس والضياء والنّجوم بكثرة ، وقد يعود ذلك إلى طبيعة الموضوع المطروق ، وهو موضوع ديني مليء بالنفحات النورانية ، تتصل أحداثه بالسّماء والأرض ، فهو النّور الذي أزال الظُّلمة من النفوس ، وأنار للبشرية سُبل الحياة الفضلى .

وأدت الصُّورة عند الشّاعر وظيفتها في الاقناع باستخدام الأدلة المنطقية والحجج العقلية ، لتوضيح الصورة وتأكيدها ، كما أدت وظيفتها في التزيين عن طريق استخدام الألوان البلاغية المختلفة .

ويُلاحظ اتصال الصّور بأحوال الشّاعر النّفسية المعيشة ، إذ أكثر من صور مشاهد رحيل الرَّكب نحو الحمى النّبوي ووصف مراحل سيرهم حتى الوصول للحمى ، وهو في ذلك يعّبرُ عن حب كبير للحمى النّبوي ، ورغبة أكيدة في الزيارة .

١- الشهاب محمود ، أهنى المنائح : ٧٨

الخاتمة

بعد دراستنا لديوان الشّاعر شهاب الدين محمود الموسوم بـ « أهنى المنائح في أسنى المدائح » ، وتتبعنا للقضايا المضمونية والفنية الواردة فيه ، فقد خلصنا إلى عددٍ من النتائج ، من أهمها :

- كشفت الدّراسة عن شاعر متخصص في المديح النّبوي ، وذلك من خلال دراسة ديوانه الموسوم بـ (أهنى المنائح في أسنى المدائح) .
- تناولت الدراسة جانباً هاماً من شعر شهاب الدين محمود ، وبصورة أخص شعره في المديح النّبوي ، فعلى الرّغم من كثرة شعره وجودته ، إلا أن نصيبه من عناية الدّارسين كان ضئيلاً ، لذا فهذه الدّراسة تُعد فتحاً جديداً لجانب من أدب الشهاب محمود الشّعري .
- وضّحت الدّراسة علاقة الشاعر بالعصر ، والظروف التي أحاطت به منذ ولادته وحتى وفاته ، وأبانت عن عمق احساس الشّاعر بالواقع ، وتعبيره عنه بالشّعر ، كما بينت الدّراسة أسباب هروب الشاعر نحو المكان والزمان المثاليين ، واستعادة صُور الماضي بكل ما فيه من أصالة وصفاء ، الأمر الذي ساهم في انتشار هذا اللون من الشّعر .
- كشفت الدّراسة عن المؤثرات الصُّوفية في أدب هذه الفترة ، وكيف نسج الشّاعر خيوط مدحه للرّسول من خلال الحقيقة المحمدية .
- عرض الشّاعر للسيرة النّبوية في مراحلها المختلفة وفي أدق تفصيلاتها ، ومؤكداً على المثالية الخلقية للرسول (ﷺ) .
- لم يغفل الشّاعر صحابة رسول الله باعتبارهم غراس دعوته ، وحاملي راية الإسلام من بعده ، فعرض لهم صوراً عدة تُضفي عليهم المثالية الدينية والخلقية والنّفسية ، ومتصدياً لأولئك الغلاة من بعض المتشيّعين ، الذين يسبون صحابة رسول الله ، مقيماً عليهم الحجة والدليل ، ومعدداً مآثرهم وفضائلهم رضوان الله عليهم .

- وضحت الدراسة مدى ترّسم الشّاعر لمنهج القصيدة العربية وفقاً للملاحظات النقاد العرب القدماء ، حول القصيدة العربية وبنائها ، ومظاهر التجديد في المدحة النبوية عند الشّاعر .
- عالجت الدراسة أسلوب الشّاعر الفني في عرض إبداعه الشّعري من خلال عددٍ من الأدوات الفنية البارزة .
- كشفت الدراسة عن تنويع الشّاعر في مصادر اشتقاق صُوره الفنية ، وتلوينه في طرق تشكيلها ، وبيّنت كيفية اداء الصّورة لوظيفتها في الاقناع والتزيين ، ووضحت مدى اتصال الصور الشّعرية بأحوال الشاعر النفسية .
- اثبتت الدّراسة ثقافة الشّاعر الدينية الواضحة التي أبانت عنها قصائد المديح النّبوية ، كما سجلت ثقافة الشاعر وسعة اطلاعة في مختلف العلوم ، والفقه والأدب ، وأشعار السابقين ، والتاريخ ، تجمع كل ذلك الموهبة الفنية الفذة ، مما جعل الشّاعر يقف في قمة هرم المثقفين .
- بينت الدّراسة قوة قصائد الديوان ، وجزالتها ، وأنها ليست بديعيات كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين بقوله : « وشهاب الدين محمود مصنف له ... ، وأهنى المنائح في أسنى المدائح ؛ وهي بديعيات »[1] .
- اثبتت الدّراسة أن الشّاعر لم ينجرف لمقاييس العصر واتجاهاته الأُدبية بشكل كبير ، ولم ينصرف إلى مجاراة الشعراء القدماء في وعورة الفاظهم وصعوبتها ، وإنما حافظ على مرحلة وسطى ، تأخذ من القدماء بلاغتهم وجزالة الفاظهم ، وتأخذ من المحدثين سهولة ووضوح اسلوبهم .
- توصلت الدّراسة إلى أن الديوان (أهنى المنائح في أسنى المدائح) بحاجة إلى تحقيق علمي .

١- د. عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، (دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٤م) ٣ : ٧٣٦

قائمة المصادر والمراجع

أ- القرآن الكريم

ب- المصادر

أولاً : المصادر المخطوطة

* الصّفدي ، خليل بن أيبك الصّفدي :
- أعيـان العصر وأعوان النّصر ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت ، المانيا الاتحادية ، طُبع بالتّصوير عن مخطوطة (١٨٠٩) مجموعة عاطف أفندي ، مكتبة السُّليمانية ، استانبول ، ١٩٩٠م .

* العمري ، شهاب الدّين أحمد بن يحيى العُمري :
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، فرانكفورت ، المانيا الاتحادية ، طُبع بالتصوير عن مخطوطة (٣٤٢٥) مكتبة السُّليمانية ، أيا صوفيا ، استانبول ، ١٩٨٨م .

ثانياً : المصادر المطبوعة

* ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن مُحمد الجزري :
- أسد الغابـة في معرفة الصّحابة ، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون ، دار الشّعب ، لبنان ، د.ت .

* ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدّين نصرالله بن محمد
- كفاية الطالب في نقد كلام الشّاعر والكاتب ، تحقيق نوري حمودي القيسي وآخرون ، جامعة الموصل ، بغداد ، ١٩٨٠ .

- المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر ، تحقيق أحمد الحوفي ، و بدوي طبانة ، دار الرّياض ، الرياض ، ط٢ ، ١٩٨٣م ٠

* الأصفهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبدالله :
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٨م ٠

* الأعلم الشنتمري ، أبو الحجاج يوسف بن سليمان :
- شرح حماسة أبي تمام ، تحقيق علي المُفضل حمودان ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م ٠

* ابن إياس ، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي :
- بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٢م ٠

* البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل :
- الجامع الصّحيح ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، د٠ت ٠

* البوصيري ، محمد بن سعيد :
- ديوانه ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، مطبعة مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٣م ٠

* بيبرس المنصوري ، ركن الدين بيبرس الدوادار :
- التحفة الملوكية في الدّولة التركية (تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من (٦٤٨ - ٧١١ هـ) ، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان ، الدّار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٧م ٠

* ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف :
- النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، د.ت .

* أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي :
- ديوانه ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، د.ت .

* ابن تيمية ، تقي الدّين أحمد بن تيمية :
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٩٧٠م .

* جرير بن عطية :
- ديوانه ، شرح محمد الصاوي ، مضافاً إليه تفسيرات العالم اللغوي أبي جعفر محمد بن حبيب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت .

* ابن الجزري ، أبو عبدالله شمس الدين محمد القرشي :
- حوادث الزّمان وأنبائه ، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، المعروف بتاريخ ابن الجزري ، تحقيق عمر عبدالسّلام تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا ، ط١ ، ١٩٩٨م .

* ابن جماعة ، عز الدّين بن بدر الدين الكناني :
- المختصر الكبير في سيرة الرّسول ، تحقيق سامي مكي العاني ، دار البشير ، عمان ، ط١ ، ١٩٩٣م .

* ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن حبيب :
- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

* ابن حَجة ، تقي الدين علي بن حجّة الحموي :
- خزانة الادب وغاية الأرب ، شرح عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩١م .

* ابن حجر ، شهاب الدين أحمد العسقلاني :
- الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، د.ت .

* حسان بن ثابت :
- ديوانه ، شرح عبدأ مهنّا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦م .

* الحلبي ، شهاب الدِّين محمود بن سليمان الحلبي :
- أهنى المنائح في أسنى المدائح ، مطبعة جريدة الشّورى ، مصر ، ١٣٣٤هـ .

- حسن التّوسل إلى صناعة التّرسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرّشيد للنّشر ، العراق ، ١٩٨٠م .

* الحموي ، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله :
- معجم البلدان ، دار صادر ، ودار بيروت ، لبنان ، ١٩٥٧م .

* ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد :
- المقدمة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .

* ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد :
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

* ابن دقماق ، صارم الدّين ابراهيم بن محمد العلائي :

- الجوهر الثمين في سير الملوك والسّلاطين ، تحقيق محمد كمال الدّين عز الدين علي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م .

* الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد :

- ذيول العبر في خبر من غبر ، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م .

* ابن رجب ، زين الدّين عبدالرحمن بن شهاب الدين الحنبلي :

- الذيل على طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

* ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني :

- العُمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد قرقزان ، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨م .

* الزّوزني ، أبو عبدالله الحسين بن أحمد الزوزني :

- شرح المعلقات السبع ، دار البيان ودار القاموس الحديث ، بيروت ، د.ت .

* السُّبكي ، تاج الدين عبدالوهاب السّبكي :

- معيد النّعم ومبيد النّقم ، حققه وضبطه وعلق عليه ، محمد علي النّجار وآخرون ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٨م .

* ابن شاهين ، غرس الدِّين خليل الظاهري :

- زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، تصحيح بوليس راويس ، مطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤م .

* الشوكاني ، محمد بن علي :

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة ، بيروت ، د٠ت ٠

* الصالحي ، محمد بن يوسف :

- سُبل الهدى والرّشاد في سيرة خيرالعباد ، تحقيق عادل أحمد عبدالموجود ، وعلي محمد معوَّض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م ٠

* الصرصري ، أبو زكريا جمال الدين يحيى بن يوسف :

- ديوانه ، تحقيق مخيمر صالح ، جامعة اليرموك ، إربد ، د٠ت ٠

* الصّفدي ، خليل بن أيبك الصّفدي :

- الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، دار الكُتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٥م ٠

* الصفي الحلي ، أبو المحاسن عبدالعزيز بن سرايا الطائي :

- ديوانه ، دار صادر ، بيروت ، د٠ت ٠

* أبو طالب بن عبدالمطلب :

- ديوان أبي طالب عم النبي (ﷺ) ، جمع وشرح محمد التونجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م ٠

* ابن طباطبا ، أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي :

- عيـار الشّعر ، تحقيق عبدالعزيز بن ناصر المانع ، مطبعة المدني ، مصر ، د٠ت ٠

* الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير :
- السيرة النبوية ، تحقيق جمال بدران ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٤م .

* الطُّوسي ، أبو نصر السّراج الطُّوسي :
- اللُّمع ، تحقيق عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ، دار الكتب الحديثة ، مصر ، ومكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٠م .

* ابن عبدالبرّ ، أبو عمر يوسف بن عبدالبر النّمري :
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م .

- الدُّرر في اختصار المغازي والسّير ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ .

* ابن عبدالظاهر ، مُحي الدّين بن عبدالظاهر :
- الــروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ، ط١ ، ١٩٧٦م .

* العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري :
- كتاب الصّناعتين ، تحقيق محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٢م .

* ابن العماد ، أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي :
- شذرات الذّهب في أخبار من ذهب ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، طبعة جديدة .

* العمري ، أحمد بن فضل الله :
- التعريف بالمصطلح الشرّيف ، دراسة وتحقيق سمير الدروبي ، جامعة مؤتة ، الكرك ، ط١ ، ١٩٩٢م ٠

* العيني ، بدر الدّين محمود :
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان حوادث (٦٦٥ - ٦٨٨) هـ ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨م ٠

* ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم :
- تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، المطبعة الامريكانية ، بيروت ، ١٩٣٩م ٠

* القاضي عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي :
- الشّفا بتعريف حقوق المُصطفى ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، د٠ت ٠

* ابن قُتيبة ، عبدالله بن مُسلم :
- الشّعر والشعراء ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، د٠ت ٠

* قُدامه بن جعفر :
- نقد الشّعر ، تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٠م ٠

* القرطاجني ، أبو الحسن حازم القُرطاجني :
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨١م ٠

* القُشيري ، أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن :
- الرسالة القُشيرية في علم التّصوف ، تحقيق معروف زُريق وعلي عبدالحميد بلطة جي ، دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٠م .

* القلقشندي ، أحمد بن علي :
- صُبح الأعشى في صناعة الإنشا ، مصوّر عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنّشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

* ابن قُنفذ القسنطيني ، أبو العباس أحمد بن الخطيب :
- وسيلة الإسلام بالنّبي ، تحقيق سليمان الصّيد ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤م .

* قيس بن الملوّح :
- ديوانه ، شرح وتحقيق رحاب عكاوي ، دار الفكر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م .

* الكاشاني ، كمال الدين بن عبدالرزاق :
- اصطلاحات الصُّوفية ، تحقيق محمد كمال وآخرون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١م .

* الكُتبي ، محمد بن شاكر :
- عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السّامر ونبيله عبدالمنعم داوود ، دائرة الشؤون الثقافية والنَّشر ، العراق ، ١٩٨٤م .

- فوات الوفيات والذّيل عليها ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

* ابن كثير ، أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن عمر :
- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٠م .

- الدلائل معجزات النبي (ﷺ) ، تحقيق محمد بن عبدالعزيز الهلاوي ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، د.ت .

- شمائل الرّسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

- الفصول في حياة الرسول ، اعداد حجر عاصي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩١م .

* الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد :
- أعلام النبوة ، تحقيق خالد عبدالرحمن العك ، دار النفائس ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م .

* المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي :
- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين الشّيال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٠م .

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٦م .

- المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م .

* المقَّري ، أحمد بن محمد التلمساني :
- نفح الطِّيب في غُصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٨م .

* ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم :
- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٤م .

* موفق الدين بن عثمان :
- مُرشد الزوار إلى قبور الأبرار ، المُسمّى الدُّر المنظم في زيارة جبل المقطم ، تحقيق محمد فتحي أبو بكر ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م .

* النّبهاني ، يوسف بن اسماعيل :
- المجموعة النّبهانية في المدائح النّبوية ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت .

* النُعيمي ، عبدالقادر بن محمد :
- الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسني ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

* النووي ، أبو زكريا يحيى بن شرف :
- رياض الصالحين ، تحقيق وتخريج حسان عبدالمنّان ، المكتبة الإسلامية ومكتبة برهومة ، عمان ، ط٣ ، ١٤١٣هـ .

* النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب :
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، مصوّر عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، د.ت .

ج- المراجع

* إبراهيم بسيوني :
- نشأة التصوف الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، د.ت .

* إحسان عباس :
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨١م .

* أحمد أمين :
- النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

* أمين الشيخ علاء الدين النقشبندي :
- ما هو التصوف ، ترجمة محمد شريف أحمد عن الكردية ، د.ن ، د.ت .

* أنور فؤاد أبي خزام :
- معجم المُصطلحات الصُّوفية ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٣م .

* بشارة موسى صالح :
- الصُّورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م .

* جودت الرّكابي :

- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار الفكر ، دمشق ، تصوير سنة ١٩٨٣م عن ط١ ، ١٩٨٢م .

* حلمي القاعود :

- محمد (ﷺ) في الشّعر الحديث ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، مصر ، ط١ ، ١٩٨٧م .

* خير الدين الزركلي :

- الأعــلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨٤م .

* زكي مُبارك :

- المدائح النّبوية في الأدب العربي ، دار الشّعب ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

* السّيد عبدالقادر عويضة :

- أثر الاسلام في الشّعر في عصر الرّسول والخلفاء الراشدين ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٨٧م .

* شفيق محمد الرّقب :

- الشّعر العربي في بلاد الشّام في القرن (٦هـ) ، دار صفاء ، عمان ، ١٩٩٣م .

* شوقي ضيف :

- تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات / مصر والشّام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

- الشّعر وطوابعهُ الشعبية على مرّ العصور ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، د.ت .

- فصول في الشّعر ونقده ، دار المعارف ، مصر ، ط٢ ، د٠ت ٠

* صلاح مُصيلحي علي عبدالله :
- التقليد والتجديد في الشّعر العباسي ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، د٠ت ٠

* عاطف جودة نصر :
- شعر عمر بن الفارض ، دراسة في فنّ الشّعر الصوفي ، دار الأندلس ، ط١ ، ١٩٨٢م ٠

* عبدالحليم حفني :
- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٧م ٠

* عبدالقادر بدران :
- منادمـة الأطلال ومسامرة الخيال ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥م ٠

* عزيزة مريدين :
- القصة الشّعرية في العصر الحديث ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٤م ٠

* عزيز السّيد جاسم :
- محمد (ﷺ) الحقيقة العظمى ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق، ١٩٧٨م ٠

* علي إبراهيم حسن :
- تاريخ المماليك البّحرية ، مكتبة النّهضة المصرية ، القاهرة ، د٠ت ٠

* علي صافي حسين :
- الأدب الصوفي في مصر في القرن (٧ هـ) ، (دراسة في الأدب المصري) دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٤م .

* عماد الدين خليل :
- دراسة في السيرة ، مؤسسة الرسالة ودار النفائس ، بيروت ، ط ١٣ ، ١٩٩١م .

* عمر رضا كحالة :
- معجم المؤلفين ، جمع وإخراج مكتب تحقيق التراث ، مؤسسة الرّسالة ، بيروت ، ١٩٩٣م .

* عمر فروخ :
- تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٤م .

* عمر موسى باشا :
- محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني، مطبعة الاحسان، دمشق، ١٩٨٠م.

* غصوب خميس غصوب :
- عبدالله بن المعتز شاعراً ، دار الثقافة ، قطر ، ط١ ، ١٩٨٦م .

* فوزي محمد أمين :
- المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول (٦٤٨ - ٧٦٤) هـ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

* ماهر حسن فهمي :
- قضايا في الأدب والنقد ، رؤية عربية وقفة خليجية ، دار الثقافة ، قطر ، ١٩٨٦م .

* محمد التونجي :
- التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي ، دار طلاس ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٧م .

* محمد زغلول سلاّم :
- الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر ، د.ت .

* محمد عادل الهاشمي :
- أثـر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا (١٩٢٠-١٩٤٦) ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط١ ، ١٩٨٦م .

* محمد غازي عُرابي :
- النصوص في مصطلحات التصوف ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٥م .

* محمد كامل الفقي :
- الأدب في العصر المملوكي ، دار الموقف العربي ، مصر ، ط٣ ، ١٩٨٤م .

* محمود ابراهيم :
- صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، دار البشير ، عمان ، ط٢ ، ١٩٨٨م .

* محمود رزق سليم :
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

* محمود سالم محمد :
- المدائح النّبوية حتى نهاية العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٦م ٠

- أدب الصُّنـاع وأرباب الحرف حتى (ق١٠) هـ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٣م ٠

* محمود عبدالرؤوف القاسم :
- الكشف عن حقيقة الصّوفية لأول مرة في التاريخ ، المكتبة الإسلامية ، عمان ، ط٢ ، ١٤١٥هـ ٠

* محمود علي مكي :
- المدائح النّبوية ، دار نوبار ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩١م ٠

* مخيمر صالح :
- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري ، دار مكتبة الهلال ، بيروت والدار العربية ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٦م ٠

* مدحت سعد محمد الجبار :
- الصُّورة الشّعرية عند أبي القاسم الشابي ، الدار العربية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٤م ٠

* مزهر عبدالسوداني :
- الشّعر العراقي في القرن السادس الهجري ، دار الرشيـد للنشر ، العراق ، ١٩٨٠م ٠

* موسوعة التاريخ الإسلامي :
- رسول الله نبوءة سطيح والزرقاء ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢م.

* نازك الملائكة :
- قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٦ ، ١٩٨١م .

* ناظم رشيد :
- في أدب العصور المتأخرة ، مكتبة بسام ، الموصل ، ١٩٨٥م .

* وليم موير :
- تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م .

* ياسين الأيوبي :
- آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، جرّوس برس ، لبنان ، ط١ ، ١٩٩٥م .

* يوسف بكّار :
- بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث ، شركة الفجر العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٢م .

د- الرسائل الجامعية

* حسن أحمد الذنيبات :
- الشهاب محمود الحلبي ، حياته ونثره ، رسالة ماجستير ، مكتبة جامعة مؤتة ، الكرك ، ١٩٩٥م .

هـ- الدوريات

* أحمد ضيف

- القصص في الأدب العربي ، مجلة المقتطف ، فبراير ، ١٩٣٥م .

* سامي مكي العاني :

- اقتباس شعراء صدر الإسلام من القرآن الكريم ، مجلة آداب الجامعة المستنصرية ، العراق ، العددان ، ٢٠ و ٢١ ، ١٩٩١م .

- الحركة الشّعرية في الأنبار خلال القرن السادس الهجري ، مجلة آداب الجامعة المستنصرية ، العراق ، العددان ١٨ ، ١٩ ، ١٩٩٠م .

* محمد رجب النجار :

- بردة البوصيري قراءة أدبية وفلكلورية ، حوليات كلية الأداب ، جامعة الكويت ، الحولية السابعة ، ١٩٨٦م .

Abstract

AL-Halabie's prophetic eulogies
An objective and artistic study
by
Ayman Farhan Al-Hamidi Al-Amaireh
Supervisor
D. Shafiq Mohammad Al- Rygub

The research studies the poetical art prophetic eulogies of shihab Al-Din Mhamood Al-Halabi (725-644 H.) . The research deals with his collection of poems name " Ahna AL- Manahi fee Asna Al-Madaeh " . Translated The happiest wailings in the best eulogies . This collection of poems has never been studied by the contemporary scholars and researchers .

The research study tries to find out the development of the prophetic eulogies in the last era . The research is made up of an introduction , three chapters , and an epilogue . The introduction focuses on the poot's time , his relationship with that period , and the prevailing religious , social and political circumstances that greatly influnced his versification and potery .

Chapter one shows the poet's motives for the composition of the prophetic eulogies . These motives are divided into two parts . The first one is about the motives of his envirnoment and period . The second motives are his personal motives which encourged him to write his own collection of poems . Chapter two sheds the light on the eulogistic description of prophet Mohammad peace be upon him and his companions . He presented aclear picture about prophet Mohammad through the following dimensions : Mohammad's reality and character , the prophet's biography , the messenger's ideal nature and morality , and the eulogy of his companions . Chapter three dealswith the artistic poetic issues concerning . The poet's eulogies , that is , the sturcture of the prophetic poem , his style and poetic diction and the poetic imagery .

In the end , the researcher sums up the tesults of his study in this research .